زيد الشهيد

فراسخ لآهات تنتظر

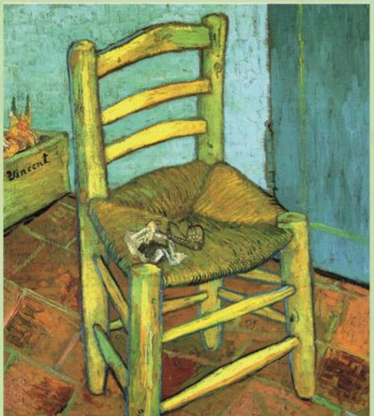

رواية

فراسخ لآهات تنتظر

جميع الحقوق محفوظة

الكتاب فراسخ لآهات تنتظر

تأليف: زيد الشهيد

Al-Yanabia

Sweeden-Stokhholm

TEL: 0046 8 367207

دار الينابيع

طباعة – نشر– توزيع

هاتف: ٤٤٣٢٠٩٦ / جوال: ٩٤٤٦٢٨٥٧٠- ٠٠٩٦٣

Email: akramaleshi@gmail.com

زيد الشهيد

فراسخ لآهات تنتظر

رواية

ســــــــــلاماً كلُّـــــــهُ قـــبُلُ		كـــــأنَّ صمـــــيمَهُ شُــــعَلُ
وشـــــوقاً مــن غريــبِ الــدارِ		أعــــيَتْ دونَـــــهُ السُّــــبلُ
مُقـيمٌ حيــثُ يضــطربُ المُنــى		والســــــعيُ والفشـــــــــلُ
وحيــثُ يُعـــــــارِكُ البلــوى		فتلـــــــويهِ ويعـــــــــتدلُ
ســــــــــلاماً أيهــا النــدمان		إنّـــــي شـــــــاربٌ ثمِـــــلُ
ســــــــــلاماً أيهــا الثـــاوون		إنّـــــي مُزمِـــــــــعٌ عَجِــــلُ

الجواهري

الأبُ كما رأيتـه.. البيتُ كما أراه

اللحظـات المتهاطلـة بثقـلٍ وئيـد تتحـنّط إزاء عتبـة بـاب الغرفـة الموصدة لتنضم إلـى تكلّسات غبار يحجب سِفراً حكائياً تبوح بـه عينٌ تأخذ لها حيّزاً من التتبّـع يبدأ بالتحديق وينتهـي بالذهول؛ وهو شـهاب الـذي كلَّـت ذاكرتـه مـن الإرهاق فأصيبت بـالوهن وبقـي لهـا الاسـتعانة بالشَدَهِ. يقولـون عنـه المسكين المقذوف بـالفراغ، المكبّل بالوحدة بعدما دفن رفيقة السنين مُجبراً علـى البقاء حيث شاء المشـيء أن تتقدّمـه فـي رحلـة الأبدية فبات كلُّ ما يفعلـه هو الدنو من خزانـة حاجياتها الدنيوية تلمُّساً. يشم رائحتها أو يستعيد مشـهداً خشـيَ أن يبهت مستحيلاً شتاتا من العسير لمِّهِ وإعادة جدولته.

يضع أصابعه فتطبع أثراً يشكّل لوناً رملياً يعطـي إيحـاءً بالإهمال.. يعنّف النفسَ لأنّـه يوماً ما مارس صفة إيذائها بدمع تهطلـه أو كلمات تفشـي سرَّ ألـمٍ دفـين.(لـم تكـن النهايـة لتحصـل لـولا غمامـات الكـدر المسـتبيحة سـماء الحيـاة،، والأعـوام الخمسـون لا تُعَـد بعمـر الـدنو الطبيعي من جادّة الرحيل... بدأ الوضـع بوخزةٍ إبريّة تستدعي ضغط الخصـر الأيمـن، ثـم ضيق نفَس قصـير آلَ إلـى ارتيـاح يسير مُصـرِّح بالطمأنينة الكاذبة.)..

يحتمـي بـالنهوض صـوبَ الخـروج. تأخـذه القـدمان باتجـاه مقهـى أو توقفانـه عنـد مفتـرق طريـق مكبوحـاً بسـؤال، أيـن يـذهـب.. يقـول:" أيـن أذهب؟ " وهو لا يدري أنها هـي.. هـي.. تشابةٌ يوقظ فـي الروح غبارَ

الضجر.

يومياً يلتقي الصغار الناسين فحوى اللعب وألوان الحلوى مضرّجين بوحل الشحوب..

يومياً – في الطريق – يزاحمهُ بائعو عربات الخضار؛ تصدم مسامعَه شتائمُهم المتضاربة ولعنات تشيِّع كُثراً الملفّعات بالعباءات الموحلة يحملن وراء طيّاتها سرقةً ما يقلل جوع المرابطات بين الجدران بغية تأجيل بثق اللوكيميا، وانتعاش السل في الأجساد المدجّجة بالإنهاك.

سألوه يوماً عن جدوى التتبّع فلم يرد.. كل ما قاله: كفى..كفى!! مستعيناً بانحناءة الرأس قبل التحسّر.. أنفاس الليل تسقيه كأس الذهاب محمولاً على رموش لمس الغائبة. تومىء له كأنها تناديه.. يلتفت لشتى الاتجاهات ضماناً لحصاد اليقين. يقين وجودها امتثالاً لا تمثّلها طيفاً.

ألقى نظرةً خاطفة على المرآة فأنبأته بقوام عفَتْ عنه الأناقة. وبدلاً من أنْ يعود ليتفحّص عاديات الأيام على الوجه الذي استبدلت التجاعيد والصفرة ومسوح الشحوب صفاء البشرة ونعومتها استدار ليلتقط نظّارتيه.. هكذا؛ ترك السرير مبعثراً... الوسادة مائلة كورقة مطويّة / الغطاء ركام بلا أبعاد / الخفّان يبصمان قدميه على تراب الأرض..الخف الأيسر يلتقي الأيمن فيما الحائط تثقّبُه مسامير تحمل ثياباً لرجل متعب آثر الملل...

قال لها: بعدكِ لن يكون لها طعمٌ، ورائحتُها تثير خمولي.

يلاحقه الزمن القديم فيتمنّى ساعياً لنسيانه.. يتشبّث بأيامها؛ بأحاديثها، بحميميّتها هروباً من الوطء الثقيل الذي يلاحقه..

وطء الصفحات الرمادية للعمر الساري / الليالي المليئة بالمكائد / النهارات الضاجّة بالملاحقات... عندما يستعيدُ زمناً كان على أعتاب مواجهة حياة تفتح ذراعيها لتأخذه صوب محطّات الألفة يشتعل ندماً.. يستعين بالدمع وحيداً، وصولاً لتعذيب النفس... يقول: كيف ارتضيت ذلك الانحراف؟ ولماذا لم أتّعظ من تاريخ قراءة صفحات الآخرين، أنّا ابنُ ذلك الأب رضي الحال؛ شكور النعمة.

تحاصره الأسئلة، وتعاوده الوجوه المتوسلة؛؛ ويتذكّر؛ يتذكّر.. يتذكّر فيلوذ بوجهها هروباً.

كان الرحيلُ بمثابة تعميق الفراغ / تشتّت أواصر / هجران يفضي لبعثرة الزمن باستثناء مكان الذكرى .. الأزمنةُ تذوب وتترك الأمكنة.. ساعات من غرف.. دقائق من فناءات.. لحظات من هواءٍ مجازاتٍ تخثّرهُ العتمة... والأعوام تشقّقات ترسم لها خارطةً تعرضها الجدران فيما أعمدة السقوف تحتفظ بأبخرة وسخام نيران المواقد الليلية... أحاديث يعطّرها الهمس تنتهي بملاحقات أنفاس أشباح مفترضة...

نظرات متبادلة بمثابة نميمة أو خدش حياء؛ دعوة لتنصّت مريب: أنيسة الأم وياسر الولد؛ والابنة حليمة، بين تواضع أثاث وبساطة بيت تقرأ لهم سوَّراً لتبعد دبيب الوساوس، وتطمئِّنُهم بقلبِ الأبِ الشجاع.

.. ويتراجع!!

حين خلّفَ غرفته طالعه الحوش. ينثر أنظاره تفحّصاً كأنّه مدعو للملاحظة راسماً بُعداً ماثلاً مستهلاً بالمطبخ ومنتهياً بالغرفة المواجهة لوقوفه.. يؤمها عبر بابها الموارية أبداً / أبداً، سعياً لمعرفة ما إذا كان "ياسر" ينحت خطوطه السود على ظهر الجدران أو يذرعُ محدودية

الأرض يقيسها بأشبار بصره المتصالب صحبة عباراته المبتورة تحت هيمنة التمتمة...لا يثق وهو الأب بالصمت المالىء تخوم الغرفة دلالة عدم الوجود لأنَّ " ياسر" كثيراً ما صاحب الصمت إعلاناً لفضاء يشغله، محلِّقاً مع نأمةِ نملةٍ تمارس فعل الصيرورة خروجاً من ثقب ترابي أو شقٍّ جداري تعشِّشُ فيه، أو مستأنساً لطنين ذبابة هتكت شيوعَ السكون؛ أو تنصتاً لخربشة فأر تحرك بين زحمة الأنقاض لفعل القضم

يسأل: " أنتَ هنا، يا ولدي؟"

" نعم، أنا هنا! ". يأتيه صوت الفراغ.

.. ويتراجع!!

بقيَ أنْ يستجلي وجود " حليمة" قبل الخروج. عندما نادى جاءته الهمهمة من الغرفة لصيقة المطبخ فأدرك بعهدة التكرار استلقاءها على السرير وعدم الرغبة في النهوض.. يصيح " سأخرج يا ابنتي! ". ولم ينتظر لأنه اعتاد على عدم تلقّي نبرة توحي باعتقاد السمع المؤوّل، فأطلق كلاماً آخر فيه رجاء يقطر توسلاً:" أرجو أن أجدكِ عند عودتي. " مع يقين انّه يخاطب هواءً لأنَّ حليمة الابنة هي واحدة من الدبابيس التي تنخز خاصرة ذاكرته وتتركه سليل الألم.

يخرجُ.. وهو كل يوم يخرج..

تتحسّس أنامله الباحثةُ جيبَ سترته تلمّساً للساعة المكبّلة بسلسلة معدنية – أهداها له الأب في واحدة من ساعات الاحتفاظ بالتذكّر – تختزن برودة الأعوام الميتة. الساعة تتكُّ فلا يسمع تلاحق عقاربها. تنده به أنيسة من خلال فسحةٍ سمح بها الباب الخارجي: إلى أين؟ " وهي تعني: إلى أين تخرج يا شهاب؟ ".. يرد " ألا ترين؟! ".. تقول:"

أرى؛ ولكن سيداهمك الظلام بغتةً انقطاع الكهرباء." (والكهرباء مثل الأيام صارت هاربة راحلة لا أمان لها)؛ ستُخطىء المسير – ولنفسها – يا إلهي سيصبح نهب العثرات. سيُدمي له الارتطام جبهةً فتضحك منه الأعمدة والجدران وإشارات المرور المنسيّة. سيتأسى عليه المارّة فيعود مزدحماً بالشتائم.".. تلاحقهُ بالنظرات الحنون. ترأف لبطء سيره. يلتفت ليطمئنِها فلا يجد غير باب موصد ودربٍ يئن.

يخرج...

يلتقيه الجيران. يلقي، ويلقون سلاماً عابراً حيث السماء تجمع الرصاص لترتديه والجدران تتخلّى عمّا تبقّى من البرونز عنوةً بينما غربان تطلق سراحَ حناجرها: " قار.. قار..قار ". حناجرُ تُبعثر نداءات السكون إعلاناً لمقدم المساء: مساء الباذنجان والضجر المعتاد.. مساء المجاهيل المتلاطمة وأهرامات الكمد الجثيم.. مساء عطن المزابل شواخص الزمن الآتي.. مساء الترقب لفجرٍ قادم يحمل بين إبطيه بالونات المفاجآت.. مساء القار.. قار.. قار؛؛؛ كأنَّ المدينةَ ريفٌ منسي، مفازةٌ فقدت خطوطَها على مجسّات الخارطة... خارطة!! وعن أيّةِ خارطة تتكلم الكلمات؟!.. عن تبعثر الأجزاء داخل ردائها البالي؟! عن الساحات خاسرة الأسماء؟! الوجوه فاقدة الملامح؟! الأفواه مكمّمة النطق؟! الصدور الضامرة؟! الأرحام خزينة القديد؟! السواقي المُستباحة بالسبايروجيرا؟! النقيق الصادر من الترع الصفراء بضجّة هتافية ساخرة: قار.. قار.. قار؟!...

عندما يرد السلام يردّهُ بشعور مَن سيهاجمه تعنيف داخلي، وتمنّي باختزال حياتي خاطف يؤول إلى خاتمةٍ سريعة كالتهالك المنتَظَر.

كثيـراً تمنّــى اللحــاق بأنيســة.. كانــت عونــاً فــي ضــيق، وأجوبــةً لأسئلة...

ثمّةَ الأقدام يقيس تتابعاتها فلا يرى انسجاماً مع آثار قدميه. يعرف ويدرك سَفَهَ الأمر الذي قاد لفم النفق.. يدرك قابلات الأيام لن تفِهِ فسحةً من راحةِ بالٍ يسيرة هو التائب على يديها بعد فوات الأوان. يعرف أنْ لا ندم يجدي.

فالأوراقُ مُلِئت ...

والكتابُ يوشكُ على الانتهاء..

****

الفصل الأول

(١)

ها أنا أخرجُ من جديد. أبرحُ مواطنَ الدفء، مخلِّفاً ورائي جبالاً متزاحمةً من التهالكات، حاملاً على كاهل الروح رغاوي متناسلة من الكوارث المتهافتة والحروب الخاسرة والأسى المهول... أخرج ولا أدري كيف خرجت!!.. رأسي على جسدي والجواز بيدي. جوازٌ صار هويةً أبدية للرحيل والاغتراب والتنقّل عبر دروب المنافي، مقذوفاً بين تتابع محطات القلق ومنعطفات التهجّس ومتاهات البراري وحشود الوجوه وتهافتات الاستفهامات الآيلة إلى اللاجواب.. أتساءل كما لو كنت مُنسلخاً من رحمِ الذهول: أحقّاً هذا الذي أنا فيه هو أنا؟!.. أصدقاً هاتان اللتان تطآن شاطئ الأمان هما قدماي؟!...

أعدُّ اللحظات التي أخالها تمطّت فبلغت دهراً، مثلما أحثُّ الحافلة التي تقلّنا – برجاءاتي المتوسلة – للإسراع والخروج من شِراك الفخ الملغَّم الذي اسمه "طريبيل" (هذا المنفذ الحدودي الوحيد المتاح لنا للانزلاق من عنق الزجاجة / من دائرة الاختناق.) لا لشيء إلاّ لإدراك محيط جوازات "الرويشد" الأردني والنزول بحثاً عن مرآة أحدّق فيها كيما تعطيني صدق يقين كوني أنا " مبدر داغر" بحق؛ وكون الذي مرَّ ليس حلماً سينتهي في دوّامة خنق الأنفاس، ولا موقفاً عابراً سيُعيدني انتهاؤه إلى نقطة الصفر الناريّة.

ها أنا أخرج..

وأتذكّر عيون العتاب في الوجوه الشاحبة المتعبة التي التقيتها في

الأسواق والمقاهي والطرقات واللقاءات العابرة وزحامات البحث الساحق عن بضاعة مفقودة.. جلّ الأصدقاء وأغلب من لهم صلة معرفة جلبَتها سني العمل أو جلسات الود يوم كان التعارفُ الحميم سمةً شاخصة لأبناء مدننا العائمة على سحابات البراءة عابوا عليَّ عودتي بعد ما يزيد على العشرين عاماً من مبارحتي البلاد؛ مستنكرين بقائي بين ظهراني الألم المُجبرين هم عليه.

ستة أشهر صرفتها أتجوّل بعين الذهول ولوامس الاستغراب، تلاحقني ترادفات أسئلة حائرة: ما هذا الذي حدث؛ ولماذا؟.. كيف تسببّ الجُناة في تشويه وجه الوطن السمح الجميل؟.. ماذا جنَت مدنُنا الحييّة حتى ترتفع على جدران حواريها لافتات الكدر؟ ولماذا غدت الشوارع صحفاً يومية يقرؤها الآتون إمّا بحزنٍ مرير أو بساديّة موغلة بالتشفّي؟.. ثم ما هذه الشخوص الغريبة التي تتخفّى بأقنعة إظهار المواساة ما تلبث أن تتركنا وقد حملت على ظهورها أكياسَ جهدنا وعرقنا وإرثنا، وممتلكاتنا المنهوبة هِبةً من اللصوص والقتلة والشُّذّاذ المتربعين على عنق جغرافيتنا الموشّاة بالطُّهر والوداعة؟.... عندما رأى المقرّبون جواز سفري جاهزاً أيقنوا أنَّ نصائحهم أدّت جنيَها؛ وأنَّ رحيلي الثاني سيكونُ بلا عودة.. لم يكونوا يدركون أنَّ خروجي هذه المرّةَ ليس هرباً كما حدث في المرّةِ الأولى قبل عشرين عاماً؛ بل للبحث عمّن جمعتُ لها ما قُدِّر من مال ورغبة وهدفٍ نبيل لأقترنَ بها، ولأصرف ما بقي لي من أعوام في كنفِ لهفتها؛ هي التي عاهدتني على ترسيخ حبِّها رصيداً لرغبتي في الحياة... آ نجاة! لقد منحْتِني أنفاسَ الدروب البهيّة في آخر لقاءٍ، وتمسَّكتُ برجاءات نبراتك الحنون:

"خذْ نصيحةَ أبي وارحل؛ لعلَّ في رحيلكَ بارقةً نيّرة للقائنا الدائم."...

أتطلَّعُ في شعابِ وجوه الراكبين فتتمثّل مرايا استبدلت غيوم البَهَت وضبابيّة الفراغ بتباشير ألقٍ يتجمّع كما سحابة بيضاء.. وجوه تعرض بتفاصيل براءة مزَّقت قميصَ جذلها مخالبُ التجنّي؛ وطمست مسوح شفّافيّتها ركلاتُ المتخلّفين... يكبر حجمُ المرأة الجالسة جوار زوجها العجوز في المقعدين المحاذيين لي بعد إنْ كانت منكمشة شأنها شأنُ جميع الركاب طيلة الطريق الصحراوي الذي قطعناه من بغداد حتى طريبيل، ومضغوطة بعباءتها كما لو كانت ستتلاشى ذوباناً عند حين.

تستخرج كيساً قماشيّاً، ثم تنهض لتوزّع فحواه:

- خذوا من أُختكم أم محمد، حلوى عملْتها لسلامة الوصول.

تتهللُّ القسمات تُكبر فيها شجاعتها بصمتٍ يحاول امتلاك صولجان الحرية المغتالة. تمتد الأكف لا لتتسلّم حلوى بل لتتقبّل تمائم أمٍّ سكبت خصائل روحها آيات صادقة على ورق أُمنيةٍ جعل الحياة آمنة سارّة، وخلق أبناء يحيون على رَفَل الاستقرار بعيداً عن أنفاس شقاء تأتي به صدور المسخ وتنفثها فيروساتهِ لاغتيال هناءات القلوب.

تلتهم الأفواهُ أصابعَ الحلوى بشهيةٍ لا يمكن وصفها (لعلّها الشهية السارية بإحساس مشترك أساسه المكايدة الدفينة لسارق الحلم، والتعبير الرمزي لأبجديّة الاستهانة بظنون الموهوم بالاستحواذ، المغرور بالهيمنة.. ولم تكن أم محمد إلاّ امرأة جنوبية لمّا تزل بعضُ ملامح بساطة الجنوبيين باقية بهيئة أوشام خضر أحدها نقطة مستديرة كأنها قطرة خِصب تربط وتري الحاجبين؛ وأخرى في الحافّة المدبّبة للأنف الصغير بينما تتعامد تحت الشفّة السفلى الجافلة بفعل تهالك الأعوام

تيجانٌ دقيقة تستقر في قعر الحنك ثم ينحدر بعضها هابطاً مع انزلاق الرقبة ليضيع خلف سواد الثوب... تطلق ضحكةً بمنتهى الانشراح. تطلقها وسيعةً جذلى كأنها تُعلن نصراً على عدوٍّ مكايد وأبالسة موتورين. لا تأبه للزوج الذي راح يتمتم في أُذنها بمفردات تحجيم تصرفها؛ بل انطلقت:

- دعني يا رجل. كلّهم أولادي.

وبشيءٍ من السخرية تفوه ناشرةً نظراتِها حييّةً على العيون المبتهجة لشجاعتها:

- حتّى وأنتَ خارجَ القفص ترتعش خائفاً، وتتلوّى متشكّكاً؟!.. آه. أرعبونا أولاد الحرام.

يبتسم الشاب الذي يشاركني الجلوس بعدّما عدّلَ نظّارتيه الداكنتين وشرع يرمقها. ألمح تألقَ عينيه من وراء الزجاج. أُشاركه الابتسام، فيهمس:

- يا للمسكينة. الآن سمعنا صوتَها..

(٢)

علا صوت أذان الفجر من المسجد المجاور لبيتنا فكان إيذاناً بمبارحتي بعدما ودّعتُ أمّي التي نهضت من نومها لتراني أكملت ارتداء ملابسي فلم أكن راغباً في إيقاظها لتعدَّ لي شاياً وما يتوفر من فطور. كانت الحقيبة جاهزة عند باب الصالة. ما أن أبصَرتها عيناها الحسيرتان حتى انكمشتا، لكنهما حبستا دمعاً أوشك على الانفلات. تتهالك في خطوها (آ، يا أُمّي. ذهب الألق البعيد وتبارى الزمن متآمراً

مع فعل الجناة في إرهاق كيانك فصارت السنين المتعدّية على الستين كلكلاً يعكّرُ سماءَ حياتك!!). أراها تسحب قدميها سحباً وئيداً؛ تتكلّف في تجسيد مقدرةٍ ظاهرة... انحنيتُ اقبّلها في الجبين.. رفعتْ رأسها تقبلّني على خدّي؛ ثم تبعتني.. أسمع همساً خجولاً: "وجعلنا من بينهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون".. خجولةٌ أمّي حتى وهي تردُّد كلامَ الله.. تلكُم هُنَّ أمّهاتنا، يرتدين العاطفةَ نهراً، ويقرأن الالتزام طقساً، وفي قلوبهن ضوءُ العلي الرحيم.

– هل ستمر على كمال في بيته؟

– لا؛ سألتقيه عند محطة انطلاق الحافلة.. هكذا اتفقنا.

عند الشدائد ليس من ملاذٍ إلاّ قوى الغيب نتوجه إليها لاستلهام تماسكات روحية ترافق القوى الوضعية كي تمنحها ثقةً، وتسقيها قدرةً وتحمّلاً. لهذا انطلقَ صوتي مع خاتمةِ ترديد المؤذّن الذي طفق يلاحقني وأنا أحثُّ الخطى مخلّفاً البيت والمسجد المجاور، منعطفاً إلى "شارع المحافظة " العريض، متّخذاً الرصيف بمحاذاة الجدران العالية أو الوطيئة "لا إله إلاّ الله". لا رحيق يفعمني بهمسه في هذه الهدأة الزمنية من أوان الفجر إلاّ رحيقه ودعاءات أمي بالسلامة المَطَرية التي لا بدَّ ستُضّئل من لفح الأقدار الخبيئة... أتحسس جهة صدري اليسرى كي أتأكّد من وجود الجواز في جيب قميصي وأطمئن لعدم نسياني له ولأشياء قد تُفسد عليَّ خطَّتي في المغادرة.

أصواتُ الديكة متناثرة.. خطاي تفضحها ضربات حذائي على الرصيف. الشارع مزدحم بالفراغ والسكون. الحركةُ ميّتة إلاّ من كلبٍ قفز من مكانٍ معتم، فجّر دفعات من نباح ثم سكت مجتازاً الشارع،

عـابراً إلـى الرصـيف الثـاني. جـاورَ جـدارَ دائـرة البلديّـة و تمـددَّ هنـاك، مولياً لعينيه متابعة ابتعادي.

الشـارعُ يسـلك امتـداداً طـويلاً يحفّـز علـى التأمـل؛ يحـثُّ علـى الاسـتذكار. (شـاهد أيامَـه الغارقـة فـي النـأي وسـنيّه الأربعـين تنتصـب لتأخـذ هـذا الحيّـز الطويـل.. رأى الصـبي الموبـوء بـالأحلام؛ المُغـرم بـالرؤى، النـزِق الـذي لا يـروم للّيـل أن يـدنو ليغتـال حيويـة النهـار وغواياته. الصبي كثيرُ اللَعب قليلُ الكلام، حتى أنّ عمّته المتزوجة في مدينـةٍ نائيـة أطلقـت عليـه لقـب "الأخـرس" عنـدما كانـت تعجـز عـن الحصول على ردود أسئلتها التي تبدأ بـ" كيف حالك يا مبدر؟ "؛ ولا تختـتم إلاّ بـ" لمـاذا لا تـرد؟! " هـي المتشـوّقة لاحتضـانه وتقبيلـه بعـد فراقٍ طويل يأكل أشهر أو أعواماً؛ فصار الجميع: الأب والأم والأخت والأخ الذي يكبره ينادونـه "الأخرس ". كانت العمّة تتأسّى عليه؛ وكثيراً ما ردّدت كلاماً يكاد يكون حصيلةَ حكمةٍ وتجاربٍ مرَّ بها الآخرون.: " هذا الصبي كثير اللعب قليل الكلام، وحال كهذا يجعل منـه حين يكبر انعزالياً متقوقعاً "، هـي التـي لا تفقـه السبب علمياً وليست قادرة بحكم بسـاطة تعليمهـا علـى إعطـاء تفسـير مقنعـاً لـذلك ، ودون أن تعلـم أنّ المحللين النفسيين يعزون الأمـر لصـدمات سيواجهها الأولاد المليـؤون بالنشاط والمكدّسون بالطاقة من مجتمعٍ لا يغفر للكبار أعمالاً تستمر صبيانية فيما هؤلاء الصغار لا يبغون لحبال الرجولـة أن تسحبهم من جذل الطفولـة، ولا لسلاسلها أن تكبّلهم عن الحركـة الدائبـة فـي سـهوب البراءة.... تنظر إليـه العمّة فتحزن،؛ وتقف جامدةً للحظات، ثم تتدّفع منتحبةً:

– إنّه يشبه عبّاس. آ. أخشى أن تسري دماء عباس في عروقه.)

وعباس أخوها / عمّي. التقطته هالةُ الشيوعية بعمرٍ ثمان عشرة سنة، وعَدته بتطلّعاتٍ ستمنح الإنسانية المُعذّبة حريةً وسلاماً؛ وهناءة عيش رغيد فأُعتُقِل في العام ١٩٦٣، ومات آنذاك تحت طائلة التعذيب عندما مارس البعثيون معه ومع الكثير ممّن سحرتهم الشعاراتُ الأمميّة تواليات من انتهاك أخرق ينأى عن الفعل العقلاني ابتداءً من إجلاسهم على قناني المشروبات الغازية ثم إدخالها في مؤخراتهم؛ وانتهاءً بتعليقهم من أقدامهم بخطّافات حديدية معدّة لتعليق الخراف المذبوحة، وحرمان طويل من ماءٍ وطعام، حتى انتهى مع اثنين مشنوقين بحبال عمَلت حزوزاً غائرة في رقابهم.

تبكي عمّتي؛ وتروح تواصل النحيب. ثم تؤول بعد رجاء أمّي للاستعانة بالله إلى سؤال:

– هل ما زالت كتب الشيوعية موجودة في البيت؟ ألم يحرقها داغر (وتقصد أبي). إنْ لم يكن أحرقها لحد الآن فسأصعد لأتولّى الفعل بنفسي.

وتهمُّ بالصعود إلى السطح.. إلى غرفة عمّي عباس التي أغلقها أبي ولم يمس ما في داخلها.. أمرَ أن يبقى سرير أخيه ومنضدة الكتابة، وخزانة الملابس كما هي بمحتوياتها من بدلاتٍ وقمصان وبيجامات كانت تعود له. (حتى عندما أُعلنت ما يسمى بالجبهة الوطنية والقومية عام ١٩٧٥، وأصبح نشاط وعمل الأحزاب مشروعاً رفض أبي طلبات كوادر الحزب الشيوعي العليا للتعرّف على مخلّفات عمّي من كتابات وأفكار. كانوا يرون فيه رغم صغره آنذاك كاتباً واعداً

وذكيّاً جسَّ مواطن كثيرة من مفاصل الحزب الفكرية والتنظيمية؛ وظلّت شهادة المرحلة الثانوية المزجّجة والمعلّقة بمواجهة الباب تحكي سِفراً تعليمياً أدركه ولم تسنح له أكف القهر والعذاب والوحشية بتجاوزها.)

هل أنا حقّاً كعمّي عباس؟.. هل انتقلت دماؤه الفائرة في عروقه لعروقي – كما خشيَت عمّتي يوماً ما – فجعلتني بعد اجتياز السنين أحمل صفاته؟ هل؟...

انتهى شارعُ المحافظة فوجدتني أعبر الساحة المستديرة الوسطى، مركز التقاء أربعة شوارع. حثثت القدمين سالكاً درباً يقودني إلى زقاق " العراية "، فانتهى بي أمام محطة الحافلة. هناك رأيتُ الركّابَ وقد احتشدوا عند باب الحافلة... ارتقيت؛ واندفعت إلى مقعدي. وقبل أن أدسَّ جسدي إلى جانب رجل ستّيني ريفي الملامح لمحتُ كمال على مبعدة ثلاثة كراسي.. ابتهج عندما أبصرني؛ ويبدو أنّه هجسَ الكثير لتأخري. لم أكلّمهُ؛ ولم يُبدِ حركةً...

هكذا كان الاتّفاق.

(٣)

كان الطريقُ من بغداد إلى عمّان شاقّاً ومرهقاً وثقيلاً. والشابُ الذي يجالسني المقعد بشعره الأكرد القصير صرف الساعات نائماً أو متظاهراً بالنوم؛ حتى وهو يفتح عينيه قليلاً كان يمارس الصمت، ولم تبدُ عنده رغبة للحديث. غير أنّه، وحين بانت أنوار طريبيل الصفر اللاهثة سمعته يسألني:

- هل ما زالت الحدود بعيدة؟

- نحن على مبعدةِ خمسة كيلومترات.. ألاّ ترى الأنوار؟

الساعةُ تتعدّى الواحدة ليلاً. وسؤالُ الشاب فاتحة مؤمّلة لهدف سيجعلني أشعر باستقرار بعد ساعات قلقٍ مُمِضٍّ صرفتها محاطاً بأسوار العزلة. لا بدَّ من أن أفتح معه حديثاً وصولاً لإنجاز غايتي التي تشغلني وحاصرتني بجيوش الهواجس.. عرفتُ أنّه تونسي وأنَّ اسمه " الهادي ".. طرحتُ أسئلةً مقتضبة ممزوجة بترحاب خاص معلناً أنَّ شعوب المغرب العربي جميعاً إخواننا لكنَّ شساعة المسافة هي من مسببّات البعد تقف إلى جانبها تراكمات الحدود؛ هذه العوائق المثيرة للحنق. قال أنّه جاء قبل عام ليدخل إحدى الكليات العراقية اعتماداً على يسر الأجور في الدراسات الجامعية، لكنه وجد الحياة صعبة ومعقّدة؛ والدراسة مرتبكة ليست كما فهم من خاله الذي درس الطب قبل أربعين عاماً في جامعة بغداد ويعمل الآن طبيباً له سمعةٌ طيّبة في تونس العاصمة.

اكتشفته راغباً في الحديث؛ لم يُظهر تهيباً كأي شخصٍ يحسُّ بوطأة الغربة عند لقائه الآخرين. ذلك ما مررَّ أنسامَ الارتياح فوق حقل روحي المفتقد لها.

- قال لي اذهب إلى بغداد إذا أردت مستقبلاً رصيناً؛ فالاختصاص الذي تبحث عنه والمعرفة التي ترمي اغترافها تجدها هنالك. لي أصدقاء في بغداد صاروا أطباءً مثلي وما زالت لي معهم بقايا مراسلات وذكريات يمكنهم إعانتك فالعراقيون أوفياء، والسنين لا تراكم غبارها على ذاكرتهم.

" الطريقُ يخلقُ الصديق. فلا تقلق يا مبدر."... كانت هذه آخر كلمات كمال عندما مدَّ كفّه للوداع، ورسمَ ابتسامةً متكلفة تخفي خشية أنْ يحدث شيءٌ لغير صالحي... ولحظة تحركت الحافلة وتطلّعتُ إليه أدركتُ عُظمَ خوفه من الصفرةٍ العميمة التي احتلّت وجههُ. ولم يكن كمال الوحيد في إظهار هذا الانفعال بل عموم المودِّعين لركاب الحافلة وهم يلوحون. فالمغادرون ليسوا كالأعوام الخوالي، ينطلقون قصدَ السياحة والارتياح إنّما لإغراضٍ دفينة في طوايا النفوس؛ لا قدرة للبوح بها. كلٌّ ينشد هدفاً؛ وللجميع مآرب.

(٤)

أربع ساعات قطعتها الحافلة تحركّاً باتجاه بغداد.. نام أغلبُ الركاب ولم ينتبهوا للتوقّعات العديدة المفترض على السائق أداؤها. فنقاطُ التفتيش تناسلت على الطريق. لم تعد السلطةُ تثق بقريةٍ أو قصبة أو مدينة فصارت تُكثر من النقاط وتزيد من مفارز الأمن والجيش والحراسات الخاصة. وكان وصولنا لبغداد حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً.

تهاطلنا من الحافلة؛ وتبعثر الركاب. رفعتُ حقيبتي واتجهتُ لأستقلَّ سيارة أُجرة.

– إلى فندق الوفاء، ساحة الوثبة.

تركنا "العلاوي" وعبرنا جسر الأحرار. دقائق، وكنت أقف في صالة الفندق، أقدّم هويتي للرجل المسجّل وأتفرس في قائمة الأسماء. أفرحني أنَّ "كمال" سبقني، وأُعطي الغرفة رقم "١١٥" بينما سلّمني

المسجّل مفتاح الرقم "١١٦". هذا يعني أنّنا في طابق واحدٍ بل ومتجاوران. اتخذْتُ السلّم راجلاً إذْ المصعد متوقف يساير انقطاع الكهرباء.(لقد نسي النزلاء مثلما نسي أغلب سكّان العاصمة والمدن العراقية جميعاً لون وطعم الكهرباء. والساعتان في اليوم اللتان يصل خلالهما التيار يصرفه الناس بدقائق الخشية والقلق من الانقطاع في أية لحظة.). نقرتُ على الباب نقرات خفيفة فانفرج عن وجه كمال يطلُّ ببسمة ابتهاج كأنها الانتصار. سألني عن رقم غرفتي ووعدني غب دقائق سيكون عندي.

الماء البارد، الهاطل رذاذاً من فم "الدوش"، الوسيلة المثلى التي افعمت أعضائي المزدحمة بالحرارة انتعاشاً؛ وزارتني رغبة الخروج على الشوارع ألفّها مشياً. وهذا ما طرحته على كمال ونحن نلتقي في الصالة لأول مرّة.

- سفرُكَ يجب أن يكون اليوم.. كم الساعة الآن؟

- العاشرة والربع.

- هو الوقت المناسب للحجز. المكاتب لا تبعد كثيراً من هنا.. هيّا.

عبرنا الشارع واتجهنا سيراً إلى مكاتب "حافظ القاضي". أدخلني مكتباً اعتاد أصدقاؤه السفر برحلات حافلاته، ولم يوافقني على مكتب ذكرته كنت قد سافرتُ بحافلاته قبل عقدين؛ بل لم يعرف مكتباً بهذا الاسم... قطعنا التذكرة، وحُددَّ لنا وقت التواجد الضروري. كانت الخامسة عصراً لأنَّ التحرك سيبدأ في الخامسة والنصف.

في النهارات الصيفية منذ سنين طويلة، أيام كنّا نعوم في بحر الشباب الصخّاب اعتدنا التوجّه إلى المعارض الفنيّة والملحقيات

الثقافية: معارض الرواق والفن الحديث تقدِّم إنجازات المبدعين، نلاحق الخلق الحثيث ونتابع المواهب الجيّاشة. نبحث عن كل ما هو جديد وخارج عن المألوف فأعمارُنا المفعمة بالشباب تناوشت العشرين حديثاً تطرح أمام تطلعاتنا رغبات لا تُحّد.. ندخل المركز الثقافي البريطاني، نطالع المجلات ونقتني مواعيد عرض الأفلام في صالة المركز. نسأل عن الجديد وننتهي.. نصعد الحافلة باتجاه "الباب الشرقي "؛ ثم من هناك نلجُّ شارع أبي نؤاس حيث المركز الثقافي السوفيتي. يواجهنا الرجل الأصلع ذو اللحية المدببّة، وينظر إلينا الملتحي المؤطَّر بإطارات مزخرفة، مثلما تلتقّينا العيون الزرق تقدِّم تحيةَ الاستقبال .. نخرج بعد جولة وحوار فرحين بما حصلنا من أشعار في كتبٍ لبوشكين وروايات لشولوخوف وجنكيز اتماتوف وإجابات عن كيفية الحصول على تدوينات دستوفسكي وتولستوي وغوغول.

نهارات صيفية تدفعنا أماسيها إلى زيارات للأندية الثقافية للكلدان والتركمان والمهندسين. ولا ننسى أن نعرِّج على ساحة الأندلس حيث اتحاد الأدباء. هناك نرى وجوهاً كثيرة بعضها احتوته صفحات الجرائد، وكثيرين لا نعرفهم قدموا لاحتساء كؤوس الخمرة وسط أجواءِ تمنحهم الاحتفاء والانتماء للوسط الأدبي وإنْ لم ينتموا إليه حقّاً.

رفض كمال اقتراحي في إعادة السيناريو، مستنداً على سببين: أولهما أن لا وجود للمركز الثقافي السوفيتي أو البريطاني. فالأول أُغلقَ منذ أعوام بعيدة بعدما نُظرَ إليه على أنّه بؤرة هدّامة تطيح بصرح القومية؛ أمّا الثاني فقد أُغلِقت أبوابُه يوم غُزيت الكويت؛ إذْ استحالت بريطانيا الحميمة بالأمس عدوّة لدود ذلك اليوم. ثمَّ أنَّ الحضور إلى

بغداد ليس بدافع النزهة والتفرّج، فالأمر ليس بهذه السهولة والاستهانة.

- هيّا نأخذ جولةً في شارع المتنبّي ثم ندخل مقهى الشابندر فندخِّن رأس أركَيلة تبديداً للتعب واستعادةً للذكرى.

- نعم؛ هيّا.. دعني أستنشق من خثرةِ ظلال شارع الرشيد وأعبُّ من هوائِه الوفير. قد لا أعود إليه مرّة أخرى فيغدو حلماً أمسكتُ به ولم يدم بيدي.. من يدري؟...

* * *

تذكّرتُ كمال.. تذكرته وهو يؤكد:

- سأتبضّع من الشورجة وأعود هذا اليوم. لا يجب قضاء الليلة في بغداد. مبيتي سيكون في بيتي بالسماوة حتّى يغدو سفري لغرض التسوّق وليس لشيءٍ آخر. هاتفني حالما تصل عمّان ولا تُطل المكالمة.. كن حذراً.

(٥)

شيءٌ ما تبدّل عند دخول الحافلة الأراضي الأردنية. تمثّلت الأبنية المقتربة شيئاً فشيئاً شواخص ارتياح وطرد زفير. تغيّر الهواء الذي كان ينهمر على الوجوه ساخناً؛ مستحيلاً نسماتٍ طريّة باردة. هل ينجلي التعب المزروع في أنسجة أعضائنا وخلل فضاءات النفوس بعد ليلةٍ كابوسية جَلمديّة الساعات؟..

فعل التفتيش والمراقبة والتحقيق أخذ سبعَ ساعات؟ (كانت العيونُ الذئبية تحتشد؛ تطلق شرراً يتابع المسافرين ابتداءً من إنزال الحقائب

وحملها إلى قاعة التفتيش حتى إعادتها إلى الحافلة مجدداً. الخارجون يحسبونهم أعداءً يحملون أسراراً لا يجب أن تخرج. أسرار هي من نافلة كشف العورات المطمورة تحت أستار الرعب.).

في الجهة الثانية من ضفة الحدود الأخرى اقترب رجال شرطة زرق البدلات؛ والقبّعات موسومة بنجمةٍ ملكية فضيّة ناصعة. كلماتُهم الترحيبية تسبق أكفّهم الداخلة في بطون حقائبنا بخفّة وآلية لا تبغي التفتيش الحقيقي.(أنّهم يعرفون أنّ عراقياً مدعوكاً بقبضة الحصار منذ أعوام لن يأتِ بما يضر المملكة، وليس لديه الشيء الثمين لينافس به أبناء البلد؛؛ إذْ الخارجون فقراء كما الباقين داخل القفص الكبير.)

لم يطل الانتظار أمام شبّاك تأشيرة الدخول... وكانت الحافلة تواصل مشوارها الطويل باتجّاه عمّان.

– خُذ.. قالها الهادي؛ وسلّمني المظروف الذي استعنت به على تمريره.. قال: " لقد حرصتُ عليه أكثر من أشيائي. تفتيشهم لنا كان بسيطاً. لقد أعطيتكَ العذرَ عندما شاهدتهم يفتشونكم تفصيلياً." ضحكَ بتعبيرِ السخرية: " يرونكم أعداء! هذه سلطة ليست لها وشيجة مع شعبها."

– حُسن صنيعك سيبقى أجملَ ذكرى أحتفظُ بها عنك. – سيكون لفعلِكَ هذا تاريخٌ قد تقرأه على صفحات عملٍ روائي سأقدِمُ على نشره يوماً.

تهللَّ وجهُه، ورأيته يرسم اهتماماً مضاعفاً ينمُّ بها بريق عينيه النافذ عبر عدستي نظارته:

– أأنتَ روائي؟

– بل شاعر؛ لكنّي سأوظّف أدواتي لكتابةِ روايةٍ أمتلك الكثير من مفاصلها والأحداث.

من تلك اللحظة ازداد اهتمامُ الهادي بي فراح يحدّثني عن مسار الأدب التونسي رغم امتلاكه القليل ممّا لا يتعدّى أسماء من قرأهم في المناهج الدراسية. ولمّا قلت أنّي قضيت ما يتجاوز العشرين سنة في ليبيا وأنَّ بلدَه تونس كان محطةَ إطلاع وسياحة مستمرة لي ابتهج. حدّثته عن الأماكن الأثيرة لدي مثلما عرّجتُ على أسماء أصدقاء أدباء كانت لي معهم علاقة رفقةٍ وتبادل آراء.

خلّفنا قرية "الرويشد" ودخلنا عمقاً في الفضاءات الصحراوية.

السماءُ تصحو فتعرض زرقتها المبيضّة بأشعة شمس الضحى. المفازاتُ على الجانبين تكسوها تربة سوداء وحجر ناري فاحم. لا أثرَ لزرعٍ ولا وجودَ لأكمة، فقط الحافلةُ تعدو والسائق الذي أتعبه سهرُ الليلة الفائتة استبدله السائق المساعد الذي بدا أكثر حيويّةً. تبدّى ذلك من تشغيله جهاز التسجيل بأغانٍ إيقاعية لبنانية راقصة وسريعة بثّت في دواخل الركاب نشاطاً ظهر من خلال نهوضِهم من مقاعدهم لإدارة أحاديث مع جلاّسٍ في مواقع أخرى؛ فيما ظلّت عيونُ آخرين تتابع من خلف الزجاج المظلل كلَّ ما يبعدهم عن رؤى خوفٍ وتوجّسات ظلّت تساجلهم.. وحتّى أمُّ محمد طردت من رأسها رغبةَ نومٍ هرب منها طيلة ساعات القلق الليلي الفائت، فراحت تتساءل: "كم بقي على عمّان؟" فيرد المنتشون بالذي يُسرُّها.

الوقت يجري، والساعة تدنو من الحادية عشر ظهراً. تركنا وراءنا "الأزرق" ومفرق "الزرقاء". صرنا نشاهد على البعد القريب مزارعَ

خضراء وبيوتاً حجرية ومشاريع إنتاجية بهياكل أبنيتها الشبيهة بأكواخٍ كبيرة انطباعاً بأنَّ يدَ الحضارة امتدّت لتزرع بذور فائدتها في هكذا أماكن قصيّة فلم تعد المشاريع تقتصر على محيط العاصمة ومشارفها... وكما لو أنّه اكتشف وجودي إلى جانبه لن يطول انطلق الهادي يواصل الحديث. يسألني وأجيب. أصمت ويتكلّم. الودُّ يزداد؛ والحديث يأخذ طورَ الحميمية.. وأتذكّر طمأنةَ كمال "لا تقلق.. الطريقُ يخلق الصديق!". مددتُ يدي إلى جوف حقيبتي أتفقَّد جوازي والمستمسكات. شريطا كاسيت صارا بيدي؛ لم يكتشفهما المفتّشون عند الحدود رغم أنَّ مَن تولّى تفتيشي دسَّ أصابعه تحسسَّ جميع منافذ جسدي، فلم يسلم كلٌّ ما بين فخذي من الأمام والخلف.

- سنفترق بالتأكيد، وقد لا نلتقي. هذان شريطان غنائيان لمطربين عراقييَن جنوبيين؛ شريطٌ لك وشريطٌ لي. اعتبره عربون ذكرى.

- غناؤكم حزين؛ ومطربوكم لا يغنون بل يبكون.

- لا غرابة أيها الأخ.. غناؤنا تعبير روحي دفين عمّا نعيشه؛ ومغنّونا لا يغردون خارج السرب. أنت عشت بيننا ويقيناً مرّت باصرتُكَ على بعضِ مواطنِ الجراح.. جروحُنا كربلائية لا يمكن لإعصارِ فرحٍ محوها.

- ها هيَ عمّان!!

جاء الصوتُ من مقدمةِ الحافلة. صمتَ الركابُ لوهلةٍ كأنَّ القول سرق انتباههم وسلّمهم إلى شَدَهٍ؛ إلى أحلامٍ نيّرة ما ظنّوها ستوصلهم إلى مرافىء الأمان حيث لا لون رمادي يلاحقهم ولا عين آتية من سلالات تخوم الإجرام تتعقّب خطاهم وتبصم قرارات التجنّي والبغض

الكريه، ولا كف تمتد بمتعةٍ ساديّة تضغط إصبعاً على زناد يُنهي بومضةِ اللذّة سجلاً من حياة.. كم من شموسِ التطلّعات أطفأوا، وكم من نسماتٍ متراقصةٍ على سهوب الفيض الآمن اغتالوا.. كم من طفلٍ صفعوه على خدِّ أيامه الناصعة فأنهوا متواليات الساعات الضاحكة ويُتمّوه يُتمَ الأجيال الرامية نضارتها نحو ضفاف الكون المشرق... يتنادون على خلق قتلٍ جماعي ومقابرٍ تكبر وتتّسع.

بعثنا ببصرنا فأخبرتنا جغرافيةُ الأرض بعمّان على مرمى بصر. الجبال تفترشها أحياءُ عمّان الحديثة تبدو شاهقة بينما قلب المدينة لا يُرى؛ غائصاً في خِثرة الأودية وغمرةِ الزحام ورهص الحياة الراقصة على تأجُّج البناء والعمل؛ وعاصمة أُريدَ لها أن تكبر وتزدهر حاملةً رُقي العصر ورهافته.. ومزّقت الصمت والسهوم المشيع على حدقات الركاب زغردةٌ ملعلعة أطلقها فمُ أُم محمد كالبشير. أظنّني هتفت: ما عابَ فمُك أيتها العراقية المُحنّاة بالطيب والبراءة؛ يا أصيلة، يا حييّة يا ماء الحياة الرائق وبلسم جراح الورود.

(٦)

خلفَ الساحة الهاشمية؛ وسط عمّان كانت آخر كلماتي للهادي الشكر والوداع على أمل اللقاء يوماً ولو تحققَّ في الجحيم. أخبرته بتوجّهي إلى فندق قريب نزلتُ فيه قبل ستّة أشهر يوم نويت دخول العراق بينما أطلعني بنيّة ذهابه مباشرةً إلى مكتب طيران عالية لأنّه حجز من مكتبها في بغداد وأنَّ الطائرة ستقلّه إلى القاهرة مساءَ، ومن هناك ستكون وجهته تونس.

وقبل أن نفترق رددّ:

– أرجو أن أقرأ روايتك قريباً.

– إنَّ الآلام الكبيرة تخلقُ آمالاً كبيرة، يا صديقي. والرواية ستقرؤها عاجلاً أو آجلا.

وافترقنا....

الفصل الثاني

(١)

هي ذي مدارج الوجع وآليات التعبير..

هي ذي مقوّمات الحزن الدانية والألم القطوف.

ها هيَ ذي عمّان مضمارٌ للبحث وتجربة لا تنتهي من التفاصيل. شوارع وأزقّة ومحلات تحتشد؛ وقمم جبلية أخفاها الزحف المدني فبانت بيوتاً معلّقة يُظهِرُها البعد الماثل كما لو كانت هياكل كارتونيّة متلاصقة. حركة الناس وسراع الخطى: وجوه عربية وأُخرى أجنبية: قمصان وبناطيل ضيّقة لنساء في أقصى درجات التحضُّر فيما أُخريات في أبعد حدود التديُّن: أحجبةٌ وجوهٍ / كفوف لإخفاء قسمات الأكف / أردية بلا تكسُّرات أو تعرجات، هطولاً إلى أسفل القدمين المدفونين في أحذيةٍ تقليدية.

هي ذي عمّان بفنادقها التي تتناسل وشققها المُعدَّة للتأجير. عمّان العين الوحيدة التي يرى من خلالها العراقيون حدود الأفق رغم انحساره وضيقه. هي المنفذ الذي لا غيره يتسلل منه العراقي الصاعد هرباً أو العائد اضطراراً.. ها هيَ بقلبها المتجيِّش حركةً. وسط المدينة / جامع الحسين يمكن أن يكون موقعاً للتطلّع؛ ومن ثم الرغبة في التوجّه. شارع الملك طلال شمالاً يأخذك صوب المتنزّه الكبير الذي استُحدث بفعل حاجة العاصمة لوجوده. ويميناً تنحو صوب الساحة الهاشمية، حاضنة العراقيين المتشرّدين. وعندما تجعل الجامعَ خلفك فإنّ الطريق يأخذك صعوداً ليتفرّع يميناً وشمالاً حيث المقاهي المعلّقة عادةً في الطابق

الثاني، لأبنية قديمة تعجُّ برائحةِ التاريخ الغائر: مقهى بغداد / مقهى العاصمة / مقهى الأردن اعتاد المثقفون العراقيون ارتيادها. فيها تتمُّ لقاءاتُهم؛ وحول مناضدها يتداولون الحال. القادمون من الوطن يقصّونَ آخر سيناريوهات الألم؛ والمقيمون يستمعون لبانوراما حياةٍ تترنَّح على كفِّ الأقدار.. الآتون من بعيد / من بلدانٍ بهيئة منافٍ يحضرون. يتشمّمون رائحةَ الأهل، وينصتون باهتمامٍ ووله لجملةِ الأخبار. يتساءلون: هل تغيّر الحال؟ هل الذي جرى عبر السنوات الثقيلة الممتدة إلى عشرين عاماً وأبعد ما زال هو، هو؟!.. هل مازال الفرات يبكي الضفاف، ودجلةَ تشكو الوحشة؟!..هل.. وهل؟!. وحين تمتلئ ذائقتُهم المستفسِرة بما يُشير إلى استمرار الدوّامة ينهضون مُكدَّسين بالكدر.

أُسلّم جوازي إلى إدارة الفندق وأطلب تهيئة الحمّام.

تحتَ رذاذ الماء البارد المنهمر على يافوخي الساخن أسترجع كلمات العم شهاب وحواري معه.

– لن تجدها. نجاة تشظّت وضاعت.

– لا يا عَم . لن تضيع، سأجدها.

بحثُكَ لن يكون له جدوى. اسألني، أنا أبوها.. كلماتُ وداعها الأخير شممتُ فيه رائحة الغياب بلا عودة.

كلماتُه كانت صاعقةً تهتك مسارب جسدي وتبدّد محاولات عقلي في التركيز. تدفع باليأس للتغلغل؛ فتارةً أُصدّق القول لمعرفته بها كأب وتارةً أقول لا؛ لا يمكن أن تفعلها نجاة. ثم أعود وأُخمّن أنَّ سنوات غربتي تمطّت وشسِعت فتغيرّت مرافئ نجاة المستحبّة فلم تعد نجاة

البراءة اعتقاداً أنّ للزمن تداعياته التي قد تقلب المعادلة وتطيح بالوعود والعهود والأقسام، تُفكّك تشابكات الأصابع؛ تصنع هوّةً هائلة بين فاهين كان آخر كلمات وداعهما انطباق الشفاه وامتزاج الأنفاس وتعانق النظرات.

– ماذا حدثَ لها، يا عم؟!

يصمت.. يرتكن للسكون فلا يجيب. يطأطئ الرأس ويروح في اسهامةٍ تنتج ذهولاً كاسحاً يقودني إلى تركه في جلسته المتهالكة، وسط أثاث يبوح بإرثٍ مُنتهَك.

خنقني الرذاذ. والدوش صار يقذف فوق رأسي حمماً تلهب جسدي وتدفعني لمبارحة الحمّام نصف عارٍ؛ ثم يأتيني عامل الفندق بعد وقت موجِّهاً العتاب لعدم غلقي الصنبور.

جحافلُ الأسئلة تهاجم خلايا الدماغ؛ تقتحم سواتر دفاعاتي الروحية: أيُعقل أن يكون بحثي عقيماً؟. وهل سيؤول تصميمي إلى تخوم الفشل؟. ثمَ من قال أنّها في عمّان وليست في مدينةٍ ثانية. مدنُ العالم بلا حدود والآفاق بلا انتهاء. الدروب شسيعة المدارات؛ هل سألفُّ العالم وأدور نادهاً، صارخاً: من منكم رأى فتاةً بعمر الألق؛ لها ملامح التراب والملح؛ دماؤها مياه عذبة تجري منذ آلاف الأعوام بشرايين وأوردة اسمها دجلة والفرات؛ لها أهلُ ملأوا عقولَ العالمين بمشاعل النور، وسلّموا الأمم قصبةَ الكتابةِ ليدوّنوا الإرثَ، والفعلَ والوجود؛ ومنحوهم عجلةَ السير نحو اقيانوسات الخلود؟!. أتراهم سيضحكون لبلادتي وغباء استفهاماتي؟. وهل سيحسبون بحثي من عِداد الجنون والسفه؟. هل سيرون بي بحّاراً لا يملك غيرَ زورقٍ بائسٍ ومجدافٍ بالٍ ليخوض

في بحرٍ له مبتدأ وليس له اختتام؟!..

الإرهاق يتسيّدني.. السهرُ سلبَ من طاقتي الكثير. وكان عليَّ أن أنشر جسدي على انبساط السرير وأرافق الوسادة في رحلة كرى ولو لدقائق..

لكنَّ الرأس أبّى، والجسد حملَ بواعث اللا استقرار. نهضت فارتديت ملابسي. لم أستمع لنصيحة النزيل العراقي الذي شاهد حقيبتي وشمَّ رائحة الوطن. اكتفيت بالقول: " جولة قصيرة، وأعود. ".

ألتمسُ الكَذِبَ لأُبرّر الفعل، فأقول:

– لقد نمت في الحافلة طويلاً؛ والإجراءات الحدودية كانت يسيرة.

وسط غرابة عدم تصديق لم يعارض إنّما عيناه تحرّتا واستدّلتا على قلقي.

– كما تشاء.

– بعد نصف ساعة سأكون هنا.

ودّعته هذا الخمسيني الودود؛ واجهني بأسئلةٍ مبتورة عندما عرِف وصولي للتو. حدّثني عن وجوده في عمّان ووصوله. يتسكّع في الشوارع ثم يعود لغرفته. إنّه ينتظر منذ عشرين يوماً تأشيرة الدخول إلى تونس، والسفارة التونسية لا تعطي الرد للعراقيين إلاّ غب مرور شهر كامل إمّا بنعم أو بلا. فالعراقي بعيونهم كتلة ملغّمة بالريبة والشك. هكذا تُقدّم سفاراتنا العتيدة رؤيتها للدول التي تروم استقبال مواطنينا. تذكّرت معاناة العائلات العراقية وهي تُنزل العفش أرضاً للتفتيش وترفعها بجهدها المتهالك لإعادتها للحافلات وسط عيون التتبّع من الحرس المصريين، المرافقين للركاب الممنوعين من أية تحرّك خارج حدود وقوف الحافلات.. أسوار

محطات الحافلات مزروعة بالعيون لئلاّ يهرب العراقي من نطاق التتبّع. تذكّرتُ ما حكاه لي أحدهم قائلاً: تستحيل "العَبّارة" المصرية ناقلة المسافرين من خليج العقبة الأردني إلى مرفأ "نويبع" المصري مُعتَقَلاً لنا حيث منبّه الصوت يُعلن من كابينة قيادة العبّارة أنَّ على الجميع النزول إلى الميناء باستثناء العراقيين. عندها يهتف الذي داخلي مرارةً: هنيئاً لكِ أيتها العروبة المُستباحة بالعهر والعاهرين، ومرحى لكم أيها العرب السجناء.. العراقيون لا يُسمح لهم بالنزول، وأمام الأنظار ترفل الإسرائيليات السائحات بأجسادٍ نصف عارية. أردافهن تعلك سخريتها بوجوه جرذان البالوعات حُماة الأوطان الأبطال؛ يودِّعنَ بجميل القول فيما العراقيون مجذومون مجدورون لا يجب أن يهبطوا كالآخرين، ينبغي سوقهم برتلٍ من العساكر يتوزّعون بلوامس الحذر لكل ما يبدر من عراقي. لا يرتاح لهم بال إلاّ بعد أن يشهدوا دخول الجميع النساء والرجال في المعتقلات الصغيرة التي اسمها الحافلات حيث العسكري المُدرَّب على أداء الدور يقف عند الباب بعد أن يعدَّ الركّاب مراراً ليتأكد من مطابقتهم والقائمة التي بيده. يطالعها بين الحين والحين خشية تسلل أحدهم من ثقبٍ في جدار العربة أو سقفها.

(٢)

إيه نجاة..

ها أنا أمسك الحرية من عنُقِها وأندفع لاحتضان بهاءً كادَ أن ينطمر تحت ركام الآهات.. ها أنا أرى نفسي سجيناً منحته قدرةٌ خارقة هوية الانصراف بلا عوائق ولا مقيّدات ولا نقاط تفتيش تتحرّى الهوية وتبحث

عن ومضةِ حبٍّ للوطن والأهل لتكون مستمسَكاً وجريرةً تعيدانني إلى براثن الأسر والملاحقة اليومية.. قلمي بيدي والصور المتلاحقة الغائرة في شتات الذاكرة تمنحني فيضاً دافقاً للكتابة، وما عليَّ سوى البحث عنكِ، آآآ. أينَ أنتِ؟؟. أين سأعثر عليك؟ لقد تبعثرت جذوتُكِ وتشظّت. استحَلتِ ذرّاتٍ يحملها أربعةُ ملايين تفرّقوا أشتاتاً. احتوتهم بلدانٌ لم يخطر بذهنِ أحدهم إدراكها؛ ولم يدنُ إلى ذاكرتهم أن سيصبح بعضهم طعماً لأسماك القرش والسلاحف والفقمات والقريدسات.

في هذا المضمار الزمني المُلقى على أعتاب اختتام القرن العشرين تتوشّى عمّان بلمسات عراقية واضحة. فالبشر الذين يقطعون الطرق ويزاحمون المارّة بأعدادهم الوفيرة أغلبهم عراقيون. الباعة من النساء الجالسات على الأرصفة بعباءاتهنَّ السود وأخمرة وجوههن السوداء الموحلة يبعنَ السجائر على المشاة جميعاً عراقيات. أغلب المطاعم المتكاثرة وسط عمّان روّادها عراقيون.. دكاكين الباعة التي تزداد تهافتاً تزدحم بالعراقيين؛ فقط المصارف والمحلات الفاخرة المبهرجة بالسلع الباهظة ليست من نصيبهم، يتجنّبون فتح حسابات بأرصدةٍ من هواء.

عمّان!.. تتغيرين بعيني؛ ونظراتي إليك اختلفت عمّا قبل ستة أشهر يوم عُدتُ مُحمَّلاً بشوقٍ لا يسعه فضاء روحي المحدود، وليست لمشاعري قدرة التعبير عنه. كان أمل لقائي بنجاة يرغو ويتعالى، والأحلام التي كدّستها فوق كاهل رغبتي باللقاء تتمثّل بساتين تتكاثف بزروعها وخضرتها ويناعة نخيل كثيراً ما تراءى لي كقامات فاتنات جنوبيات يندهن بي أن أعود فقد طالت الأيام وعظم الشوق؛ وصارت الشواطئ في افتقاد دائم لخطانا البريئة / الحييّة / الجذِلة / وكركرات

تركناها قبل أعوام طويلة تلوذ بالزوايا والعطفات لتطبع ذكرياتنا المائية النقية. أعوام صرفتها في المنافي حَفَرتْ بأزميل قسوتها على مسوح الذاكرة وتضاريس الجسد، فلا الذي أبصرني عرفني؛ ولا مَن مددتُ له كفّي أدرك تلك الكف ممتلئةً بالقوة والألق.. سألوني عن ارتعاشها وتوازيها مع العمر الزمني. وقال مَن حدَّقَ في عينيَّ:" ما له الذبول يكتسحهما؟! ".

كانت اللهفةُ ترد: أنَّ كلَّ شيء يهون؛ وأنَّ الثمنَ الباهظ سيعوّضه اللقاءُ الأبدي بنجاة.

أنا أدري أنَّ ما يؤرِّخ لولادتي الثانية هو اللقاء. ومن هنا استهنتُ بفيض الرثاء المُرتسم في النظرات الدهِشة لمطالعتي.

إيه نجاة..

أين سأجدكِ؟ وما هذا السؤال المتردد صدى مدوياً في مسامعي حاملاً نداء كمال: " ابحث عنها. يجب أن لا تدعها تضيع.". آآآ.. أنفاسُكِ أعبُّها ساخنة، شهيّة تمضغ شفتي.

– أُريدها ليلةً من نارٍ ودم حتّى لا تنساني.

الفراش الذي ضمّنا كان متواضعاً لكنَّ نهديها ممتلئين وباذخين بشهد حبٍّ يأبى النضوب ورغبة الحياة المُشتهاة بلا انتهاء. فخذاها يعجّان بالشبق. أبصرنا بعين النشوة أصواتً تتجمّع وتتكاثف عند قاعدة النافذة تغني رفَل الوجود اليانع المُخضر؛ وسمعنا بآذان الرهافة صور العصافير بغير همومها اليومية. ابتهجنا لرؤية البلابل تعيد لحناجرها سيمفونيات التغريد المنطفئ منذ زمن مثلما استقبلنا الفواخت وهي تستبدل نغمة النواح بنبرة الرقص الفيّاض.. تقول:

– أتعرّى لأول مرّة لا لرغبة في اغتراف شهوةٍ ولا استجابة لفورةِ شبق؛ إنّما لتبقى الرائحة ملازمة لتحركك لا تُعطلها رائحة أخرى؛ ولا ترتضي اقتراب غيرها مهما هجمت عليك نوارس الإغواء. أُريدها رحيقاً يتساوق والحاجة التي تفرضها محطّات الرحيل وقطارات النأي.

نهضت عاريةً تقطع ظلامَ الغرفة مُشعَّةً كأنها رمحٌ من نور. فتحت النافذة المطلّة على سماءٍ أظهرت نجوماً تسفح نورها رضاً كأنه الدموع.

– نافذتُكَ تمنحكَ الصورة الجليّة للوجود. لا بدَّ أنها كانت المُلهِمة، تسقيك شهدَ الخلق من رضاب الرومانسيّة.. قُم الآن وانهل من الهواء السابح إزاءها. اغترفْ من منظر مدينتك الأثيرة. خُذْ وعبْ؛ ستبكي كما بكى المنفيون قبلك.

لم تكن نجاة تلك اللحظة الفتاة الوديعة التي التقيتها أول لقاء. كانت استحالت مَلاكاً من التجلّي والكلم النافذ. ترجّلت كما قصيدة مفعمة بالحماس مالكةً غمار الأحرف والأبجديات، تشكِّل فحوى الثقة والاتّزان رغم مسحة الخجل الظاهر، جمعت الكثير من ملامح "إينانا " إلهة الخصب لدى سومر؛ وأفروديت إلهة الجمال عند اليونان؛؛ بل كانت كلَّ النساء.

تختطفني الأكتاف تلامس كتفي مُعيدةً إيّاي لوجهةٍ كنتُ أسلكها منقاداً إلى مقهى "العاصمة".. استلمتني الدرجة الأولى للسلَّم؛ دفعتني لتهافتات الدرْجات الصاعدة تفصلني عن الحركة الضاجّة للمارّة وتقطع عن مسمعي ضربات الخطى المتلاحقة. أرتقي صعوداً في فضاءٍ تخثّره عتمة مُستباحة بضوء يهاجمها من أدنى السلّم ينتهي بالباب الموارب على فناء المقهى. روّاد يتحلّقون حول طاولات مستديرة انشغل بعضهم

بقـراءة صـحف الصـباح فيمـا غيـرهم توسّـد مرابـع الصـمت، وآخـرون يبحلقـون بمـن يُظهـره فـم البـاب كـأنهم بانتظـار أحـد. سـحناتهم تعلـن عراقيتهم.. عامل المقهى يدور بين الطـاولات حـاملاً صـينية مستطيلة حوت أقداحاً وفناجين تلبيـةً لطلبات الجـلاّس. الجدران عتيقـة تعـرض صـوراً لعمّـان فـي أربعينـات القرن العشرين ومشـاهد لمزهريـات تحتضـن وروداً باهتـة. وفـي المواجهـة سـاعة جداريـة آليـة يتحـرك رقاصـها ليعد الزمن ويقدّمه جاهزاً لمن لا سـاعة لديـه.. كفٌّ ارتفعت تـومئ باتجـاهي. حدّقت لأقبض عنق اليقين، وتساءل إن كانت الإيماءة تقصدني. حين وجدتها تشير إليَّ دنوت علـى وتيرة التطلّع. وجهٌ دائري ممتلئ يحيطـه شـعرٌ غزير منسرح يبتسم من بين وجوه محّدقة بـي. تفرّستُ فـي الوجـه مليّاً فعدتُ إلى عبد الرحمن ياسين. آ،، ها نحن نلتقي. دواخلـي تفجّرت ببهجـة مُدافـة بدهشـة. أبصـتُ شـفتي عبـد الـرحمن تختلجـان بـوجنتين محمرّتين مسوّرتين بلحيـةٍ غزيـرة سـوداء انتهكهـا شـيب متنـاثر. ملامـح هي ذاتها التـي اعتدت مشـاهدتها أسبوعيا من شاشـة التلفاز الـذي يبث برامجَهُ من لندن.

تناثرت الفرحةُ من فمه:

- مبدر داغر!!.. وأخيراً.. ها.. ها..ها.. خلتُكَ مُتّ انتحاراً عندما توارت أشعارُك عن صحف لندن العربية.

- لا.. وجـودي فـي العـراق سـببٌ عـدم تواصـلي. كـان علـيَّ أن أصمت طيلةَ بقائي هناك، ولو على مضض.

قدّمني إلى من يجالسوه، وقدّمهم لي:

- علي الزرّوق. ناقد مغربي يتخفّى بأسماء مستعارة؛ يكتب الشعر

باسم الفرزدق وينشر نقوداً أدبية باسم " الأفوه الأودي "، ويحمل جوازاً باسم أبو بكر الزرّوق.

- مرحباً.

- وهذا أحمد كامل، ناقد تشكيلي سوري يقيم في السويد.

- أهلاً.

- ومصطفى العارف.

- أعرفهُ من مجموعته (ضياع النوارس) تدهشني! لم تكن مجموعة أشعار إنّما جيش قلوب مُنتهك بالفقد.

وإليهم توجه مشيراً عليَ:

- صديقي مبدر داغر، شاعر لابدَّ أنكم قرأتم له.

هتف علي الزرّوق:

- كيف لا. هذا الشاعر يتوجّه بخطابته إلى امرأة مأسورة على لسان محاور طعين. هكذا كنت أستنتج كلما قرأتُ له نصّاً.. جميل أن نلتقي وبمصادفة تفشي لنا سرّ معرفة قديمة معك يا عبد الرحمن.

انتشى الجميع إعلاناً لبهجة اللقاء.

يؤثر عبد الرحمن النقد الأدبي، وله اطّلاع عميم بالمدارس الأدبية النقدية؛ كما أن له رؤية دافع عنها كثيراً في كتابه "وقائع النقد المعاصر" المتعلّق بالتناص؛ يتناول من خلال أحد أبوابه أعلام من تداول هذه الظاهرة وأُطلق عليهم "البنيويون". كان متحمّساً إلى أنَّ رولان بارت لم يأتِ بالجديد وأنّه يُكرر ما قاله كتّابنا العرب قبل عشرة قرون.

أراحنا اللقاء. بددَّ بعضاً من جفاف الروح وخففَّ من تواترات القلق.

دعاني أحمد كامل لزيارة المعرض التشكيلي المقام في قاعة " الفينيق"، متحدّثاً عن الظاهرة الجديدة التي تجمع معرضاً مشتركاً عربياً وأوربيّاً، ثم التعاون بين جمعية "إيكو" السويدية للفن التشكيلي ودار الفينيق. تحدّث عن التمازج كبادرة حسنة، وانتقل إلى أن التعرّف على الثقافات الفنية يغني الفنان بخبرات وتجارب تدفعه إلى التحرك صوب مضامير أبعد في الإبداع.. قال: ستظهر لي بعد يومين قراءةً عن المعرض في عمودي الأسبوعي "توهجّات".

في خضم الكلام والتداول الحديثي سألني عبد الرحمن عن إقامتي الحالية:

– فندق زهران؛ وضعت حقائبي فيه ولم أمكث غير نصف ساعة. اليوم كان وصولي من بغداد، والساعة هذه وصلت فقادتني الخطى إلى هنا.

– أكمل ليلتكَ فيه وغدا صباحاً سأمرُّ عليك لتقيم معي. لدي شقّة استأجرتها لشهر؛ لا يجب أن تبقى في فندق يحطمك خروجُ ودخول نزلائه.

استأذن العارف، ثم تلاه أحمد كامل؛ تركانا لوحدنا.عبد الرحمن يختزن أسئلة وفيرة بينما داخلي شرعت تنبثق استفهامات لا تنتهي عن ظروف وجوده في لندن. كيف استطاع اقتناء كفِّ الرحيل لتقلّه إلى جزيرة الأمان، وكيف أمكنه التكيّف طيلة سني الارتحال وآلِ به الأمر إلى أن يصبحٍ مُعدّاً ومقدِّماً لبرنامجٍ ثقافي في محطة فضائية عربية لها ثقلها الإعلامي المنتشر على أرض البسيطة.. أتملّى ملامحه وما فعلته مخالب الغربة على سيماه ومنها أطابق ذات الفعل على وجهي..

نصف ساعة انصرفت عبر المكوث الملغّم بالأسئلة والاستفهامات والحديث المُسهب عن شؤون ثنائية وأخرى تغلفها العمومية التقليدية، ثم: "هيّا لننهض". قالها بتلك النبرة التي لم يتخلّ عنها حين كان يبدي حميميته يوم كنّا صغاراً نتقافز كالقطط ونحن نتّجه صوب الفرات لنغطس في صفائه السارح الرهيف ونعوم على غيمة الجذل العميم. حملَ حقيبةً جلدية صغيرة منتفخة، مؤكّدا تحوي ما أفضت به الروح من إبداع دوّنه؛ ولقاءات أدّاها ليغذّي بها برنامجه.

هبطنا إلى حومة الزحام. كان الوقت قد تجاوز القيلولة ليدخل هنيهات وقت العصر. حركة المارّة تتكاثف فتُثقِل الخطى وتُبطِؤها. في دروب الرأس ينبثق سؤالُ مقارنةٍ بين أُناس لا يعرفون سوى راحة البال ويرفلون على ثرى الاستقرار، وبين آخرين هناك، في مدننا التعبى حيث الأحزان غيوم تسكب كدرَها على الجميع فتغمر مسارب أرواحهم الخاوية بغدران اليأس... ينتشلني صديقي من بين الكتوف المتراصّة وزخم ألمي المتعثّر ليدخلني إلى انعطافه فرعية ضيّقة تتقابل فيها محلات لبيع الإكسسوارات؛ ثم يوقفني عند مدخل خلته مقهى فإذا به بار يلفه الصمت. روّاده قليلون؛ تناثروا منفردين حول مناضد تُعلن قناني بيرة " هاينكن" ذات الزجاجة الخضراء استطالتها. تقدّمني صوب منضدةٍ تجترح مكاناً تتناسل فيه عتمة رائقة. ما أن احتوتنا الكراسي واتكأنا حتى بزُغت أمامنا فتاةٌ خُلاسية عارية الصدر، يتنافر نهداها السمراوان بحلمتين مستهترتين، وخصر ضامر ينتهي أسفله بشال ريفي مشجَّر يخفي مرايا الفخذين من الأعلى لكنّه يتيح لهما امتصاص الضوء الشحيح المتساقط من مصباح ضئيل يجاورها، ليظهرهما

بالتماعـة تثيـر تحـديق النـاظر وتدفعـه للتملّـي الوئيـد، فيمـا العينـان مفتوحتان باتساع يجمع حشوداً من الغواية والنفور الغجري.

القدحان الأوليّان من السائل الذهبي الأقرب إلى الانجماد بعثا شيئاً من الاسترخاء في جوفينا، طفق يدبُّ بلذاذةٍ شرعت تقلل من غِلواء الآهات المزدحمة عند أفق الأعماق الجريحة.

في تواليات ارتشاف الكؤوس أسئلةُ عبد الرحمن تتماوج عن حالة دخولي العراق وحيثيّات خروجي. أسئلة حسبتها من قبيل الاستمرار في الحديث ليس إلاّ؛ وظنّي أنه طمر كل ما يمت إلى الوطن؛ لكن للخفايا سواترُها، وللألم تراكمُهُ مثلما للبوح نوافذُ تواربت أمامي فإذا بمحمود الذي ظننتُ دواخله باتت هواء تتمثل إزائي خزينُ وجع؛ وإذا بالجَلَد الذي شكّلَ قناعاً خزفياً يتهشم مع أول آهةٍ؛ وإذا به كما لو كان ينتظر هذه اللحظة منذ دهر:

– ستستنزفني غمامات القهر، وتشظّيني كفُّ الأحزان. سيحترق دمي ويستحيل قلبي بالونة أسى يمكن تفجّرها في أيّما لحظة إنْ بقيت بذلك الهلام الذي لم يعُد لنا.. تركتُ الأم كما تعرف والأخوة ،، الحواري والمنعطفات. تركتُ طفولتي ومكامن دفئي؛؛ أغصان الفرح وأعشاش البهجة . تركتُ مدينتنا الوديعة، المولودة من سرّة البراءة وطقوس حنين الفرات الأبدية. تركتُ أفياءها وأنفاسها، وحديث الزروع.. تركتُ كلَّ شيء. ولو فكّرتُ بشيء من هذه سأسقط في سحيق هاوية البكاء والانسحاق.

أظنُّ أنَّ تلاحق الكؤوس فعل فعلته معي أيضاً فجعلني أرد:

– تطرَّفتَ كثيراً بخروجك المبكّر. كنتَ مُغرقاً بالعبثية ولم تعطِ

لعقلك فسحةً من المرونة تمارس فيها مراجعة الذات والمواقف.

كانت الأعوامُ الوسطى من السبعينات لقاءات حفاوتنا. مبدر، وعبد الرحمن، وكمال وشلّة من الشباب الخارجين من بيضة المراهقة. نعوم على طفو قراءات هيمنت فيها أفكار "كولن ولسن" و"ألبير كامو" و"جون بول سارتر" المنفلتة من عقال الالتزام، والرافضة وجوداً يعجُّ بالمقيّدات .. ندخل سجالات محتدمة لآراءٍ عبثٍ تواشجت وتغلغلت في أعماقنا وسط شغف لا نفقه كيف كان يتراغى ويعلو. نقرأ لغةً تنأى عن المألوف وترسو على مرافئ أراء جريئة تناهض السائد. لا نرى الماحول سوى هباء من حياة باهتة / مقيتة / قذرة يحياها الغاطسون بمستنقع البلادة على أفضل وجه.. غيوم السريالية القادمة من آفاق الشيوعيّة تتسرب إلى الأوساط المحيطة فيتلقّفها شبابٌ صاخبو الأعماق بينما يقف شبابٌ آخرون على الحياد. أمّا نحن فتنكّرنا لها بشدّة. حسبناها ريحاً مرّت ولم يعُد لها ضرورة. التمسُّك بها يعني اقتناء البلادة والاستغفال؛ لذا ركلناها بأقدام تطرّفنا. اعتبرناها وباءَ تفاهةٍ يتساوى وأيدلوجيات الضحك على الذقون. فالثورية حاملة لواء السياسة مصطلح فسّرناه أكداساً من الكَذب والافتراء يثير القيء ويسرّب لمفارق الروح فايروسات الغثيان. المهووسون بالماركسيّة والقومية، وأولئك الذين يُعلون من شأن الحزبية والتحزّب اعتبرناهم يبعثون على الزيف والريبة. لخّصنا موقفنا بقولنا: " إنَّ هؤلاء بحماقاتهم يطيحون بقامة الوطن الجميل دافعين به إلى قعر الحضيض.".. وإذْ ننتهي من صرخاتنا وأحاديثنا الرافضة ننهض. لا شيء يضمّنا بمعطف هدوئه سوى "بار السعفة الذهبية". نهرع إليه لنستلهم روح التخلّي عن الوجود المزيَّف.

وفي غفلةٍ من الاهتمام انفرّطت حبّات اللقاءات وتناثرت. أعاصيرٌ هوجاءِ هزّت كيان عبد الرحمن وجعلته يتخلّى عنّا، مثلما ألقمت كمال حجرَ التهيُّب؛ عاجلها القدرُ بصفعاته المرّة فاستحالت منابتُ الألفة منابعَ كمد؛ وساعات التلاقي محطّات لإعلان القَرف من كلِّ ما هو محيط. فكان على عبد الرحمن ركوبَ موجةِ الاغتراب. رحل إلى بيروت ومن هناك سمعنا أنّ جزيرة مالطا تلقّفته مبحراً في زورقٍ جمعه مع وجوه شرق أوسطية، تتلاقى همومهم ولا تتغاير التطلّعات. لكنَّ الأشهرَ التالية نقلت خبر وجوده في طرابلس الغرب. كيفَ حدث ذلك؟!

استمرت الفتاةُ الخلاسيّة الناهد تترصّد انفعالاتنا؛ والدخانُ المتعالي من بارجة سيجارة عبد الرحمن حجبَ نفاذَ نظراتها باتجاهنا.. سألني عن كمال، فحكيت له عن آخر لحظات الوداع في بغداد وأنبأته بقراره المؤجل في الانتحار لأنّه تزوّج وله الآن بنتان وولد؛ غير أنّه كثيراً ما يحدّثني ويذكّرني بأن آخر مَطافِه سيكون الانتحار حتى لو صار لديه قطارٌ من أولاد.

رسم ابتسامةً هاربة:

- هذا القرار اتّخذه قبل عشرين عاماً؛ ألا تتذكّر؟

- كان قرارنا جميعاً.

- صحيح. ما زلت أستعيد عبارتَك وأنت تناهضه: "لا يجب أن يكون انتحارنا شفاءً للموتورين."فيسخر من قولك برفعِهِ لافتة التحدّي والإصرار على أداءِ الفعل حتى لو أنجزه بمفرده.

يتكدّر وجه عبد الرحمن وهو ينطق آخر كلمة. يجتاحه شرود غريب. في عينيه تطفح غمامات ذهول ثقيلة، تتلوها سحب أنفاسٍ

متكررة من سيجارة هصرها انطباق الإصبعين. رأيته يستجمع أفكاراً مُبددة، يجني مفردات مبعثرة. رأيته ينقر على الطاولة نقرات مَن أُهينَ وأعلن حاجةً للرد. يذوي، ويتقهقر، وتنفرط لآلئ رقّته فتسقط في هوّة المجهول. ثم رأيته يوشك على البكاء ففاجأتني سحنته تغيب منها السماحة، أنا الذي كنت حسبتها وديعةً، هادئة.... أعود إلى عشرين سنة خلت. أعود إلى ذلك اليوم الذي تفرّط فيه جمعنا وقال القدر: قفوا!؛ فدوهِمَ بيت عبد الرحمن ليلاً وسِيقَ مُعتقلاً؛ ثم بنفس الوقت أُخذ كمال من بيته. أمّا أنا فتحسستُ شيئاً غير عادي إثر مشاهدتي لوجوه غريبة تترصّد شارعنا وقد أخبرتنا جارتنا أنّ أشخاصاً يغدون ويروحون يتطلّعون لباب البيت وعندما دخلتُ أبصرتهم جارتنا يتخاطبون بإشاراتٍ. ليلتها تسلّقتُ الجدار الخلفي هارباً عبر بيت جارنا فلم يفلحوا في اعتقالي ساعة داهموا البيت منتصف تلك الليلة. كان حظّي الهرب شهراً بعيداً عن الأعين، وحظ عبد الرحمن الاعتقال بلا خبر عنه ولا كلام ثلاثة أسابيع؛ أمّا كمال فخرج بعد أربعة أيام إثر توسّط أخيه وتحركه استعانة بدرجته الحزبية العالية وتعهده بحسن سلوك الأخ لئلاّ يؤثّر على سمعته الحزبية مستقبلاً.

– لكمال الحق في تأكيد الانتحار، فهو يشهد التجنّي اليومي ويغدو أحد المدوّنين لحقبة سوداء يعيشها عراقنا الذبيح.

– هل تعلم؛ أنّه ما زال مصرّاً على الانتحار حتى وهو يدخل الأربعين؛ حتى وهو مثقل بالأولاد؟

– الآن لا؛ لا أوافقه. أريده أن يشهد انسحاقهم بأقدام الثكالى واليتامى والمغيَّبين.. آ.. يا مبدر (قالها بصوت علا فوق حدود الكلام

المعهود فالتفت ناحيتنا مَن كانت الخمرة لم تبعده عن فضاء المكان) لقد رمونا في رحم المنافي ثم راحوا ينهالون علينا بهراوات شتائمهم ونعوتهم الجاهزة. فتارة نحن الخونة وهم صومعة العفّة! نحنُ القُمامة على قارعة الطريق وهم ساحة الروض العاطر المفعم بالورود! نحن أبناء العاريات اللاتي لا يسترن عوراتهن وهم أبناء الناسكات الطهورات حافظات فروجهن وساترات مؤخّراتهن! نحن الكلاب السائبة وهم أولاد الملائكة! وكأنهم لم يأتوا من أوجار الثعالب العفنة وبيوتات العهر التي ضمّت أمهاتهم، وتوزّعوا بين آباء لا يعرفون أسماءهم.

تطلّعت الخلاسيّةُ الناهد تنظر بعينٍ زائغةٍ فيها دهشةً وسؤالاً صرتُ أسمعه، يأتيني كذبذبات متتالية: ما هذا المشحون بالألم والغضب؟ أي حزنٍ يتراكم في جوفه فيدعه اللحظة ينفجر بهذا الهول من الصراخ إلى حدّ أنَّ النادل اقترب ليتساءل إنْ كنّا بحاجةٍ لشيء استدراكاً لتخفيف الغائلة التي عمّت المكان.

لا ندري كم صرفنا من الوقت سوى أنَّ الطاولة ازدّحمت بالقناني الفارغة (لكأننا كنّا في سباقٍ للتعويض عمّا فاتنا من سنين لم نلتق خلالها لنمارس طقوس السكر الجماعي.)، والبار خلا إلاّ من النادل الملتصق عند حافة مصطبة البار والفتاة الخلاسية نافرة النهدين وضامرة الخصر تتأملنا بعين كاميرا راصدة (لابدَّ أنها ستهبط تاركة إطارها الخشبي الصقيل لتستبيح فضاء البار تمارس الرقص الجنوني على سطوح الطاولات الفارغة لتشم أنفاس الجُلاّس، لتقيس مقدار الشبق أو الهم، أو اللذّة التي شاعت في عيونهم ثم سكبوها حرّى وغادروا. ولا بدَّ أنها ستقف عند طاولتنا لتترجم فحوى فوضى الأعوام

وأبجديات الضياع التي صرفناها بعد تراكم خيبات استنتجناها من استحالة تحقيق الآمال وتغيير العالم كما نشتهي.).

عندما ودّعني عند باب الفندق واستقلَّ سيارة أجرة نحو شقته في جبل الحسين كان العقربان يتعانقان عند الثانية عشر ليلاً. ذلك ما أنبأتني به ساعة إدارة الفندق. استنجدتُ بالاتّزان كي أقطع الممر الموصل إلى غرفتي لأُضيّع على الرجل الجالس خلف مكتب الإدارة فرصة اكتشاف تخدّري. (دائماً هناك الرقيب. إذا قدرتَ على إقناع أو خداع الخارجي هل باستطاعتك خداع الداخلي وهو المنشطر المتناسل؟!).

مباشرةً كان ارتمائي على السرير. رغم الجوع الضارب وحاجتي لما يسد فراغ الصارخة في جوفي. تركتها. لم أفعل شيئاً. فقط خلعت الحذاء الذي سمعت سقوطه أرضاً ونظرة انفلتت إلى سرير النزيل العراقي. كان خالياً. لم يثر انتباهي، ولا توالد سؤال أين يكون؛ لأنَّ الوسادة أدّت فعلها المتمّم للخدر. وما أن هممتُ باستذكار الرحلة من بغداد إلى عمّان حتى سحبتني من فوضى التذكّر لتقلّني إلى دوحة الكرى؛؛؛ فكان الرحيل غوراً.

(٣)

في صباح اليوم التالي؛ في الساعة التاسعة استيقظت على صوتٍ هامسٍ فإذا بعامل الفندق يبلغني عن نداءٍ هاتفي تكرر لثلاث مرات. قال أن شخصاً اسمه عبد الرحمن هو الذي اتصل، وأنه طلب مني البقاء في الفندق لحين مجيئه.

- بالأمس انتظرتك في صالة الانتظار؛ كنت أتابع التلفاز لكنني لم أشاهدك وأنت تدخل.

قالها النزيل العراقي بعد التحية الصباحية.

استنجدتُ بعذر لقائي بصديقٍ قديم هو ما سببَّ تأخري. لم أتطرَّق إلى جلسةِ استتباتات الآهات واستدعاء الذكرى والقناني التي تهافتت انتصاباً على منضدة البوح.

* * *

وأنا في دقائق الانتظار خامرتني فكرة أنْ أمد يدي إلى الظرف، استخرجه من جوف الحقيبة. أستخرج روحاً كتبَ بعضاً من خلجات وأباح بكمٍّ من مشاعر. لقد وِهِبَ الإنسان نعمة التدوين كتابة أو رسماً بغية التأريخ .. نؤرخ أفكارنا لنجعلها تصويراً مثبتاً لزمن سيغدو مكاناً تؤوب إليه الذائقة لتعيش الفعل.

إنه روح نجاة تسكبه على الورق؛ تهرقه على صخرة البوح. روح صادق ينأى عن المبالغة؛ يلامس جدار القلب.. أنا ونجاة سنكون مشروع رواية.مشاعرنا ستتمازج؛ نصهرها في بوتقة السرد. نمنحها رحيلاً سيّاراً في فضاء الإفضاء بلا مواربة، بلا قيود.

- من كلماتِكَ الراقصة أو الذبيحة على صفحات المجلاّت وأعمدة الصحف ارتشفت رغبة القراءة. ومن لقاءاتك أدركتُ كيف للإنسان أنْ يكون كاتباً. كنتُ مجنونةً ومهووسة بأجواء الكتابة وبحور الأدب تتلقّف زورقَك المتلاطم بعبثٍ لذيذ واحتراقٍ شهي.

أقول:

– لا أُريدك أن تتمثّلي بي فأنا رجلٌ عابثٌ رافض؛ ومأزوم.

فتقول:

– صراحتُكَ هذه واحدة من مسببّات تعلّقي بك. لم تكن غامضاً، ولا غائماً.. رأيتُكَ سماءً تُعلن صفاءها، ولافتة متخمة بشعارات البساطة والوضوح.

في زمنِ الانكسارات والتقهقر القسري ومحمولات الهم الثقيل تتبارى جبهات الإرادة. جبهة تتأبط حِزم الخيبة واليأس وانطفاء الشمس. وجبهة تركن إلى تفعيل الانزواء والركود؛ فيما ثالثة تنتفض كالعنقاء من بين الركام والأنقاض والرماد لتعيد خارطة تشكّلها الاستهلالي. وجبهة رابعة تتأرجح؛ وخامسة تنوء؛ وسادسة تلهث وراء سخرية الأعداء تلثم الأكف وتتدرّب على إجادة فعل الركوع والخنوع، وطلب الغفران.

المظروف يُحدِث تنمّلاً في كفّي. وفي الأوصال تسري رعشةٌ تثير الدواخل سعياً للاكتشاف. سأُكمل قراءة ما أفضت به أعماق نجاة في مجتزأ نصّها "الأب كما رأيته.. البيت كما أراه" فألجُّ جزءها الثاني سعياً للاطلاع.. حزمة الأوراق ما زالت محتفظة بنصاعتها لكن خط الكلمات المدونة عليها أفشى لي بأنَّ ثمّة تعثراً كان يحدث أثناء الكتابة، وأنّ نجاة لم تقم بتجديد ما كتبتْ بل تركتْ مشاعرها مسكوبة كما هي دون تشذيب أو إضافة (لعلها كانت تكتب بتواصل لئلاّ تتلاشى ومضة الرغبة في التدوين، أو أنَّ المزاج كان متعكّراً بحيث لا تجد ما يدفعها إلى التقاط أنفاس الارتياح لتعيد الكتابة أو أنها شرعت تكتب بهذه السرعة لأنَّ في رأسها قراراً ستعمل على تطبيقه.. أتراه كان قرار التواري.)

دخل النزيلُ العراقي يحمل قدحين من الشاي. وضع أحدهما أمامي مبتسماً:

- قبل الفطور؛ يزيح بقايا النعاس ويفتح الشهية للأكل.

ذكّرني بما نسيته. منذ أن قضمت حلوى أم محمد في الحافلة ولم أُدخل إلى فمي لقمةً يمكن أن تسمى وجبةً باستثناء حبّات "الترمس" التي أرميها في فمي كمقبّلات يُحضرها لنا عامل البار. شاي ساخن بخاره يدرك تخوم الأنف فتعبّه الخياشيم، وعينان تفتحان شهيتهما على الورق. نظرَ إلى حزمة الأوراق وتطلّع يجوس نظراتي. وقبل أن أقدّم شكري تركني:

- سأعود.

ثم كأنّه تذكّر:

- ألم يأتِ صديقك بعد؟

لم يسمع الرد. كان ترك الغرفة ليمنحني فسحةً للاختلاء.. طيبون أبناء بلدي. يمتلئون بمشاعر الدفء والألفة المميَّزة. لقد جُبلوا على رقَّةٍ وحُسن سلوك بلا حدود، حتى وهُم في أقصى مديات الألم: مطرودون ومنفيون من مرافئ الحلم.. ما الذي دعا هذا الرجل لتقديم مودَّتهِ الفائقة ودفعه إلى أن يعرض حناناً هو ذاته الذي نحسّه عند آبائنا والمقرَّبين منّا. وضعتُ أصابعي على جبهة الصفحة الأولى لأقرأ ما خطّته مشاعر نجاة: " الأب كما رأيته.. البيت كما أراه "... دفعني ذلك إلى التعرّف على جزئيات قد لا أعرفها؛ لاسيما وهي المتغلغلة في شرنقة حياة أسرة كانت لي معها أيام معدودات (أيام من عِداد التوتر الحاسم، وساعات من التلظّي على صفائح القلق الساخن)، ومؤَكَّداً ثمّة تفاوت

بين أن تنظر من الخارج وبين أن تكون داخلاً. تكتب نجاة عن محورين مثيرين كأنها تدرك أهميتهما: الأب والبيت. لا بدَّ لي من القراءة بروّية. نهضت فأغلقت الباب وأحكمت إغلاق النافذة المفتوحة المطلّة على شارع الملك طلال، المُربكة بفعل منبهات العربات والكوابح ولغط المارّة المقتحم جو الغرفة.. دخلت عبر استهلال الكلمات الموشّاة بالشعر والناضحة توصيفاً لا تريده نجاة أن يطير محلّقاً بعيداً بعيدا بحيث تنأى عن الواقعية فيدخل فوضى المبالغة. غمرتني الدهشة وأنا أنهي فصل الرؤية والتوصيف للأب والبيت. سقطت في حومة التفكّر؛ فالذي قرأته هو أسلوبي في الكتابة النثرية، مع نَفَسٍ فيه مسحة حزن دفين ورثاء لا تبغي إظهاره كما تفعل نادبات المراثي لراحلٍ عفَت عنه الدنيا وسلّمته لمصير البشرية المحتوم. فكّرتُ أنَّ نجاة كانت تقرأني فعلاً. كنت مقروءً عندها حقّاً؛ ويقيناً أنها التهمت أشعاري وطالعت كتاباتي الرؤيويّة في الشعر بحيث تشرّبت بكل ما كتبت فراحت تكتب بقلمي لتصوِّر حياةً تعيش جزئياتها. هذا تدوين أسلوبي عالي المستوى. إذاً كانت نجاة مشروع كتابة مؤجَّل وجد طريقه بعد رحيلي؛ والرحيل فجّرَ البذرة المُخدَّرة في رحم إبداعها الكامن. هذا الثراء السردي المُتقَن والتوصيف الصوري الباهر سيكون مقدِّمة للعمل الروائي.. هكذا قررتُ.

حين ألتقي بعبد الرحمن سأُطلعه وأُكلّمه عنها. لحد الآن لا هو سألني عمّا لدي ولا أنا بادرته بالحديث (لعلَّ لفراق الأعوام وقصر الوقت الممنوح لنا للقاء الأمس – مع تأثير الخمرة التي لعبت فأعادتنا لسنين بعيدة وأحاديث هي من عِداد الشتائم على مبعثرينا – هو ما أبعد طيف نجاة عنّي).. حين وجدتُ أن الأوراق تقدّر بخمسين صفحة من

الحجم الكبير ساورني ارتياح وتسللت لمفارق الروح رغبة أن يكون فحواها جزءً هامّاً من اشتغالي الروائي.

نقرةٌ خفيفة على الباب أنبأتني به يدخل عليَّ باسماً بعينين متورّمتين قليلاً ومحمرّتين مؤكداً.

- كنتُ كالجبل الجاثم فوق السرير. أجبرتُ نفسي على النهوض. لولا الموعد لانتهى النهار ولم أفق.

أمعنت النظر فيه. الوجه أكثر احمراراً، والشعر الطويل الهاطل على الكتفين لم ينل اغتناء المشط. الشاربان الكثّان متداخلان مع اللحية المتراكمة يُقرِّب لي وجه ناسك هندي أزمع على الرهبنة الأبدية.

- أراك أحد أتباع بوذا!

- بل قل مجوسيّاً يُقدّس حكمة النار ولا يرى في التعاليم سوى هذراً يثير الضحك.. هيّا ارفع حقيبتك وتعال. دفعتُ عنك حسابَ الليلة الفائتة. ما هذا الذي بيدك: شعر؟

- لا.. لا. شيء سأخبرك به لاحقاً.

أعدتُ الأوراقَ إلى الحقيبة ونهضت. تذكّرتُ النزيلَ العراقي، مؤكَّداً يرابط في الصالة مشدوداً لشاشة التلفاز يتابع ما حلَّ بالوطن.. توجّهتُ إليه لتوديعه؛ لكن عبد الرحمن دفعني باتجاه السلم نزولاً.

- اترك للبسطاء همومهم وآمالهم ودعنا بأفكارنا التي لا تثير سوى تهكمهم.

اندفعنا وسط الزحام وبين تلاطم الرؤوس. تمكّنا من أخذ سيارة أجرة أقلّتنا إلى جبل الحسين حيث الشقة التي ستغدو مخدعاً لآهاتنا.. متى أخبره بمهمّتي؟ وكيف سأبدأ الحديث: هل تراه سيوافقني الرأي أم سيرسم

أمامي مانشيتات من سخرية، على اعتبار أنني أسلك طريق الجنون ابتغاء إحكام القبضة على دخان.

الفصل الثالث

(١)

مددتُ يداً للمصافحة فأمسكَتْ كفّاً ترتعش

(٢)

تبدأ معرفتي بنجاة من ذلك الوقت المسائي؛ من أحد الأصياف قبل ثمانية عشر عاماً حيث اللحظات المُلغّمة بالحذر والفضاءات المُدلهمّة بالغمام. تعرفتُ عليها يوم تسلَّم "عريان" مقاليد البلاد فانتشرت في مدينتنا عيونٌ لا نعرفها؛ وظهرت أسماء مكاتب متوزعة في الشوارع الرئيسية والأسواق: مكاتب محامين / مكاتب استشارات هندسية / استشارات قانونية / بيع عقارات، مثلما صرنا نرى سيارات متفاوتة الطراز تحمل أرقاماً مموَّهة طفقت تجوب الطرقات وتتّخذ من نهايات الشوارع مواقف لها. يهبط منها أو يقف عندها شخوصٌ لهم ملامح بدوية صارمة.. ومن المدن الأخرى صرنا نسمع عن أنباءِ اعتقالات ومضايقات تواجه الشرائح المتعلّمة والمثقفة. اعتداءات تَطال البسطاء في الشوارع وعلى مرأى من اندهاش الناس ونظراتهم الحائرة / المتزاحمة بالتساؤلات. اندهاش استحال بمرور الأيام فزعاً قادهم للانكماش تحت سحابات الرعب فلم يعد ثمَّة تجمع حميم لأربعة أفراد أو أكثر في شارعٍ أو زقاق؛ ولم يحصل أن تبصر أُناساً يتّخذون المساءات نزهةً لينفضوا عن سحناتهم همومَ النهار وأثقاله.. صار الليل ساعاتِ وحشةٍ؛ والطرقات صوراً صارخة للفراغ والسكون المُثير

للتحسُّبات المُقلقة... هُلام اللحظة يشي بالمطبّات الهائلة التي ستزرعها المفاجآت. ونواصي النفوس ينزرع على أديمها بذارُ الريبة. إنَّ أمراً ما يلوح في أفق هذا الوطن المُبتلى بالشعارات الرمادية والهتافات الذئبية. منذ نصف قرن وهراوات الأفواه المزحومة بالكذب والزيف والدجل والوعيد والشتائم والخراء تترصد حركة الساعين للنهوض واللحاق بركب الإنسانية الراكض نحو الشمس. منذ نصف قرن وهي تنصب الفخاخ وتطيح بالآمال. أشعارُنا نبثّها مُرمَّزة على صحائف الهواء تدين همجيّتهم وتُعّري وجودهم الهجين، متنبئة بغيوم الكدر التي نراها قبل غيرنا تتكدّس بعيداً، زاحفةً من أقاصي الغدر وتخوم النوايا السوداء. نصرخ بأصوات استنجاداتنا أنَّ خطراً داهماً كالجراد سيأكل الزرع البشري ويبيد نضارة الأرض . سيُهلِك الأماني ويُطيح بالآمال.إنَّ مستقبلاً بلون السخام الفحمي يلوح كاسحاً، ماحقاً.

ذلك الوقت المسائي من أحد الاصياف طُرقت الباب طرقاً خفيفاً. سمعتُ أمّي تسأل: " مَن؟ "، ولم أسمع غير ذلك. راحلاً كنتُ مع " بائعة الأزهار"، محلِّقاً مع رومانس " جاك بريفير" خلقه في نصّه عن ذلك الرجل الذي فاضَ روحه أمام البائعة وهو يمد يده ليسلّمها نقوداً تهاوت أرضاً بين الأزهار المتناثرة والجسد المتهالك سقوطاً.

الضربات المتأنية على درجات السلّم، وصرير باب غرفتي عرّفني بوجه أمّي يسبق قامتها الناهضة. انتصبت تطالعني بتفرّسٍ مقصود وقسمات استفهام مُدافة بارتياب تارةً، وتارة بابتسامةِ استدراك.

– هل تعرف فتاة اسمها نجاة؟!

– مَن نجاة؟

- ابنة شهاب سعدون.

- أبداً.. ما بها؟

- خُذ!.. سلّمتني رسالة قالت من أبيها إليك.

ما أعرفه عن شهاب سعدون هو أنّه أحد كوادر حزب السلطة في المدينة، وأنّه زبون متقطّع لمقهى السيد جاسر. يأتي بعض أوقات الغروب فينال حفاوة الجّلاس لما يمتلكه من بشاشة وحلاوة لسان. يصرف ساعةً يصاحبهم بامتصاص دخان الأرجيلة ثم لا يني مغادراً بمثلِ حفاوة الاستقبال.. مراراً ما يدخل معنا في أحاديث ندركها للمجاملة ليس إلاّ. كنّا أنا وكمال وعبد الرحمن ومَن يجالسنا من شبابٍ يتأبطون الصف ولهم مواهب بازغة توّاً في ربوع الثقافة نبادله ما يُستجَد من كلامٍ عابرٍ بطأطأة رؤوسنا توافقاً مع ما يقول، أو نرسم ابتسامةً لكلامٍ لا نسمعه لكننّا نتظاهر بفهمه.. لم يؤذِ أحداً؛ ولم نر ما يُريب في تواجده وحضوره رغم حذرِنا من روّادٍ صاروا يتردّدون على المقهى لأيام ثم يذوبون بعد ذلك فلا نبصرهم أبداً.

بعد التحية سطرٌ واحد يقول: " أدعوك لقدح شاي نشربه سويةً في بيتي.سأكون بانتظارك يوم غد، الساعة الواحدة ظهراً. أرجو أن لا تخبر أحداً.".

الكلمات رغم قلّتها أثارت خشيتي وأوجدت قلقاً فتح أبواباً للاحتمالات. احتمالات أغلبها تشاؤميّة تحمل أثقالاً من الأسئلة لعلَّ أولها سؤال ما الذي يريده منّي؟ هل دعوته تحمل أطياف البراءة رغبةً في مجاملة ودعوة لبناء علاقة صداقة دون الاهتمام بفارق سنٍّ بيننا؟! أتراه يفكّر في كسبي لتنظيمات حزبه على اعتبار أنّي شاعر محسوب

على الطبقة المثقفة وأنَّ ضمّي لصفوفهم يُعادل عشرة أو عشرين أو حتى مائة مرّة مما يكسب من بسطاء الناس الذين ليس لهم إلاّ همٌّ واحد هو إحراز ما يمكن إحرازه من ثراء الحزب لاسيما وأنَّ تنظيماً كهذا استخدم الإغراء المادي وسيلة لضم الكميّة على حساب النوعيّة؟ أيكون أرسل دعوة مشابهة لكمال أيضاً؟!.. إذا لم يكن دعاه لماذا إذاً جعلني هدفاً يتوجّه إليه؟!

على جمر التساؤلات ولظى التوجّس صرفتُ وقتاً ثقيلاً أوصلني إليك في المقهى، يا كمال. كنتُ منتظراً منك مفاتحتي، لكنك لم تفه بشيء. ذلك ما جعلني أدنو من يقين أنَّ هذا الرجل استهدفني أنا وليس غيري. أوشكت على إخبارِك لكنّي تمالكتُ نفسي، مُقرراً اطلاعك بعد لقائي به .. وفي البيت كنتِ يا أمّي، أنتِ الأخرى حائرة. لم تُظهري توجّساتك إلاّ بعد ما تناولتُ عشائي. جَسَستِ لحظات هدوء لم تكن هادئة قطعاً. أعدتِ سؤالَكِ عن حضور نجاة، وماذا تريد. ولأجل أن لا أواربَ باباً للقلق أخبرتُكِ أنها ورقة تحوي شعراً وتبغي رأيّ فيه.. رأيتُكِ، يا أمي لأولِ مرّةٍ تُظهرينً خشيةً. وجهُكِ الذي بَقيت من فتوَّتهِ مسحةُ بياضٍ أبدى صفرةً صارخة؛ وجبهتك تجسّدت عليها الغضون وبانت تكسُّرات الزمن. تجاعيد ظاهرة حول محجري العينين، فيما انكمشت شفتاكِ انكماشاً لم أعهده حتّى في أقسى حالات مِحنِك (قلبُ الأم بوصلة تستشعر لوامسُه طيوفَ التطيرّات وأجنحة الكوارث القادمة. قلبُها نبيٌّ مُصغّر يمسك بالآتي الرمادي، ويتنبأ بما يخفيه الغيب العميم.). تحرّكت نظراتُك تترجم التعابير وتتملّى شيئاً ما يتخفّى وراء فعلٍ غير مُرضٍ تحسبينني ارتكبته. رأيتُكِ تتقلّصين داخلَ ثوبك الأزرق

الداكن، الموشّى بنقاطٍ مائيّةٍ مستديرة كأنها قطرات دموعك المبعثرة، المتبقّية بعد طول بكاء أوصلكِ يوما ما إلى أنَّ رحيل أبي حقيقة لا يمكن تجاوزها؛ وأنَّ الدموع ليست بذي حلٍّ. فلو كانت الحل الوحيد لإعادة الراحلين لبكت البشرية عمومها أمام تخوم الأيام كي يعود الغائبون من رحلة الأبديّة؛ وتنتفي معادلة الفناء القاهرة. وعندما تأكّدتِ – وقال قلبُك أنَّ كلامي عن شعرٍ أتت به الفتاة غير صادق – قُلتِ برجاء التضرُّع:" ابتعد عنهم، يا ولدي . أولئك مثل الحديد إن سقط عليك آذاك، وإنْ سقطت عليه آلمك."

عدتُ إلى نص " بائعة الأزهار " أحاول إعادة قراءته. بيدَ أنّي لم أشعر بتلك المتعة الفيّاضة لحظةَ طفحت على غدير روحي عندما قرأته عصراً. تغيّرت القراءة. رأيتُ رجل جاك بريفير ممدداً ببدلتي الزرقاء ومعطفي الذي انفرجَ فصار كبساط يحوي جسدي الهامد، ورأيتني أرسمُ الفمَ فاغراً والعينين مفتوحتين نحو السقف تبعثان آخر نظراتهما صوب الهوّة المُشرعة باتجاه سماء زرقاء تحتضن عصفوراً يهفهف بأجنحةٍ طيفية تعلو، وتعلو نحو قرارات نائية.

ليلتها كنتُ مزحوماً بالأفكار المشتتّة والأسئلة المتناسلة. أزرع بذار الطمأنة فأجني غلالات التوجّس. لا أدري كيف انبثق بغتةً شعورٌ بعبث الحياة وضآلتها فسرى يجوب دروب الأعماق، مُعيداً جملة الأفكار البوهيمية التي غارت في البواطن فأسسّت ساتر اللامبالاة. توالَدَ مع البغتة قرارُ تحنيط مبرّرات القلق. سأنام إذاً على تقدير مواجهة الرجل بلا تهجّسات.. نهضتُ وقد تجاوز الليل انتصافه. خاتمة النظرات على كلمات القصاصة الورقية لا تكشف ما يبعث على الريبة،

إنّما حوت دعوةً ورجاء. عندها رميت على كاهل الليل بواعث القلق . أطفأت النور فغطست الغرفة في يم الظلام. تبارى السكون ينشر أشرعته عندما تناهت لمسمعي خُطى أمّي الوئيدة أعلمتني بعدم استقرارها. أنها تشاركني الاستفهامات المربكة..(أنا)تجاوزتها (الآن)؛ (هي) استمرت تعتاش معها (اللحظة). لكأنها ولِدَت من رحم التهالكات المرهقة لجدّاتها الصارفات أعمارهن في مضمار الجهد اليومي اللاهث، لا يعرفن الركون إلى أفياء السكون، ولا يرتئينَ رغبة الاسترخاء تحت أفياء الخمول. تلكُم المولودات من أرحام حبّ العمل وشغف التفاني، وسحابات النقاء، وضفاف العفاف، وسلالات الإخلاص للأزواج والحنان للأولاد، والرحمة للأحفاد. الجدّات اللائي وَلدنَ الرجال المسربلين بمواجهة المواقف العسيرة؛ الرجال الأبطال واشمي وجه الأرض بشواهد الشهادة، ومسقينها رواء الدماء الفيّاضة الفوّارة نابتين الخطى الطهور على أديم الصفاء العذب. خُطى أمّي ترسم أصواتها المتهجّسة.. آ، أمّي!!.. كدتُ أنهض لألقي عليها رجاءات الارتياح، طارداً عيون القلق من أمام أبواب لحظاتها المرتبكة.

(٣)

في الساعة الواحدة من ظهيرة اليوم التالي تلقفتني انعطافة الطريق. استقبلتني بعدما خلّفت شارع الجسر.. دربٌ فرعي أوسع من زقاق حسير، أضيق من شارع عريض يضجُّ بالفراغ؛ ذلك ما أفعمني بأطياف الارتياح لأنَّ الأمتار الثلاثين التي قطعتها على أكثر تقدير سلّمتني لبابٍ حديدي رمادي اللون، أنبأني كتفه الأيمن بزرِّ جرسٍ

ضـغطته مـرتين تاركـاً للـزمن المتشـبّث بـالإحراج اسـتطالةً كاسـتطالة القصـائد المملّـة التـي كثيراً ما يقرأها أشباه الشـعراء ليقال عنـهم أعلامـاً فأتمنى الانسلاخ من ضجرها حتى لو تطلّبَ ذلك خنق الذائقة.

... وفُتِحَ الباب!!

بعمر السحابات البيضاء، بلون النغم المُعطّر بآثام الشغف، برهافة الـورد والأنسـام والفَراش والهمـس والأحـلام مَـن أشـرعت فانتفضـت بـ" مرحباً ".. الشَّعرُ كستنائي غزير شذَّت عنه خصلة بلون الحنّـاء، هاطلـة علـى حاجبهـا الأيمـن الكثيـف مطـرودة نهايتـه مـن نفـور الرمشـين.. الوجنتـان اسـتعارتا لـون حـب الرمّـان بفعـل انبثـاق فـورة خجـل مُحتشـد وانعكـاس من حمرة قميص قرمزي مُطعّم بزهيرات بيض متنـاثرة بعبثٍ على ثراء الصدر. (لقد رأيتُ هذا الوجه.. رأيتُ هذا القوام الفتـي، ولكن أين؟!).. لم تنطق شفاهاً إنّما العينين استحالتا فماً يفوه بكلام الصورة. سريعاً فسّر قلبـي سرَّ البهـاء، فقال: هذا قوام ما ارتادتـهُ فوراتُ شِعرك النـاري، ولم تصل مدارك هياجاتك الذاتية نواصي فتنتهُ.

مددتُ لها يداً أصافحها، فأمسكت كفّاً ترتعش..

تملّتني بعينين فاحصتين كأنهما تخططّان لالتهامي..

- هل العم شهاب...

- ينتظرك.. من هنا.

أقطـع ممـرّاً فوقـه السـماء وعلـى جانبيـه شـجيرات آس متراكمـة ومتكاثفة ومنّسقة انتهت بي إلـى فنـاءٍ حسير، أدخلنـي لصـالة عريضـة بعدما تجاوزت باباً ساجيّاً فهوى الطلاء.

- تفضّل..

الأصبعُ الرخامي أشار إلى غرفةٍ استقبال مستطيلة، داخلةً عمقاً. أرائكها مغلّفة بقماش من القطيفة المشجَّرة باشتباك ألوان بُنيّة وصفراءِ ذهبية توشّي فراغاتها تفرّعاتٌ سوداء كحيلة. الناظر إليها / المتفرّس في تشابكاتها سيساوره شعور بأنه داخل غابة سحرية ملغّمة بالمتاهات.. ما أن جلست حتّى تراءت إزائي عينان منكمشتان لفيل ينتصب على منضدة وطيئة وقد برز ناباه العاجيّان كأنهما يوجّهان نهاياتهما المُدببّة لعيني فيما طفقت تكتكات ساعة جدارية مُسدّسة تستبيح أجواء الصمت المُشيع... عندما رفعت رأسي فوجئتُ بها منتصبة لم تتركني.. تلكم العينان الوسيعتان المحروستان بسواتر رموش نافرة و؛ وفم يرسم ابتسامة خفيّة.

– نجاة.. أليس كذلك؟

بابتسامة فرح مرتبك ردّت:

– هي بعينها.

خلل فيوض الرؤى التي كنّا نستحم في غمارها نغطس ونعوم كانت لهفاتنا للتعبير واندفاعاتنا للتصوّر، وهياجنا لتمثيل كل ما يواجهنا وما نلتقيه سمةً نُجاهر بها وندعو لارتيادها. كانت الفتنة التي نصطادها على الوجوه الفتيّة نحيلها قصيدةً ناجزة عن عبث الأنثى بعاطفة الذكورة الهوجاء. نصرخ بمفردات إبداعنا هتافات العطش والظمأ والجفاف والحرمان: يا مفازات الجِنان وأقداح الزنابق، وسلسبيل السواقي. أنتنَّ أيتها الشموس الراعفة والسحابات المُثقلة بعسل النشوى واللذاذات هبينا دفقاً من جذلك، ودناً من خمرك، وسحراً من لياليك الراعشة. كنّاً نقف عند مفترق دروب الشمس، عند الأفق النائي متضرعين لومضةٍ من

ابتهالات الحب النازف أن يهبنا لمحةً من جمال فتاة لا تخجل من الشمس ولا تستحي من القمر.. وها هيَ نجاة تهبني ألواح التملّي والتطلّع والاعتراف لأُعلن ولو بطريقةٍ سريّة مهمّة استهلال الحب الصادق.

من بين خِضم التداعي والتردد قرأت تساؤلاً، فردّت:

– سيأتي..

ثم كأنها كانت تُحضّر شيئاً ما فاهت:

– سيأتي.. لا تتبني المحددّات بالمعيقات، والألفة نصنعها بأرواحنا السابحة في هُلام المجهول.

توجَّستُ!!.. هذه الكلمات ليست غريبة عليّ.

تفرَّستُ في وجهها استفساراً قبل أن أتذكّر أنها كلمات عبد الرحمن قبل أن يرحل، كتبها تقدُمةً لنص نشره في إحدى الصحف العربية إهداء بحروف ملغّزة " م. ش.ا ". تلك أهزوجة روحية خلقتها لحظات الشعور بالفراق، مُشيرةً لنبوءة رحيل قسري قادم.

* * *

غب ارتشاف قدح الشاي، وأسئلة من عِداد الاستهلال المُفتَرَض للدخول لفحوى الأمر الذي استدعاه الحضور. وبعد ابتسامات وملامح بشاشة وترحيب ودود، وأسئلة عن مشاريع الكتابة المُنجزة أو المؤجّلة حدّثني عن حبّه القديم للقراءة، ومتابعاته في فترة الصبا للمجلات المصوّرة للصغار، وملاحقة أخبار الفنّانين تأتي بها مجلات لبنان. حدّثني عن رغباته الفَتيّة في أن يصبح كاتباً: "كانت لنا طموحات وأيامٌ

أردناها للتحققُّات وللصلة الروحية مع الخلاّقين المبدعين، ولكن تجري الرياح بما لا نشتهي؛ لهذا كنت أراني فيكم كلمّا رأيتكم في المقهى أو قرأت لكم في النشريات. ثم....".

طفا خفوتٌ ما كالبريق الآيل إلى الانطفاء في حدقتيه. أعوامه الراسية عند مرافئ الخامسة والأربعين أوحت لي أنها تبتعد. انتبهتُ إلى الشيب النافر يكتسح فوديه، وجملة تغضّنات تستبيح جبهته تُظهره أكبر عمراً.

– أقرأ ما تنشرون.. ميَّزتكم أنت وكمال وعبد الرحمن. نتاجاتكم لا اعتيادية، متمرّدة.

تطلّعَ في وجهي يسعى لقياس ردّة فعلي قبل أن يستدرِك:

– لكن طريق الأدب والفن مُلغَّم بالمخاطر.. يبدأ المبدعون بالاعتداد والزهو وينتهي بالكبح والأمل المقموع.

– ذلك لأنهم مكلّفون برسالة ذاتية كبيرة عليهم الإفصاح عنها؛ هُم حالمون بحياة ترقى إلى النقاء.

– وهذا ما يُغضِب الآخرين. السلطات تحديداً. الكُتّاب كما أرى مُحارَبون في كلِّ زمان و..

– ولكن ليس في كل مكان!.. قاطعته.

رفع قدح الشاي يأخذ منه رشفةً فقال الذي داخلي: هذا رجل يتحدّث بصراحة مَن يلمُّ بقضايا معقّدة ويفسرُها بحسٍّ عالٍ. لقد أبرق كلامه بشيفرة في فضاء يستدعي التهجّس ويبدو أنه حصد غيوم حدسي...

بينَ الجدِّ ومحاولة تعطير الحديث بروح الدعابة قال:

– لذلك خيرُ بيئةٍ لهم هي المنافي؛ يفضّلونها على السجون بالطبع. وحسناً يفعلون.

ماذا يريد هذا الرجل أن يقول؟! ولماذا يأخذ هذا الموضوع منحاً يتّجه صوب دروب التشاؤمية وأغوار التخويف بدلاً من أن يجعل اللقاء موسوماً بالحبور والبهجة؟!

وكأنه قرأ حوارات القلق ورغبَ في قطع طريق تواصلها:

– يبدو أنَّ دورك يا مبدر جاء. وبلا إطالة عليك أُصارحك. أمامك فسحة لا تزيد عن أسبوعين عليك خلالها اتّخاذ قرار الهرب خارج البلاد، وإلاّ ستُعرّض نفسك لاضطهاد لا يجب أن يصيبك.

– لا أفهم!

– المستقبل القريب لن يكون في صالحك وصالح الكثيرين. البلد مُقبل على أحداث سيتضرر بتأثيرها الجميع، حتى نحن المنضوين تحت لافتة الحزب والدولة.. أنتَ مُتابع يا مبدر دون علمك؛ وعندما حددّتُ لك هذا الوقت لتزورني فلأنَّ فترة الظهيرة تنسحب عنك المراقبة لأنهم أدركوا بحكم مراقبتك أنكَ إذا دخلتَ البيت ظهراً لا تبارحه إلا عند الغروب فاطمأنوا لذلك.. مشاهدتي لك في المقهى ومديح الناس فيك مُضافاً لقلمك الذي لا أتمنى أن ينكسر هو ما جعلني أخشى عليك فأستدعيك للحضور.. دبّر أمرك بأسرع ما تستطيع. لا تأتني لبيتي ولا تستوقفني في الطريق أو تكلّمني في المقهى.

مدهوشاً، مشدوهاً رددّت:

– لماذا؟.. ماذا فعلت؟!

– برأيهم فعلتَ الكثير وآنَ الأوان لمعاقبتك بصرامة.. قصائدك

وكتاباتك كانت محل متابعة وتأويل.. لقد عملوا الكثير من المطبّات للإضرار بك دون عِلمك.

" آه، أيها الرجل الصادق!! أي قوّة خفيّة بعثتك إلي؛ وأي لُغز قدّمتَ حلّهُ يسيراً بيدي.. نعم صحيح؛ لقد حدثت أمورٌ عديدة من الضغط والحرب المُعلَنة أدخلت أسرتنا في حومة العذاب اليومي. ".. تدفّق شريط المنغصات التي مورِست. ملابسي التي كانت تغسلها أمّي وتعلّقها في فسحة البيت الأمامية لتجف يُسرق بعضها وتظلُّ أمّي حائرة تؤكّد بإصرار أنها علّقتها ولم ترفعها. التلفون يرن ويتقطّع فجأةً لعشرات المرات يومياً وحين يرفعه أحدنا لا يسمع ردّاً. أنبوب الماء الخارجي الذي يغذّي بيتنا نجده كلّما استيقظنا صباحاً مكسوراً وقد غمرت المياه درب المارّة؛ نعزو السبب لفعل أطفال لا يدركون مسؤولية فعلتهم. أختي المُعلّمة زارها المشرف لثلاث مرّات في أسبوع واحد، وغب كل زيارة كان يدوِّن إرشادات قاسية ويضمِّن سجل الزيارة تعنيفاً لا ضرورة له،، هوَ مَن كانت زياراته لها في العام الماضي كلّها إشادات وتبجيل مع أنَّ مادة الدرس هي نفسها لم تتغير!

أخذتُ كلامَه مأخذَ الجِّد.. صافحته وخرجتُ شاكراً. كلماته الأخيرة "ثق بكلامي واختزل الوقت" ستظل لأيامٍ تتردّد في مسمعي.

عندما التفتُّ عند الباب الخارجي لمحتُ نجاة من وراء زجاج نافذة الصالة تطالعني بنظرةٍ خمّنتها مزيجاً من هناءة اللقاء وانكسار لما قد يأتي به القَدر من أضرار.... وعلى نحوٍ من البغتة؛ وأنا في خضم تلاطم الأفكار على الطريق الذي تلبّدت سماؤه بغيوم التهجّس تفككّت مفارق لغز وسؤال أينَ رأيتها عندما أعادت لي اللحظة ذلك الوجه

المُتكرر في أماسي إلقاءِ الشعر وسجالات النقد التحاوري. نعم أنها هي مَن كانت توجّه أسئلةً بملامحٍ خجولة وتستقبل إجابات بانشدادٍ ظاهر.

* * *

كانت أمّي أشد قلقاً عليَّ منّي. قضت ذلك النهار مرتابة، ملولة. لم تكن تعلم بأني سأذهب للّقاء؛ ولم تعرف أنني ذهبت؛ لكنَّ هاتف الأمومة أقوى من أن يُخفى. تلمَّست مزاجي الذي تبدّل، وحركتي التي بدت تختلف عمّا كانت قبل حضور نجاة. ترجمَت خشيةً من خروجي ظهر ذلك اليوم وأظهرت خيفةً وهي تلمحني أتناول درجات السلّم صعوداً نحو غرفتي إذ القدمان تبوحان بثقلِ الخطو. لذلك ما أن خلعت ملابسي وهممتُ بالنزول حتى واجهتني عند الباب تطالعني باهتمام.

– الساعة دنت من الثالثة، لا بدَّ أنك جائع.

دقائقُ الغداء كانت كلعبة القط والفأر تلعبها نظرات الأم، وملامح وجهك.. (هي) تحدّق بعيني البحث، (أنت) تتظاهر باعتيادية الأمر.. (هي) تتساءل بحدس الأمومة، (أنت) ترد بلامبالاة البنوّة. عيناها تقولان أنَّ ثمة أمراً جللاً، وسحنتك تردُّ بأنَّ كل ما يجري لا يستحق الانشغال به..

بعد تلك الزيارة صرتُ أتحسّب لكلِّ خطوة أخطوها؛ وأتحقق من أيةَ نظرة تتوجّه إلي حتّى وإن كانت من عِداد النظرات البريئة من قِبل الآخرين.. ها هو الفخ يُنصب لي بعدما سقط فيه عبد الرحمن وكمال من قبل. إنّهم يبغون استكمال التدمير الذي أرادوه لنا نحن الثلاثة. ها هُم يتذكّرون، أو أنهم أعادوا تقليب الأوراق فوجدوا أنّ لهم ثأراً معي.

أصرف ما تبقّى من ذلك اليوم أُقلِّب أوراق تفكّري. أبحث عن وسيلةٍ تقيني غدرهم، فلم أجد ما يساعدني سوى " أنور حازم ". لا أدري كيف توهَّج اسمُهُ مثلما أشرق وجهه في ذاكرتي. جاءني من بين ثنايا الغيب كما لو كنت أتلقّى هاتفاً ملائكيّاً. وكنتُ موقناً بمساعدته؛ فقد ظلَّ هذا الرجل وفيّاً لعائلتنا منذ العام ١٩٦٣ رغم تهافت السنين وابتعاد ذكرى عمّي عباس. كانت عمّتي ترجوه الحضور لبيتنا ذلك أنها ترى صورة أخيها فيه. يحكي لها عن أيام الرفقة والحميمية بينهما وبمّا لا تعرفه عن أخيها من شجاعة مثيرة للإعجاب، وثبات رأي لا يعرف التراجع. فتُسهم زيارته في إشباع مشاعرها بغيوم الزهو وأرائج الفخار.

الغرفة كامدةٌ كما لو أنها مكان غريب وموحش..

ورودُ رجل جاك بريفير ساقطة أرضاً، والرجلُ ممددٌ. لكنَّ الحيرة لمّا تزل مُلتصقة بوجه البائعة الشابّة. لا قدرة لها على الكلام، وليس في يدها غير هواء البَهَت. تريد أن تقول شيئاً؛ أنْ تسأل الرجل؛ أن تنادي على مَن يسعفه. تريد رفع الورود ووضع يدها تحت رأسه لتهمس في أذنه أنّه ما يزال في فيض الحياة، والشيخوخة بعيدة عن ملامحه. لكن الأمر الحاسم الشائعة رائحته الدهائية يمسك بزمام اللحظة. لذلك بقيتُ مُتعكِّراً أتقلّب في الفراش متطلعاً إلى السقف الخالي من التعابير؛ حتى إذا قدمت لحظات الغروب وضاقت الغرفة بوحشتها، وأطبقت على رقبة تحمّلي نهضتُ منتفِضاً. أرتدي ملابسي وأخرج على صدى أقدام الغروب تضرب الخُطى نحو سوق المدينة.

* * *

حركةُ الناس تتسارع. غماماتٌ بعيدة تصطدم مُحدِثة برقاً؛ وأنسام هاربة ليس لها قدرة خلق الرومانس. هرب الصفاء؛ وقدرة بقاءِ الألَق على القَسَمات نضُبت.. الألسن تتناقل أخبار متواترة عن سحب داكنة تتحنّط عند أفق الوطن بانتظار نفثةٍ يُطلقها فمُ الغيب. السفينة عائمة في يباب المحيط، والربابنة غرباء جلبتهم أكف الدهاء ووضعتهم على صدر السفينة؛ ملامحهم كملامح القراصنة الضائعين؛ وسحناتهم كسحنات سيّافي العصور الوسطى. آثرتُ الولوج في السوق الرئيس فلم أتخذ الدرب الذي يأخذني كالعادة إلى مقهى السيد جاسر مع علمي أنَّ كمال ينتظرني هناك. أتملّى الوجوه وأحدق في أماكنٍ لم يكن لها اهتمام لدي قبلاً. مّن يدري! فقد يأتي القدر بالمحذور في أية لحظة فيحرمني من رؤيتها! وقد تصبح نظراتي هذه آخر النظرات.. أظنّ أنَّ أحداً ما يتعقّبني؛ يلاحقني بدهائه، يتحسّب لخطاي ويحصي عليَّ نظراتي.

أنفاسٌ تعابثني خليطة من أنسام باردة وزفير مرطوب أطلقته رئة الفرات. أدخل شارع الكورنيش فأُلفيه يضم أفراداً معدودين، متناثرين خرجوا من محلات متفرقة، من بينهم لمحتُ كمال يحمل فِرَشاً وعلبَ ألوانٍ زيتية ابتاعها للتو. انشرح للّقاءِ غير المحسوب فتلقّفنا السوق الكبير المسقَّف بصفائح معدنية؛ سوق مدينتنا الأول. ركضنا على أديمه منذ تفتّحت عيوننا وتحرّت نظراتنا على واجهات ودواخل دكاكينه تعرض ما كان يثير فينا الفضول للحيازة والاقتناء؛ وعلى وجوه أصحابها نتابعهم يعلنون استقبالهم لمن يقترب بعبارات ترحيب مغرية. وجوه ما زالت تستقبل، ووجوه غابت، قضمتها أشداق الزمن بعدما داهمها المشيب والوهن ثمَ غيّبها عن الحركة والوجود.

- حسبتكَ الآن في المقهى. لم أتوقع ملاقاتك هناّ

- هذا ما راودني أنا أيضاًّ ... قلت.

وللحق أقول خفت على كمال، هذا المتشرّب بالوداعة والمخضّب برحيق النقاء لأنَّ الذي يتعقّبني الآن مؤكَّداً رصد لقاءنا العفوي وحددَّ المكان والوقت باللحظات.

يُفتَرض إخبار كمال بما حدث. يُفترض أخذ رأيه والتداول معه في هكذا موضوع قد يجد حلاًّ له أو نصيحة تُقلل من أُحادية التصميم فتدفع به للسير في دربٍ أيسر من درب أنور حازم الذي قد لا يؤدي لنهاية النفق بالنجاح. يُفترّض إطلاعه على فحوى الأمر ولو من باب الصداقة التي تقتضي البوح.

أخرجني من افتراضاتي عندما توقَّف يترجم أبجديات صمتي، ويتساءل:

- ها؛ أهيّ رياح عاتية لنص جديد تلاطم الأفكار؟.. أنت غير طبيعي اليوم!

- لا.. لاشيء.

- إذاً دعني أخبرك عمّا حدث لجارنا بالأمس.استُدعي هذا المسكين إلى العاصمة من قبل وزارة الصحة بعد برقيتين مستعجلتين وصلتا لمكان عمله بضرورة الحضور. كان قلقاً؛ لا يعرف سبب الاستدعاء. في بداية الأمر ظنَّ اشتباها حصل في الاسم؛ لكن برقية ثالثة ألحّت على حضوره اضطرته للسفر ومراجعة الوزارة.. هناك أظهروا له ورقةً تطلّع في كلماتها فأخبرهم أنها بخط يده، وأنها رسالة إلى صحيفة " الجمهورية " تتضمن شكوى على طبيب شاهده يعامل مرضاه بقسوة

خلوّاً من التعامل الإنساني المُفترض. فكيف وصلتهم؟.. أخبروه أن الرسائل الموجّهة للصحف لن تنشر بعد الآن، ستُبعث إلى ذوي العلاقة للتحققّ لأنَّ الشكاوي الكثيرة المنشورة تعطي انطباعاً سيئاً عن السلطة وتشي برداءتها.. هذا الإجراء تم بعد تسلّم " عريان " مقاليد الحكم.. ألا ترى معي إنّها أولى خطوات خنق الكلمة وتحجيم مهمّة الصحافة. أظن هذا سينسحب على الثقافة وسيتوجّه لتقييد حرية النشر.

تذكّرت كلام شهاب فأدركتُ بواعث ملاحقتهم وسعيّهم للإضرار بي، ولم أستثنِ كمال لهذا فضّلت تقديم التحذير دون إخباره بأمري:

– ينبغي إذاً عدم إعطائهم ذريعة لتدميرنا. سيلاحقون نصوصنا ويعملون على تأويل ما يُنشر. وأنت؛ لا تترك اللامبالاة تدفع بك إلى السجن ثانية، فقد لا يشفع لك أحدٌ هذه المرّة.

– هذا يعني أن نحكم على إبداعنا بالجمود والتحنّط. ونُترك لهم الساحة يعبثون بها.

كيف أُفهِمه وأُقنِعه بأن كلماتي إنّما هي رسالة صريحة للتهديد. كيف أجعله يوافقني الرأي؟

هرعنا نشمّ أنسام ابتداءات الليل لعلّها تخفف من غبار كمد شرع يهاجم روحينا؛ مستثنين الذهاب إلى المقهى. رأى كمال في كلماتي باباً تشرع على فضاء واسع من تحذير يقود إلى خشية كبرى، بينما رأيت في كمال مُخففّاً لوقتٍ يضيق فيثقل بوزنه الجلمودي على أنفاسي. تأكدتُ أهمية عدم إخباره بما جرى مع شهاب: "سيتطيّر من كل ما حوله لو أفضيت! "وسيرى كل العيون عسساً."".. تذكّرت كيف أنَّ لوحاته التي أنجزها بعد إطلاق سراحه صارت أكثر سوداوية؛ القتامة

والدكنـة تتسـللان إلـى مسـارب الضـوء ، وصـار المتلقّـي يـرى مـا وراء اللطخـات الرماديـة فـي زوايـا اللوحـة وجوهـاً شـبحية تتمـاهى وشـيطنة خفية.... ولم يكن لنا من منفذ نلجّه لنخرج من باحة التشاؤم غير بار" السـعفة الذهبيـة ".. يـا للـزمن المُـدّهش؛ زمـن الحيـازة المُبتغـاة التـي لا تحصل إلاّ بغياب الوعي واقتناء البلادة. تردد في داخلي مثل انكليزي " Ignorance is bliss " يا للزمن البليد! يؤتى به ليحقّق سعادة بليدة. فكان إن اقترب عامل البار يسألنا الطلبات.

توالي الأقداح حلّقت بنا على كف الهروب؛ بعيداً صوب جزر لا تأويها العيون. لم نبصر مَن يلاحقنا مِن بين سيقان الأشجار ولا خلل الأوراق. السحر يضفي جمالاً على شواطىء الحلم، فلا نسمع صرخة لطائرٍ ناعب يبعث الحذر ولا عواء ذئاب آلمها البغض فطفقت تبحث عن فريسة. دفء المكان وعتمته المحببّة تمتص حمرة مصابيح خافتة تـدفع الـرواد للانشـغال بأحاديـث خفيضـة (هـل هـي تمازجـات همـوم يتداولها الجُلاّس هروباً؟ أم آمالٌ يرسمون ابتداءاتها لمستقبل ينتظرون منـه جلـب لـوامس الهنـاء؟ أم أحـلامٌ كاذبـة يعلنـون اكتمالهـا وكـل واحـدٍ يدرك كذب الآخر بتحقيقها؟). الكلُّ في حومة الانسلاخ من واقع رموا أثقالـه عنـد بـاب البـار وجلسوا خفيفـي الـرؤوس إلاّ مـن ثقـل لـذّة الثّمَـل. الكـلُّ فـي حومـة الرحيـل عنـدما دخـل رجـلانَ، يتفرسـان فـي الوجـوه وبتصـرّفٍ مثيـر توقفـا عنـد طاولـةٍ أمـام شـاب؛ أمـراه بـالنهوض. وإذْ همَّ مُستفسراً دخل ثالث يحمل بندقية كلاشنكوف لفت دخوله العيون فنفرت تتـابع المشـهد. وبحركـة غيـر آبهـة للنـاس سـحبوا الشـاب قبـل أن يفـوه بكلمـة؛ قـادوه خارجـاً نحـو سيارة صـالون حمـراء. هنـاك رفـع أحـدهم

غطاءها الخلفي ثم تعاونوا على حمل الشاب الصاغر، ألقوه في حوض الحقائب وبقوةٍ أغلقوا عليه. دخلوا السيارة وبحركة سينمائية لافتة انطلقوا .. ذُهِلَ الجُلاّس مثلما دُهِشَ المارّة في الخارج وهم يتطلّعون بغرابة لم يعهدونها. لم يكونوا يستغربون رؤية رجال أمن السلطة يقودون أُناساً، لكنَّ الغرابة أن يتم الحدث وبهذه الاثارة الغامضة.. طارت فقاعات الخدر لدى رواد البار وانتصبت قلاع القلق منبثقة من مسارب الهروب المؤقت.. ولا ندري، كمال وأنا، من أين انطلقت كلمات تقول:" سيناريو فاشل؛ لقد طبّقوه مع نفس الشخص في بارٍ آخر. "

❋ ❋ ❋

عودتي إلى البيت تمّت على سحابة نسيان ما حصل، وما سيحصل.. وجدت أمّي ما زالت تجمع أشواك التهجّسات وتراكمها أكواماً على أديم روحها الوجل. ما زال الارتباك جليّاً في عينيها الضيّقتين، وعلى كفّيها الضامرين وهما يُظهران ارتعاشاً لم أبصره قبل أن تسلّمني الورقة التي أتت بها نجاة. لقد تشممّت ما يُكدِّرُها. تشممّت صمتي المشوَّش وترجمت تبدّل أفعالي منذ الأمس. عهِدَتني أدخل غرفتي فأروح أحرث في ثرى صفحات الكتب وأعدو لهاثاً في مضمار مطالعة الصحف. شهدتني أميل لثبوتية الحركة داخل الغرفة وهدوئها وأنا أهبط نازلاً لأعدَّ شاياً بنفسي أو لأبحث عن كتابٍ من رفوف الكتب التي تحتويها غرفة الضيوف.

توجّهتُ مباشرةً إلى غرفتي، مرتقياً السلّم. لا أدري إن كانت أمّي قد لاحظت ثقل قدميَّ وهما يحملان جسداً مثقلاً بخدر سائل ذهبي نده

بنـا ونحـن نقـف علـى دكّـة الخمّـار فعـرَّت مفاتنهـا الاغوائيـة وأطلقـت همسـها الـدفين لنـدخل مخدعها الأثيـر بعيداً عن منغصات واقـع ملـيء بآثـام إرهـاق الـروح ... وقبـل أن ألـتقط آخـر درجـة وأسـتدير يسـاراً نحـو غرفتـي نمَـت لمسـمعي خطواتهـا الوئيـدة تلاحقنـي. ومـن ورائـي جـاء صوتها الخائف الخفيض:

- هل أعد لك العشاء؛ أم تنزل تُعدّه بنفسك؟

- لا هذا ولا ذاك، يا أمي. أدخلني كمال مطعماً ملأنا فيه المعدة.

وفـي داخلـي تمتمتُ:" وأشبعنا فيه الرأس الذي لم يعُد يحتمل. ".. توقّفتُ أتطلّع إليها عندما تيقّنتُ أنها لمّا تزل واقفة لم تستدر.

أغلقت البـاب خلفك ورحـت تخلـع ملابسك. ترمـي القمـيص أرضـاً وتقذف بـالبنطلون نحـو السـقف فيتهـاوى سـاقين متلعثمـين. تبحـث عـن البيجاما فلا تجدها أو هكذا بدا لك. علـى السرير ترتمـي ناسياً تحذيرات شهاب وخشية أمّك وتذمّر كمال؛ إلاّ نجاة. انبثقت من بين طوايا الخـدر لتعيد تلك الأصابع التي ارتفعت مودِّعـة، وترسم ذلك الاستقبال المُعطّر برغبـة اللقـاء. "لا تتبنـي المُحددِّات بالمُعيقات.. الألفـة نصـنعها بأرواحنـا السابحة فـي هُلام المجهول." تـأتي راقصـة علـى تخـوم شفتيها، راهصـة عند مرفأي عينيها. كيـف التقطتْ تلك المفردات فانبنت داخـل ذاكرتـها واستحالت قولاً تردّده؟!.. هذه كلمات عبد الرحمن؛ وهذا بيـان الحكمـة الذي اعتمده، ومن هديـه أو أيمانـه بـه ترك الوطن ورحل. كيف وصـل عطر هذه المفردات لفضـاء روح نجاة؟ ولماذا تتلقّظها أمامك بنبرةٍ ولـهٍ وانبعاث اشتياق كما لو كانت تبغي المكايدة؟ هل كان استقبالها الـودود لـكَ وفـاءً لعبـد الـرحمن؟ أتراهـا تـتلمّس مـن خـلال مشـاهدتِهكَ صـورة

الغائب البعيد؟... التساؤلات أوردتها بواعث الخمرة وزبَد القلق المتداخل عند حافة وعيه الهارب؛؛؛ لكنّني لم أسمع عبد الرحمن يوماً يردد اسم نجاة، ولم يتطرّق إلى ما يحيط بها وحسبي أنّني وكمال قريناه لا يكتم سرّاً عنّا. كانت امرأةُ الحُلم لديه امرأةً كونيّة. يجاهر بها ويعدها المرأة الأمثل للحياة؛؛ يصفها مخلوقةً مزيجةً من العسل الغربي الأشقر، والحليب الشرقي الدافق، ممزوجين بالفلفل الحار، الحارق.

لعنتُ رشح الخمرة الذي ينساب مُتسلّلاً لمخدع الروح، ليُطلق سراح التشككّات متنقّلة تأتي بعربات التحسسّ الرمادي. وقلتُ هذا يكفي لئلاّ تستحيل نجاة فتاةً فاجرة وأمّي امرأة عاهرة، ويغدو البيتُ منفى والمدينةُ قبرا.

أرفع الوسادة من تحت رأسي فأضعها عليه دافناً وجهي وغالقاً أذني؛ نادِهاً بالكرى أنْ تعال.

(٤)

بدا استقبال أنور حازم لي ودّيّاً. أثنى على نشاطي الكتابي، واستحضر بي روح عمّي عبّاس.

– كان شابّاً متفتّحاً كزهرة عندما مزّقوه. أثرى أدبيات حزبنا الأممي بكتابات وقفوا عندها كثيراً. كان حالماً ومندفعاً. أراده عالماً تُطرد من فضائه الآلام وتُزال من قاموسه آهات الموجوعين المعدمين. فيه نزعات من "بوشكين" شاعر روسيا الذي حفظ شعره وطفق يردده بجموع الواثقين. كان يقول: "أنا بوشكين!" فنشاكسه بالقول: "ومن أين لك ناتاليا كونتشاروفا؟ " فيجيب:" سأخلقها من آجرات الخيال وأزرعها نخلة

سامقة في حقل إنتاجي التدويني.".. آه؛ لم يدَعوه يُكمل حلمه.. قتلوه كما قتلوا "لوركا". هل تُحب لوركا؟.

تمتمتُ من بين ركام الحزن الذي رأيته يهجم على سحنته الخمسينية:

– نعم . كُلّنا نتلبّس بروحه الغجرية.

– بوشكين ولوركا قضيا من أجل الحب والأرض؛ ومعهما عمّك عباس وطوابير لا تُعد من المفكرين والمثقفين حاملي مشاعل النور.

"بوشكين" شاعر الكبرياء المنتفِّض / الواقعي الحالم، ذو الأصول الشرقية.أحقّاً كان عمّي يعشقه، مُندهشاً بأشعارٍ يجدها خلاصة روحه وفيض بوحه؟!. تذكّرت أني قرأت عنه / له فأعجبني. حفظتُ أشعاراً اشراقية له، وأخرى تحمل جذوة التحدّي: "أقمتُ لنفسي تمثالاً ليس من صنعِ يدٍ. سوف لا ينمو العشب على الدرب الصاعد إليه."؛ وأخرى تستحم بالرومانس وكثيراً ما رددّتُ نداءه الخالد: " يا مركبي حلِّق بي إلى التخوم القصيّة.".. وحلّقتُ مع:" ولتعُد مرّةً أخرى، يا ربيع فتوَّتي."... يبدو أن كلام عمّتي يتعطّر بالنبوءة عندما قالت أنَّ مبدّر يشبه عباس. لا أدري كيف نالني هذا الـ " بوشكين " وأثار في أعماقي هياج الرغبة في القلق يوم تعرّفتُ على شعره واقتفيت تفاصيل حياته القصيرة مثلما تعلَّق عمّي. لا غرابة! فالرجل وإنْ كان شابّاً يافعاً فهو شاعر. والشاعر يمتلك صولجان الاستحواذ على الذائقات. ولا ضير أن تكون ذائقتي مطابقة لذائقة عمّي، فالعلم يُقر بإثبات لا يقبل التردد أن للوراثة والعوامل البايلوجيّة القاسم الأوفر في النمو الانفعالي والعاطفي توازياً مع النهوض الجسدي والحركي..

رأيتُ أثقال السنين تتكدّس على كاهل ذاكرته فتُتعبهُ. بدا ضعيفاً، منهكاً ومنهزماً:

- تحطّمت أحلامنا على صخرة العسف البشري؛ وآمالنا أجهزت عليها أكفُّ التجنّي بعدما كانت تطلعاتنا تنحو صوب وطن وعالم يعمّه الرخاء وينعم بالسلام بعيداً عن مضارب القهر والحرمان ... آه؛ جئت لتذكّرني.

- لا بل جئت لأمرٍ هام وخطير أبحث من خلاله عن خلاص لئّلا يُعاد التاريخ فأسحق كما سُحِقَ عمّي عبّاس.

طردَ الحزن من وجهه واستبدل قسمات التقهقر بالصرامة.. تراجعت سنواته الخمسون؛ استبدلها باندفاعة الشباب. عاد يستجمع جيوش التحدّي المتبقية وراء دفاعاته المُحطّمة؛ كأني به يردّد مقولة همنغواي " قد يتحطّم الإنسان لكنه لا يُهزَم.

- ما عاش من يسحقك!

- لا، بل هو عائش؛ وكما كان بالأمس يملك قفّازاً يمسك منجل حصاد التطلُّعات عاد الآن بقفّاز آخر يمسك بأداة تدميرية أكثر فتكاً.

رأيته متأهّباً كما لو كان ينظر لهوّة غائرة في العَدم:

- لا تتخفّى وراء الكلمات. قُل ما عندك!

حكيت له ما حصل؛ وتنبأتُ بما سيحصل..

- هذا يعني أن خروجك هو الضرورة، والبقاء لا ينبغي أن يكون خياراً راجحاً.

صمت قليلاً. بدا كأنّه يُقلّب صفحات الخيارات إدراكاً للحل. تقلّصت جبهته وتقطّب الحاجبان. شفتاه تاهتا في الزم والانفراج،

وأصابع كفّه اليمنى راحت تنقر على لوح فخذه.

– سيأتيك الرد خلال يومين؛ أرجو أن نوفّق في النتيجة. ولكن مثلما احتفظت بسريّة الأمر مع شهاب احتفظ بالسريّة كذلك معي.

خرجتُ ورذاذ مطر رطيب وبارد يهبط بهطول على مفازة الاحتراقات داخلي مُحجِّماً سعة اللظى. لقد تكلّم أنور حازم بلغة الواثق مُظهراً سلوكاً يعكس بساطة الأمر كي يمنحني الثقة بنفسي ويدفعني إلى عدم تهويل الموقف. هل كان يرى ألمر بقدر وافرٍ من اليُسر؟ وهل سيفتح إزائي أبواب النور لينده بي: هيّا؛ طُر في العوالم الحرّة، وحلِّق في فضاءات الكون القصيّة. عُب من أنسام الحياة الطليقة، وانهل من فيافي الوجد المتَّسع. لا تأبه للمقدِّرات المبنية على النوايا السوداء لخفافيش الظلام.

تلك الليلة اختليتُ بنفسي؛ ولم أخرج من البيت.. شهدت أمّي بعض انشراح الأعماق يطفو على طراوة كلماتي معها فتهلل وجهها ولو بقدر ضئيل. إنها تعيش ضيقي وتتنبأ بكربي. أدركت أنَّ فَرَجاً لا بدَّ من مجيئه كأنوار الملكوت ليضيء عتمات دروب المرصودين بالجور والقهر.. لم تكن تريد لي أن أكونَ شاعراً بل تمنّت الحظوة لدى الآخرين ورضاهم، وابقاء الله بؤرة نورانية دائم التطلع إليها. لهذا ومنذ صغري اعتادت وضع تلك التميمة المغلّفة بقماشة خضراء والمُكدّسة بآيات الله وكلامه الحكيم تحت وسادتي. تقول: لن تأتيك الأشباح ولا يمسسك الضّر طالما ملائكته تحرسك وأنت بين يديه الحانيتين. كان أبوك تقيّاً لا يغفل لسانه عن ترديد الآيات ومع كل عمل يردف قولاً أمّا من القرآن أو من أحاديث الرسول؛ وفكّر كثيراً في صغرك أن يرسلك

للالتحاق بإحدى المدارس الدينية ليجعل منك رجل دين فقيه لكنه مات قبل تحقيق رغبته، وأنت كبرت ولم أجد فيك الرغبة لذلك. أخذتك الأشعار وسيطرت عليك هذه الكتب المكدَّسة التي يقيناً لا تحوي تعاليم الدين وفحوى التقوى.

تنبهتُ على صوتها يناديني من الأسفل . نهضت؛ وإليها هبطت. على هدي كلمات أنور حازم الواعدة وشوقي للحديث معها خطوت.

تناولت ما كان عشاءً بشهية باذخة، تتأملني بمزيج من انشراح وتهجّس. وأطالعها بارتياح وأمل. أهمُّ بإلقاء أسئلة من نافلة الرغبة في قتل الصمت عندما بادرتني هي بالكلام:

– جاءتني نجاة قبل حضورك بنصف ساعة . حمّلتني سلام أبيها لك و...

تراجعت سحابة الهدوء داخلي، وانقبضت أسارير النفس.

– قالت سأحضر غداً عصراً. لديها بعض الأشعار تطلعك عليها.

إذاً ما زال شهاب مشغولاً بأمري ؛ ومسألة رحيلي مازالت محط اهتمامه. هذا يعني جدّية وقصدية الإضرار بي.. طردتُ القلق الذي يريد لنفسه الهجوم لتدمير متاريسي الدفاعية؛ أوقفته بأسلحة وعود أنور حازم الواثقة. قلت لن أضع طمأنينتي في موقع التقهقر، بل سأتدرع بالصمود. نهضت أمّي لتجلب شاياً نشربه؛ نهضت بقوةٍ تكلّفتها وحركة خطى فشلت في إظهار لمحة من لمحات ذلك العمر المليء بالطاقة المفعمة بالمقدرة. تحركت داخلةً المطبخ بينما تحركت مجسّات ذاكرتي تستعيد وجه نجاة وابتسامتها وابتسامة طيّرتها من خلف النافذة. هذه البنت تسعى لملاقاتي، تروم البوح بما في طوايا النفس. لقد

سلّمتني صك الوله من أول استقبال، وكلّمتني بما يتواصل موهبتي. أنا شاعر، وواجهتني بما يشبه الشعر. حالم بآفاق بعيدة وبعثت هي بما قد ينقلني إلى تلك الآفاق.

(٥)

- أهلاً نجاة.. تفضّلي.

دار الزمان فصرتُ أنا الذي أستقبل وصارت هي الضيفة. أدخلتها غرفة الاستقبال وتقدّمت أمّي تُمطرها بورود الترحاب والسلام والسؤال عن حالها وحال أمّها وأخوتها، ووجدتني بعد انسحابها إزاء نجاة بكاملها: لحماً وشحماً وانفعالات.

- ماذا فعلتَ؟؛ قالت: سمعتُ أبي يكلّم أمي بشيء من الخشية عليك.

- على وشك أن أمسك دفة الحل. وِعدتُ بما يُريحُني.

- أرجو أن لا تتوانى. اعمل المستحيل.

بين تفاوت التيار وعلو الموج وتواري المفاجأة أجدُ نفسي. فهذه نجاة وذاك أبوها؛ وهناك الشعر، وهذه أمّي، وذلك أنور حازم أقطاب تشدّني، وأنا وزرق تائه بأيهم ألوذ؟ ومن ذا الذي له الإصبع الساحر يرفعني به من دائرة النار إلى وادي الأمان؟

- هل أنتِ شاعرة؟

- بل أنا عاشقة. قالت عيناها المخضّبتان بخجل راشح على لسان فمها اللميم الهامس.

- الشعر يبدأ من حيث يتأجج العشق.

- إذاً أنا أحوي الاثنين؛ والاثنان يحتوياني.

- هذه فاتحة جميلة للرومانس؛ لكنها جاءت في الوقت الضائع.

- لا.. لا. ما زال للأمل مُتّسع.

وبشيء من رغبة رمي التوتّر خلفها ؛ وقليلاً من روح الدعابة:

- لدي ما يُسمّى بالقصائد. أتيت بها كعذرٍ لحضوري حتى لا ترتاب أمّك مني فهي لا تعرفني ولم تكن رأتني قبلاً.. لي محاولات بسيطة في كتابة الشعر. مطالعتي له وما يُنشر في الصحف، وحضور بعض ما يُقام من أماسي جعلتني أعرف الأسماء وأميّز من هم جيدون ومتميّزون؛ ولي صديقات مثلي يستهويهن الأدب فنتداول في شؤونه.

توقّفت لترسم ابتسامة تبغي من ورائها القول:

- وكان اسمُك من الأسماء التي أركض إليها حالما ألمحها فأعدو لاهثة على رمال صورها وتشبيهاتها واستعاراتها الجميلة.

ولكي أصل إلى ما راودني من أسئلةٍ تتعلّق بقول عبد الرحمن وكيف توصّلت إليها.

- هذا يعني أنكِ حفظتِ " لا تتبني المحددِّات بالمعيقات؛ والألفة نصنعها بأرواحنا السابحة في هُلام المجهول." من قراءتك للصحف؟

- وكنتُ أتابع قائلها عبد الرحمن محمود. كان شاعراً مثيراً. في شعره تمرِّدٌ نحبه نحن المُتطلّعات لكتابةٍ نقرأُ فيها أنفسنا. لقد شاهدته وعرفته يوم جاء لزيارتنا.

- عبد الرحمن زاركم في بيتكم؟.. متى؟

في عينيها ترجرجت غمامةُ حزن وانكمشت جبهتها. رأيت إلى كفّها ترتفع وأصابعها تُقرِّب ياقة قميصها بحركة تخلو من السيطرة.

– كـان ذلـك قبـل أن يُعتقـل. لقد اسـتدعاه أبـي سـرّاً مثلمـا اسـتدعاك بـالأمس. حـذّره؛ طالبـه بـالهرب والاختفـاء، واقتـرح عليـه السـفر خـارج البلاد إنْ استطاع؛ ولكنّه...

الوميض المتبقّي عند أطراف الحدقتين فرَّ هارباً مذعوراً. والشفتان المضمّختان برضاب الحديث المسترسل تقلّصتا.

– أظهـر تهكّمـاً ولـم يأخـذ كـلام أبـي علـى محمـل الصـدق. وربّمـا أعتبره من باب محاولة الترهيب وظنّه مدفوعاً من جهة الدولة. لقد حزنَ عليه حزناً قاهراً. لا يرتضي أبي الضرر لمن يدهم مصابيح البلاد؛ ولا يتقبّل عنفاً يرتكب بحقّهم.

– تلقّى عبد الرحمن التحذير ولم يستجب له؟!

– يومها لم يُحذر أبي كمال أو يحذّرك لأنّه استشعر العقاب موجّهٌ له بالدرجة الأولى. كانوا يحسبونه خطيراً مع أنكما لا تختلفان عنه.

– لكنَّ عبد الرحمن لم يخبرنا ولم نر على ملامحه ما يوحي بأنه في خطر!

– لهذا سقط في حبائل مخططّاتهم ونـال مـا نـال. ربّمـا شـعر بعد حين بالندم لعدم تقبّله نصيحة أبي. لذلك رحل إلى أوربا؛ قيل أنّه في إنكلترا له قريبٌ هناك.

هكذا إذاً..

فتـاة تحكـي بـألمِ الـذكرى. يجاورهـا رجـلٌ يسـتمع بحاسـة التشـويش. كانا قبل لحظات التقيا بخيارات الرغبة، ينويان العدو على ثراء الروح وخمائل الوقت المُكرَّس للود.. وها هيَ اللحظات التالية تقلبُ المشهد المُبهج إلى دنيا كوارث وكوابيس. تُعيد له عبد الرحمن وتذكِّره بليلة

الهرب من فوق الحيطان، تنقله إلى كلمات الأب شهاب وهي تعتصر ألماً وتحذيراً، ثم تعيده إلى هذا الوجه الباث وداعة أنثى تستحم بالبراءة وتضجُّ بالوله. أنثى تنظر إلى الأمام فتلمسه حقول أشواك؛ وإلى الداخل فيتمثّل إزاءها روح تروم النهل من مسارب الخصب الدنيوي على أرض رخاء تنده بالحالمين ليجسّدوا أحلاماً بهيئة وقائع ناجزة.

تركتُ أصابعي تتسلل فتماسّت مع أصابع الشمس. جَفلتْ أولاً ثم عادت تسترخي فيتم الاشتباك الحميم:

– الشعر علّمنا أنَّ الكونَ يعوم في المطلق، وينده بالمخلوقات أن تنطلق سابحة.

تحسّرتْ..

– لكنَّ البشر ينصبون جبالَ المكائد فيسرقون النداءات ويخنقون فيوض البهاء.

– تلك لعنة على قابيل وأنساله.

– ووصلتنا اللعنة بالتأكيد. لم يأخذ أسلاف هابيل حق اغتيال أبيهم ولم ينادوا بالثأر، بل تركوا لأسلاف هابيل الاستحواذ كما لو أنهم يُقرونَ الغَلَبة لمضطهديهم.

– ذلك لأنَّ قلوبهم أنسام باردة وأرواحهم مياه عذبة. لا يعرفون النار الضارية ولا يأنسون للأعاصير الهوجاء.

رفعتُ كفّها فطبعتُ قبلةً مرتعشة على ظاهرها.. تندّت عيناها وتلألأ على رقراقها مشهد وجهي وما احتوى من أشياءٍ خلفي.. دنوت من وجهها ففاه عطر نحرها ووجدتني أقترب فأطبع قبلَ أردتها سريعةً فاستقرّت على شفتيها. لم تستجب لنداءات التحذير فاسترخت جفونها

وتشابكت الرموش بزمنٍ لم نفقهه سوى أنَّ الأصابع انفرطت؛ وانسحبت الكفّان كلٌّ إلى جبهته. عندها انتفضت ونهضت:

– سأذهب.. أبي يريد الجواب فماذا أقول له.

آه نجاة. أبوكِ يدفعني إلى الرحيل دفعاً لسلامتي، وأنتِ ترمين لي طعم البقاء والانشداد إليك.. ماذا تقولين له وقد واربتِ أبواب الارتماء في سهوبك الرخية؛ وندهتِني بصوتِك الرخيم أنْ أدخل بكل جوارحي وجنوني وأشيائي وحلمي وارتعاشاتي وشعري ومفرداتي وهبائي وظنوني ولامبالاتي واحتراقي ولذّتي وتعثّري وتبعثري وتطلّعاتي وخيبتي وخشيتي، وكنوزي المنهوبة وحياتي المسلوبة وهمسي الخفيض وبوحي الدفين وقلبي الرهيف ورجاءاتي اللاهثة وآمالي الراعفة وخطوي الهيّاب وبهائي الفيّاض، وحزني الذي كالجبل ومشاعري التي كاللظى؛ قرّائي الذين أحبّوني وقارئاتي اللائى لا أنكرهنَّ. بعد كل هذا تسألينني يا نجاة ماذا فعلت. ها أنا أنجرُّ إليكِ وأجري وراءكِ عاشقاً / هائماً / مهووساً كنورسٍ تائه لوّحت له جزيرة الحلم بشاطئ الآمان ولم يتحسَّب لفخاخ الغواية المزروعة تحت كتوف رمال التيه.

– أخبريه بأني ساعٍ للخروج. اليومان القادمان سيأتيان بالرد.

دخلت أمّي تُبدي اندهاشاً لنهوض نجاة؛ مظهرةً عتباً لقصر وقت الزيارة، لكنَّ الحياء الذي هجمَ على وجهها فصبغَهُ بحمرةٍ وردية، والصوت الذي شابته تمتمات كتعبير عن خجل صارخ شفعا لها برضا أمي وقناعتها؛ ثم الخروج مودَّعة بكلمات ترحاب متوالية مليئة بالمحبّة كما هو المعتاد من أفواه النساء الأمهات والجدّات العجوزات حين يُظهرنَ ودّاً يبعد التأويل السلبي ضدّهن.

عندما استدرتُ لفتت نظري حزمة أوراق في مكان جلوس نجاة. كانت نصوصاً شعرية جاءت بها لكنَّ حمّى الارتباك أو جدّة الموقف أو لهاث الدقائق أنساها العرض.

لقاؤها أعاد لي عبد الرحمن..

كان أكثرنا اندفاعاً في التشخيص، وأبلغنا تحليلاً للأحداث، وأبرعنا تصويراً للوقائع. وكثيراً ما أعطينا قراءاتنا السلبية لنصوصه ووضعنا أيدينا على شيفرات تقود إلى مدلولات تفضي إلى احتساب إظهار عداءً للنظام وإنْ بدا دفيناً.

كان يجابه الإشاعات الطائرة على تخوم الألسن عن اكتشاف السلطة لتنظيمات سريّة مُصرِّحاً إنَّ قولاً كهذا إنّما تبثّه الأفواه المُجنَّدة بغية تبرير تصفية شرفاء الوطن ومخلصيه. ومراراً كان يردّد: أنَّ التنظيم الأخطر على الوطن هو هذا الذي يقود البلد نحو الهاوية؛ وأنَّ كفّاً خفية لملمتهم كجرادٍ ورمت بهم على يناعةِ عراقنا الجميل. ستشهد الأعوام أفاعيلهم وستجدون المُخطط التدميري الذي ينفّذونه. هذه أمّة لا تتفتتّ إلاّ بأهلها.

هكذا إذاً.. دمّروا عبد الرحمن؛ وأعاقوا كمال. ولم يبق إلاّ أنا سيأتي العقاب وفق الجدول المرسوم.

أُقررُ البقاءَ في البيت لحين ذهابي لملاقاة أنور حازم لأطفئ العين الملاحقة لتحركي وأجعلها رمداء حاسرة لا تُشفى بتراب خطاي. أُصمّم على صرف الوقت بمطالعة ما تجمّعَ لدي من مجلات وكتب لم يطاوعني الزمن لقراءتها. سأُراجع نصوصاً لم تكتمل أو مسودات لم يتم نقلها.

سنين لاهثة تعدو. تفرُّ هاربة إلى تخومها القصيّة. سنين البراءة الطفولية ،، الصبي الراكض على ماء الرمل ولفح الشمس وسطوع الموج القادم من جبهة الفرات. الصبي الباعث شوقه لأفياء أشجار الغَرَب والأثل والكالبتوس المتاخمة للضفة المُشرعة – يوم فتح أول أبواب تطلّعه للنهر – وظلّت تغدق الأفياء والظلال وتنده بالصيّادين المُتعبين للاسترخاء في خثرة هوائها الرطيب. يعدو مع أقرانٍ لهم يتذكّر منهم كمال وعبد الرحمن ويوسف ومنير وآخرين، وجدوا في الطبيعة مراحاً يقيهم حسرات الآباء وأنين الأمهات من زمن المعادلات البشرية المنقلبة / الخرقاء وظلم الإنسان للإنسان. يرمون بأجسادهم الصغيرة إلى قلب الماء؛ يعومون فيغوصون غوراً ليشهدوا هناك أسراب الأسماك والسلاحف وقواقع الأعماق. يأخذهم الجذل فيتمنون لو يدوم التحليق المائي في اليم الرائق لولا الرئات الصغيرة تضجُّ بالاختناق فتدعوها للصعود. كان عبد الرحمن يرى في الضفاف حقلاً من الكلمات، والماء فيضاً للرؤى، وسعيّاً للرحيل التخيّلي بينما كمال يتأمل، فيقول: هذه أجمل لوحة ترسمها الطبيعة: نهر وسماء وضفاف تتكدّس بالزروع وصيّادون يتفرسون في شباك تخرج للتو.. وأنا هنا!! آه أيتها السنين! يا أعوام الصبا.. أنده بها فلا تُجيب. أصرخ فلا تتأنى للاستماع والرد. فقط غرفتي تحاورني بالصمت؛ وبائعة الورد تُطلق حسرات القلق على الرجل الطريح أو على الحائر الماثل إزائها. تتراجع توهّجات مصابيح النهار فيعج في فضاء الغرفة كمدُ التطيُّرات وتنتفض من بين ثنايا الأعماق رغبة الخروج إلى السطح للتوحُّد مع لحظات بدء المساء.

استدرتُ لأرفع كرسياً وأخرج عندما رنَّ جرس البيت وسمعتُ أمّي

تتمتم وتغيب.. قليلاً ودربكة أقدام تضرب السلّم وصوت كمال يدمدم بحثاً عني في الغرفة.

- ارفع كرسياً وتعال.

- بل اتركْ كُرسيّك وانزل اغتسل لنخرج. عندي لك مفاجأة.

- ما هذا؟

- مظروف؛ ألا تراه. خُذْ وأقرأ.

طابعٌ عريض يحتل الزاوية اليمنى. الكلمات عربية تشير إلى ليبيا؛ والرسالة مرسلة إلى كمال على عنوان دائرته. وعلى الغلاف الخلفي ؛ المرسل: عبد الوهاب.

- لا أعرف شخصاً بهذا الاسم؟

- هو عبد الرحمن؛ تنكّر بهذا الاسم. ألا تُميّز صوته؟

أصدقاء الروح:

كانت الوجهةُ- بلداً- إنكلترا. لم يأتني الرد من خالي؛ بل من جيرانه الإنكليز كتبوا على رسالتي المُسترجعة أنَّ خالي غادر إلى ألمانيا للعمل. صادف إن التقيت شابّاً في دمشق نصحني بمصاحبته إلى طرابلس الغرب . أنا الآن أعمل في دائرة السياحة. الأنشطة الثقافية هنا واسعة ومنفتحة. انتظروا رسالةً أخرى. هاكم عنواني .....

عبد الرحمن

كانت مفاجأة حقّاً. بل خيطاً سيشتبك وخيط أنور حازم لينسجا بساط ريح هروبي؟

- هذه فاتحة خير لرحيلنا. لم أعد أطيق البقاء، يا مبدر. الفضاءات تضيق والنفس تساورها وساوس الموت انتحاراً وسيلة نهائية

لهذه الدوّامـة، أسـمعها تطلـق صـفيراً ابتدائيّاً يتعـالى سيمزق صـحائف آمالنـا دون مقـدرة إعـلان الـرفض والاحتجـاج. لعلّ عبـد الـرحمن الفنـار المتوّهج الذي سيومئ إلينا للقدوم إلى جزيرة الخلاص.

يحمّر وجهه وهو ينطق كل هذا الكلام / تجحظ عيناه / يكبر حجم انفعالـه. هـذه الكتلـة الروحيـة المحتشـدة بالإبـداع والخلـق،، الموهبـة المُحاطـة انحصـاراً بجـدران الفـولاذ المقتربـة رويـداً، رويـداً لضـغطه وطحنه. هذا المتطلّع أبداً، أبداً لشمس الانطلاق تأخذ بـه إلى الاشتغال الجميل لينتج لوحات يبغي لها التراصف مع نماذج المبدين العالميين. كتب عنه ناقدٌ أجنبي زار معرضاً لـه في العاصمة مرَّةً أنّه فنان يستبق مجايليـه ويعدو صـوب إبـداع يميّزه كخـالقٍ عتيد لـه بصـمات خاصـة ستصبح يوما ما مدرسة تُحتذى، وسيغدو لـه أتبـاع ومريدون متـأثرون. كذلك تناولت مجلـة سويدية تعنـى بـالفن التشكيلي الشرقي معروضـاته مشيرةً بما يشبه التنبؤ على أنّه فنان يرتقي إلى العالمية حيث استخدامه للون يُضاهي استخدام " ماتيس " رائد الوحشية، بل قد يتجاوزه؛ ولوحاتـه المعروضـة تُشـكِّل نصوصـاً تحتشـد بالشـيفرات؛ وأنَّ قـراءة أو قـراءتين لنصوصـه – كمـا ورد فـي المجلـة – لا تنصـفه لأنّهـا نصـوص تقـود لنصوص أخرى ثم أخرى؛ وهكذا.

ترتعش أصابعُه.. تتكدّر سحنته.

– رسالة عبد الرحمن فتحت جُرحاُ آليت أن أُظهره ملتئماً، يا مبدر. وبقـدر مـا فرحـت لورودهـا تأسّيت. رسـالة أحسـبها نـاقوس يـدقُّ هتافـاً للخروج. أخشى أن نتقبّل الوضع كما هو فتفضـي طموحاتنا الكبيرة إلى الانزواء في هكذا محيط ملغّم بالمكائد والكره.

جاء كمال ليضيف على كدري كدراً آخر طامراً فرحة ورود رسالة عبد الرحمن. حضر ليزيد أكداس حقدي على صانعي الظلام ويرفع مؤشر الضغينة باتجاههم لأعلى مستوى.. خشيت عليه، فنهضت:

– انتظرني. سأغيّر ملابسي ونخرج.

مزّقتُ أشرعة الصبر وأمسكتُ بقارب التحدّي. سأخرج، ولتبقى العين الراصدة المُعطاة مهمّة المتابعة تلاحقني.. لن أريحهم.

(٦)

السوق...

حركة ما قبل الغروب كالعادة ضجيج وازدحام. الرجال يُلاحِقون ما معروض من خِضار وفواكه في المحلات أو المعروضة في عربات الباعة المتّخذين أماكن تصطاد القادمين لرغبة الشراء. النساء بعباءاتهن السود فيهن الفتيات الناهضات توّاً. تهفو

أنظارُهنَّ إلى المعارض الباثّة اشعاعاتها الاغوائية لكسب مشروع في شراء فساتين تحمل طابع الحداثة واكسسوارات هي آخر ما وصلت؛؛ والرجل المدني يلاحقني من بين التكاثف البشري. ألتفت فينكمش ذائباً، ويلتفت متظاهراً بأنّه يُقلّب بضاعة من المكان الذي توقّف عنده. يظننّي لم أكتشف مبتغاه. يقفز لذهني شهاب ومصباحه التحذيري الذي سلّمني إيّاه لأستنير من الظلام المقذوف في طريقي. تقفز نجاة فأروح أنظر في وجوه الشابّات يخطرنَ باندفاع عمري راهص وتطلّع ربيعي ناهض لعلّي أراها بينهن. تتجلّى ملامح أنور حازم الحازمة تفي بالوعد. تنبثق كلمات عبد الرحمن تبث نغماً يشي بأمل

اللقـاء. وهـذا كمـال لا يـدري مـا يـدور. سـيتطيّر إن أخبرتـه. لا بـل سيرتعب..؟

نخـرج مـن الزحـام لنتـرك خطانـا تعبـر شـارع الكـورنيش صـوب الرصيف العريض حيث الفرات يجري؛ نطلُّ على انسيابه؛ نتكئ على السور الحديدي؛ نطالع شموعاً تتحاذى على لوحٍ خشبي مربع دفعت به نسوة يتكوّمنَ فـي الضـفة الأخـرى المقابلـة لوقوفنـا، يطلـبنَ مُـراداً مـن الخضر الذي دخل الماء فغاب. دخل هارباً من الجور البشري باحثاً عن فيوض الهناء / مرابع الود / ممالك الوفاء / منابع اليقين / مناهل وصـولاً لحيـازة لؤلـؤة العدالـة التـي سينشـر ضـوءها فـي منـاحي الجحـود /الاسـتحواذ / القتـل الجمـاعي / متاهـات العـذاب البشـري لينهـي كلـح الظلمـة مـزيلاً إيّاهـا مـن قـاموس الأرواح الدفينـة المغروسـة فـي أجسـاد الشـرّيرين الجاحـدين المولـودين مـن أرحـام العهـر والفسـاد والضـغائن المستشرية كطاعون كل مآله: الفتك والتدمير.

تتهادى الشموع فيما أستدير فألمح جريدةً ترتفع عند عمودٍ كونكريتي عند الرصيف الثاني تخفي وجهاً ذئبياً يترصّدنا... هذا وجه من وجوهٍ سيحكي لي عنها كمال بعد خمسة عشر عاماً من الفراق كتوليفة لزمن داعر أعطى استنتاجاً واقعيّاً لتنبؤات عبد الرحمن الأولى. صمتٌ يعمُّ الفضـاء لكـنَّ الخطـى وفيـرة. خطـى تلامـذة مـدارس ومـوظفي دوائـر حكوميـة؛ كذلك أناس سيقوا تحت أوامر التهديد والعسَف من الأسواق والمحـلاّت والشـوارع تحتشـد بهـم سـاحة كانـت قبـل يـوم مراحـاً لصـبية يلعبـون علـى هـدي البـراءة واللعـب الطفـولي. نخـلاتٌ خمـس ينتصـبن بصفٍّ واحد هي التي أختيرت لتكون وسط ميدان توقّفت عندها عربـة

حزبية هبط منها بهدوءٍ يوازي صمت الحشود المُبحلقة ببهتٍ وانشداهٍ ورعب حزبي يرتدي بدلةً كاكيّة يحمل سجلاً انشغل في تصفحه في الوقتٍ هبط من العربة بعض أزلام السلطة يشدّون أشرطة حمراء على سواعدهم يُنزلون من صندوق السيارّة الخلفي خمسة شباب يافعين معصوبي الأعين ومكممّي الأفواه ومربوطي الأيدي إلى الوراء... شهقت امرأةٌ أربعينية وتراجعت تحاول الانسحاب من الحشد المُساق إجباراً مُحاولة الهرب؛ لكنَّ صيحات التهديد وأصوات أقسام البنادق فاجأتها من الخلف فتجمّدت.. تلميذ تفوّه حائراً:" ماذا يفعلون؟!". لا يفقه مثل الغالبية من الحضور سرَّ سوقهم من المدارس.. شُدَّ الشبابُ المعصوبون على جذوع النخلات؛ ثم قرأ حامل السجل ذو البدلة الكاكيّة كلماتٍ توصمهم بالخيانة. لحظات وانهال من خمسة حزبيين، صوّبوا بنادقهم بسرعة، زخٌّ هادرٌ من الرصاص... وفي تلك الليلة؛ بعد منتصف الليل تحديداً كانت سيارة "لاندروفر" بيضاء تتحرك في الدروب ثم تتوقف يهبط منها أناس مدنيون يطرقون أبواباً تتكدس الآهات في صدور ساكنيها يتم تسليم الجثث المثقّبة بصمت ويُطلب بتهديد مبطن أن يُدفع ثمن الرصاص الذي أختلس الأرواح، مع أمرٍ بأن لا تُسمع نأمةَ حُزن ولا تُنثر غيمة ألم.

تركنا النهر.. واقتفينا خطى الرصيف يقاطعنا صبية يعلو أصوات لعبهم وهم يتقاذفون كرة رما بها أحدهم فمرّت من بيننا خاطفة أثارت غضب كمال واستدار ليطالع إن كانت ارتطمت بأحدٍ. التفتُّ فإذا بها عند قدمي مُلاحِقنا.. ومثلما تظاهر في المرّة الأولى بانشغاله بما يعرضه بائع جوّال انشغل هذه المرّة بالكرة فتحرّك يركلها بقدمه ويتصنّع

ضحكة للصبي الذي انحنى لالتقاطها.

سيظل هذا الذئب يتعقّبنا وسيستمر يتشمّم رائحتنا. اقترح كمال الذهاب للمقهى فأعلنت رفضي متذرّعاً بضرورة العودة للبيت متعلّلاً بحاجةٍ ينبغي أداؤها.. لم يرد كمال ولم يُظهر اعتراضاً. رضخ صاغراً. عبرنا الشارع والجين شارع العيادة الشعبية. كفُّ كمال تتلمّس بين حين وآخر رسالة عبد الرحمن في جيب قميصه. سيصرف إيقاع ساعات هذه الليلة على إيقاع القراءة المستمرة لها، وبناء المشروع الأمثل من مشاريع الحلم.(كثيرة هي أحلامه، ووفيرة هي المخططّات لكنَّ التأزم لديه يكمن في انشداد الوالدين له وخوفهما عليه؛ هما اللذان لا يشجّعانه تلمّس أي مشروع فيه مفردات الفراق أو الرحيل بعيداً. كذلك أخوه الأكبر فؤاد لا يريد له الخروج ما وراء حدود الوطن لأنَّ ذلك سيطيح بمركزه التنظيمي وسيُحسَب من الذين لا يثق بهم الحزب. فالذي يبرح الوطن عدو؛ ومن كان لعضو الحزب قريب مهاجر يُعد عدوٌّ هو الآخر يستحق الاستئصال.).

واستمر يتعقّبك حتى وأنت تفترق عن كمال. يملأك الغضب وتحتدم في داخلك كل رعونة الأجداد وهوسهم. تتهاوى صروح صبرك بينما تتعالى مناسيب التحسّب وتتقافز نوابض التخيّلات والتهويمات.. تتخيّله يقترب منك حتى ليلتصق بقَفَاك ويهمس همسات الرعب الواعدة بالدمار. تلتفت فتلمحه على بعد عشرة أمتار أو عشرين. يتظاهر بأنّه عابر سبيل يخطو غير آبهٍ لما قد يبدر منك. إنّه يستند على جدار صلب من سلطة تمنحه القوّة والمواجهة. توحي له؛ بل وتُظهر عدم تكافؤ المعادلة؛ فالقبضة الأقوى والأمتن بيده، والأرض الرخوة الهشّة هي التي تقف عليها .. تدخل مقهى في الطريق لتبلل فماً تخشّب فيه

اللسان وجفّت مباعث ترطيبه. تلقي نظرة على الجلاس فتكتشف وجوهاً سارحة في تتبع أحجار الدومينو، فيما عيون تصطف في أحد التخوت تلاحق زاري طاولة يتقابل فيها رجلان عجوزان تعد النقاط السوداء في المستطيل الخشبي لتتحرك الأصابع لعدها تنقل أقراصاً من حيّزٍ لآخر .. تخرج لتبصره يتّخذ موقفاً يسهل من خلاله رصد فم المقهى. تقفز لمسمعك كلمات شهاب وتتسكب تلك النظرات المخضّبة بالرجاء والخوف والأمل بالمبارحة.

ما كنتَ خائفاً بقدر ما كنت محتشداً بإحساس أن الدنيا تضيق وأنَّ السعة الفضائية والمد الأرضي المُجسَّد بالطرق والأبنية والحركة الدائبة ما هي إلاّ أكذوبة تتراءى كأنها مُعاشة بحيادية تخلو من القسر، بينما يترك شعور العظمة واحساس السيطرة على الذمم والمقدّرات لأولئك القادمين من غياهب المجهول. من شاشات التلفاز وفي الصور الملونة؛ في المجلات يرسمون ابتسامات العار، ويطلقون متبجّحين ضحكات الوسامة المشوّهة؛ يومئون للتاريخ المتناسل بالغدر والطعن والانكفاء على أنّه حقب إشراق وتباهي فتوحات.

تعبر الشارع وتمر من جنب البناءِ المتعالي الذي كان يوما ما مبنى محطة القطارات القادمة من بغداد باتجاه البصرة وبالعكس فأحالوه بمجيئهم باراً كبيراً ومبغى يؤمه مسيّرو مقدّرات المدينة المنكوبة بمخابراتيين وحزبيين تربّوا على سلوكيات القتل المنظّم، شأنها شأن المدن الأخرى الصابرة الصاغرة.. تخطو وليس لكَ غير البيت ملاذاً. هو الوكر العاطر بأرائج الأمان.. ولكن هل يأمن الطير في عشٍّ تترصّده أحقاد الكواسر؟

(٧)

ما كان ذلك الصباح الخريفي عاديّاً؛ ما كان الاستيقاظ من عداد الخروج عن رحم الكوابيس. كانت الشمس تتولّى ذاتها الحرّة في صفاءٍ سماوي أزرق.. نهضتُ على أمل عدّ الدقائق وصولاً للزيارة التي حددّ ميعادها أنور حازم ظهراً.

أبرحُ الغرفةَ وأنزلُ هابطاً لأغتسل وأتناول فطوراً صباحياً وسط مفردات دعاءات أمّي بحياة هانئة لي ومستقرّة مبنية على ابتهالات ترتفع بها إلى الله ليتولّى ذلك.. أعودُ صاعداً متذكّراً تدوينات نجاة. أفتح الجارور واسحب حزمة الأوراق. أخرج إلى السطح اسحب كرسياً يضمني في شريط الفيء العريض، تداعبني أنسام ما بعد الثامنة؛ وأروح أقرأ.. تأخذ بي اعتلاجات روح وبوح قلب صوب أفكار وصور من عداد الخاطرة والإفضاء، ترتقي تارةً إلى الشعر وتتقهقر أخرى صوب النثر مسحوبة بالمباشرة المعهودة لدى التجارب الأولى في الكتابة. نصوص تحاول لملمة رؤى تشوبها العاطفة لفتاة لم تتجاوز الثامنة عشرة، وأمنيات ترتجي التحقق في غير أرضها وزمنها:

مثل لآلىء تفيض بالنور
أريد لقلبي أن يتفصَّد.
مثل أفقٍ رائقٍ
أسعى لأحلامي أن تفيق.
قُل لي أيها القابع في عيون الفنارات
متى تأتي سفني الراحلة؟..
عندما ودّعني القبطان قال:

انتظريني سآتيك مع الفجر.

وها أنا أرهف النظر

وأحث السمع،، لكن البحر

مدىً يعجُّ بالخلاء...

وأنا أنتظر....

هي إذاً مشروع كاتبة موهوبة بحاجةٍ إلى احتضان.. تتبنى المفارقة وتعتمد السرد. أمسكت القلم وكتبت خلاصة دهشتي المحنّاة بالنصح: " قراءاتك ينبغي أن تستمر وتأخذ منحاً تصاعدياً في اختيار الأفضل والأجمل وغير المألوف.. أنتِ مصباح يحتشد بالنور؛ لا تدعي الخمول والتقاعس يصمّغكِ في محطة واحدة. تحرّكي دائماً باتجاه محطّات الثقافة التي لا تنتهي. ستصبحين نجماً يُشار إليه وأعتزُّ بك؛ بل أفخر. ".. لكأن كلماتي هذه استحالت استهلالاً للبوح. لكأنها عصارة الروح سُكبت على الورق.. أستعيد ارتعاشة كفّها عندما تسللت أصابعي بلحظة جنون أو بلادة تتحسسّها؛ وأتملّى ذلك الخجل واللا احمرار اللين غزيا وجنتيها.. أتلذذ بطعم القبلة المسروقة برهافة روحينا، واسمع نداءً يتناهى من بعيد: خذني إليك!.. فأنده به: بل خذيني.. اعتقيني من هذا الوجود العاثر المحيط الملغّم.. ابعديني أيتها الصبية المائية من الحلبة المحاطة بالنار، المزروعة بالسكاكين. المجهول يترصد لخطى الآمال وأنت تعرفين!.. هبيني الشوق الصادح والعزم الأكيد. أخرجيني يا "إنانا" بأنسام خصبك من هذه الصحراء الدفينة؛ من نطاق البرابرة، من أقفاص الجريمة المدروسة لتدمير نهوضنا وشغفنا لاغتراف دفء الشمس وتشرب أنفاسها الضاحكة. خذي بيدي نحو جنان الطمأنة

والنجاة المستديمة.. ومن بعيد ألمحها تجمع سيول الدمع في قارورة المودَّة لتقدِّمها عربون حب أبدي؛ فيه أحلام السومريين واشراقات البابليين وفحوى طقوس الآشوريين... أخاطبها حزيناً موتوراً مقموعاً:

- إلى متى تبقى هذه الربوع مرتعاً لغدر؟!

- طالما ثمة يهوذا الإسخريوطي، وابن ملجم، وبروتس.

أتخيلها تنكس النظرات في جلسةٍ طقسية مؤثّرة، فتنشج.. يتقاطر دمع مطري على ظاهر كفيها المتعانقين. وأوشك على ارتشاف الدمع المتكاثف عندما يزعق في الفضاء طائر أبيض ناصع يستجدي لمحة حظٍّ تنقذه من نسرٍ كاسر يلاحقه سعياً للانقضاض فيخطأ، ويروح يعاود التحديق لإعادة الكرّة. كانت الأمنية أن أمسك بندقيةً أمزّق رأس العدوان،، ولكن الحنق المتفاقم أعادني بكف الحظ لكلمات نجاة تسائل الفنار عن حبيب غادر مع أول وعدٍ بالعودة.

نفسها الابتسامة الحييّة ؛ ذاته الوجه البشوش الذي استقبلني قبل ثلاثة أيام يعيد مفردات الترحاب ويأخذني بسعة القلب. لكأن الأعوام الخمسين منحته أعمدة الحكمة وسلّمته مراسيم الثقة الراسخة في الأعماق.. قادني إلى حيث المكان الذي ضمنا في لقائنا الأول.. كرسيان يتقابلان وفضاء حميمي ينث ذرّاته ليصنع ألفة جديدة. جلستُ أدنى الرفوف الثلاثة التي حوى رفّيها العلوي والوسطي كتباً لم تُمس منذ زمن كما هو الظاهر فيما فرغ الرف السفلي إلاّ من هواء.

لمح في النظرات قلق الانتظار وشغف وحيازة اللحظة الحاملة للنتائج فيما لمحتُ في بحري عينيه أمواج التفاؤل تتهادى وزوارق النجاة تنطلق... سألني بكلمات دُهشت لشاعريتها:

- هل عوَّقت غيوم الكدر خيول كتاباتك الصاهلة؟

جذبتني صورته المُعلّقة على الجدار خلفه وأمامي؛ متكِئاً على جذعِ نخلة سامقة تنحني باتجاه الفرات كأنها تهمُّ بنداء الرواء؛ أو أنها تروم إلقاء كلمة هامسة للنهر تبثّه لهفة سرمدية. ممتلِئاً بحيوية شباب أراد لأيامه أن تستحيل مشاريع كبرى يخدم من خلالها أهدافاً لا منتهية... يبتسم بكل مسارات الأمل، ويتفرّس في عين الكاميرا كأنّه يخاطبها: " سجّلي يا عين الزمان عظم الشوق الهاجع فينا، وأرِّخي فتوتنا المتماهية مع هذا النخل المتعالي والنهر الراكض باتجاه فيض النقاء.".. هل تنبأ بهذا الهول الذي هدَّ الطموحات وأقضَّ مضاجع النور؟. هل حسب هو والتيار الذي مرَّ في هيجانه أن ستكون النهاية بهذا القدر من المأساويّة والانطفاء؟

- هيئ نفسَكَ؛ ورتّب أمورك.

جاءت بارقةُ البهجةِ بمفرداتٍ مقتضبة؛ ونطق الفمُ بآيات الشمس طامرةً الظلام؛ والجةً مدارات الانعتاق... هل لو كان عمّي عباس حيّاً لأصبح كما هو أنور حازم الآن؟.. أكان سيتصرّف بهذه الشفّافية واللغة الماطرة ودّاً حييّاً وثقةً وحكمةً ووردأً وعسلاً، ونغماً يترك فيك إرثاً من التخيّلات الطرية المحلِّقة، متناسلةً انشراحاً ليصرِّح في الخاتمة: كُنْ متفائلاً وأنتَ تمشي على لظى الجمر؛ وإيّاك إيّاك أن تعرّي جرحك أمام فيروسات الأعداء المتربّصة لك بالشماتة والتشفّي السادي..

- سيأتيك الجواز غداً. ستسافر حال استلامك إيّاه إلى بغداد. ومن هناك مباشرةً تحجز مقعداً في الحافلة المتوجّهة إلى استنبول؛ ستتحرك الخامسة عصراً وفي الثالثة صباحاً ستجد نفسك في الأراضي التركية..

كان المفروض أن يكون اتجاهُك نحو دمشق كأقصر طريق لكن كما هو واضح لديك توترت العلاقات وعاد الرفاق الأعداء إلى عدائهم من جديد بعدما جهدوا في إذابة صقيع التناحرات فانبرت جهود عريان تطيح بكل آمال رفاق العقيدة... لا عليك ستكون الأراضي التركية أكثر أماناً لك. ستصل مرافيء الانفتاح على الحياة. ستعد المحطّات وتقتفي خطو المدن. ولكن لا ينبغي ترك الشعر فأنتَ موهوب ومؤثر. أسمع أشعارك على ألسنة الكثيرين.

تنسكب من العينين غيوم الزهو بي مثلما تتفاقم حشود الكدر:

– الرحمة لعمّك عباس. كان يرى في الشعر منشوراً مؤثراً يفوق المنشور المُحمَّل بالمصطلحات الأيدلوجية المُدوّية.... كنّا بعمرٍ واحد. نشأنا على إرهاصات عهد ملكي أخذ صكَّ وجوده من مستعمرٍ ناهضته جموعُ الناس ورفعت السلاح بوجههِ فاستعان بوجوه عربية نالت مرضاة الثائرين الذين كانوا بسطاءَ بتطلّعاتهم؛ وترك لمساته السلطوية وهيكلية نظامه فانبثق آنذاك ما يسمى بالبرلمان وممثلي الشعب وأُختير ملكاً نال القبول؛ غير أنَّ سفينة البلاد ظلّت تُسيَّر بكفٍّ عربية وعقل أجنبي اكتشف المثقفون ما وراءِ القناع الوطني فثارت ثائرة الأحزاب، سبقتها زمر ضباط أداروا بلا قواعد شعبية انقلابات التغيير. كنّا نحنُ الناهضين توّاً في الحياة نرى التظاهرات فنتساءل،، ومن ثم ندرك أنَّ الهياج الشعبي مردّه سلبية السلطات تجاه قضايا الوطن.

طارت نظراته إلى السقف. لمحتُ ملامح إشراق تنبثق على بشرة الوجه المنكمشة واسترخت التجاعيد والتكسّرات على جبهته العريضة التي تخلّى عنها الشعر الهاطل في الصورة المؤطّرة أمامي وهو يتكئ

على نخلة الشباب... قليلاً وعاد:

– تلك الأيام كنّا نلتقي أنا من الحي الشرقي وبيتنا هذا كان بمحاذاة بساتين تراجعت الآن كما ترى وحلّت محلها الأحياء جراء التوسّع. وكان بيت عمّك عباس في الحي الغربي قريباً من السوق الكبير. ولأنَّ المدرسة المتوسطة كانت واحدة في المدينة فقد جمعتنا، وجمعنا أيضاً صفٌ ضمَّ مرحلتنا.... آنذاك جاءنا مدرسٌ مسيحي يدرسنا التاريخ. يحب العربية والأدب مثلما هو مولعٌ في مجال الاختصاص. يكتب المقالات السياسية وينشرها؛ وكثيراً ما شاهدنا صورته في الصحف اليومية. أُعجبنا به واقتربنا إليه. صرنا نستعير منه ما ينشر ونروح نقرأ ونتباهى مباهاة طالب بأستاذ له هذه السمعة العابرة حدود مدينتنا الفراتية الصغيرة.

صمت.. ثم نهض. سحب علبةَ سجائرٍ من خزانةٍ صغيرة تجاور رف الكتب المحنّطة. استل منها سيجارةً واستعان بعود ثقابٍ يحرق لُبابة الروح ويدفع الدخان إلى استنهاض الذكرى الراكدة.

– لم يدم زهونا وانبهارنا وحفاوتنا به. فقد جاء من يحذّرنا بأنَّ مدرسنا الذي اخترناه مثالاً إنّما هو شخصٌ منبوذ طُرد منقولاً من بعقوبة إلى مدينتنا بسبب ميوله الشيوعية ومناهضته الدين والدولة، وما كتاباته هذه إلاّ تحريض على الفوضى وسعي لإبعاد الناس عن التشبّث بالوطن... ذلك ما أوقعنا في البلبلة والتردد؛ فالذي نراه منه عكس ما قيل عنه. كان يدلّنا على ما نريد أن نقرأ ويوجّهنا صوب الدراسات ذات الفائدة المتوافقة وأعمارنا. هو الذي دلّنا على " بوشكين " ودعانا بشدة لقراءته بعدما أعارنا مجلةً عربية حملت بعض صفحاتها ترجمةً لحياته

وأشعاره. أشاد بـ"والت ويتمان" الشاعر الأمريكي الأممّي؛ ثم انطلقنا نبحث عن رواية " كيف سقينا الفولاذ " بناءً على نصيحته، تابعنا بطلها "بافل" الصغير ونهوضه في مسيرة العمال النضالية. قرأنا " سلامة موسى " بإشارة منه متفاعلين مع كتاباته الداعية إلى تمزيق شرنقة التكلّس في قوقعة الذات والأعراف الزائفة... وشيئاً فشيئاً بتنا نرى الحياة لا يقتصر حدودها على المدينة والوطن، بل تعدّتها إلى آفاق العالم الرحيب. منذئذٍ تنامت لدينا روح النقد تجاه ما هو محيط ، اكتشفنا في الأفكار الأممية المنتشرة بسرّيةٍ تتجنّب العيون العدائية ما يتوافق وتطلعاتنا والقراءات؛ فألفينا أنفسنا ننتمي لتنظيمٍ يسعى لتوحيد العالم تحت راية العدالة والحرية وتكافؤ الفرص للجميع.

سمع ضربات خطى خفيفة فتوقّف. دخل علينا فتى يحمل صينية تحوي قدحي شاي: " هذا آخر العنقود؛ اسمه خالد جاء بعد ثلاث بنات وآخر قرار توقّف نشاطي التنظيمي مع الحزب. ".. قال.

ارتشفنا السائل الساخن وعدنا إلى هدير الذاكرة.. أشعل سيجارةً ثانية. بدا كأنّه يستعذب الحديث معي. أراد أن يزيدني إعجاباً بعمّي عبّاس:

– تلك الأيام كانت الأرض تغلي، فتمخض الغليان عن ثورة الرابع عشر من تموز. دخل الشعب في حمّى الشعارات وبين سياسيين غلبت على أفكارهم إقليمية وطائفية حاقدة، غذّى بعضها بواقي الاستعمار وتابعيه؛ وجه الشوفينية القبيح يطل على صباحات وطننا الناهض فمرض الوطن واستحال عليلاً، ويوم نهض صباحاً على أمل أن ينعم باسترخاء العطلة الأسبوعية من ذلك اليوم الرمضاني البارد فوجئ

بلقطاء الاستعمار يعودون بأقنعة قومية مُرائية فانطفأ الحلم؛ سقطت الثورة مضرجة بدماء القتل البارد. عمّت الغوغاء، وظهر للعيان يقين أنَّ التجارب تُقر أنَّ الأمنيات ليست عجينة نهيكلها كيفما نشاء، وإنَّ الشر يبقى أكثر دهاءً من الخير، فتكسّرت شموس الأماني واستحالت الشوارع لافتات للدم والآهات وتصفية الحسابات. جاءت وجوهٌ غريبة تطعنُ قلبَ الرغبات مدعومة بغيضِ المستعمر الذي خرج وتشفيه السَّادي.. في تلك الحقبة السخامية التي دامت تسعة أشهر سيقَ المتطلّعون للغد الأجمل نحو دهاليز التعذيب والإعدامات. اعتُقِلنا أنا وعمّك عباس في واحدة من غوغائية أفعالهم. وفي الوقت الذي ساعدني جسدي على الصمود والتحمّل ضعف جسد عمّكَ؛ لكن إرادته لم تلُن، فقد أبقى على أسرار ما يحتفظ به ولم يُريحهم، فلفظ الأنفاس مشنوقاً.

سحبَ آخر ما تبقّى من دخان سيجارته وطفقَ يدعكها في حوض المنفضة كأنّه يبغي سحق قاتليه ولو بنفثةِ غيظٍ أو شتيمةٍ دفينة:

– آه.. يا لخيانة القدر؛ مُسخوا بعد تسعة أشهر ليعودوا بعد خمس سنين... ومن جديد نثروا وباء الرعب وتصرفوا بسلوك المافيات. وها هُم بعد عشرة أعوام يجثمون على صدر الوطن.. والأدهى قفز عريان من خِضم القُمامة ليستحوذ على المقدَّرات وليلاحقكم أنتم شرف الوطن وفخاره.

كان ينتظر منّي التعليق وإبداء الرأي. كان راغباً في الدخول إلى نواصي الحديث الذي لا ينتهي. كان يبغي الإفضاء تحت شعور أنّي أفهمه وأُجاريه الرأي.. وكنت من صوبي منشدّاً للكلمات المتماسكة

الخالية من الإنشائية / البعيدة عن رسم البطولات الفارغة. كنت أرى فيه كياناً صدوقاً كنبي / نقياً كماء / شجاعاً كفارس.. لهذا توقفت مفرداتي عاجزة عن التعري والبوح... وحين قاس صمتي بأمتار انتظاره وانتهى أعاد الكلام:

– كما قلت لك، سيأتيك الجواز غداً.

خرجتُ متأرجحاً بين انشراح سيؤول إلى انعتاق، وتداعٍ صوّر لي عُظم أهوالٍ أقضّت مضاجع البلد وضخامة معاناة عاشتها الأجيال في عمر أيامنا.. تذكّرتُ بؤساً جسّده " فيكتور هيجو" لفقراء فرنسا بروايته " البؤساء "، واستعدتُ مظاهر قهرٍ عرضتها روايات " ديكنز " للمجتمع البريطاني. تتبّعتُ سيوف مجاعةٍ تطيح بشعوب افريقيا رامية بهم هياكل عظمية تثير الرثاء، مثلما استحضرتُ مشهد العربات الحكومية الهندية تجوب الطرقات صباح كل يوم لتجمع الموتى لافظي الأنفاس على الأرصفة جوعى، بلا مأوى، بلا ضمان، بلا أحلام تنتشلهم من واقعٍ كالصلصال.

(٩)

لم يأتِ ذلك اليوم ببشرى أنور حازم فقط، بل وأفشى فنجانَ سّره بحضور نجاة على غير موعدٍ... جاءت نجاة لتتأكّد إنْ كانت نسيت في زيارتها السابقة مجموعة النصوص أم سقطت دون دراية منها في الطريق.. لكأنّهُ الحضورُ الذي كنت أتمناه.. الأغنية التي انبثقت ساعةَ فرحٍ من ثنايا الذاكرة فقفزت على طرف اللسان تتراقص بحبورٍ هاطل... تأتي نجاة على كف الدهشة المُترعة بالشوق إلى الرجل

العائم في هُلام الحيرة. غاطساً يُلفي نفسه في غمار الشَّدَه. يتساءل من أينَ هجمت عليه كل هذه الأحداث غير المحسوبة؟ وكيف تكدَّست حيال وقتٍ لم يُعره انتباهاً: متابعة الكتابات؛ وملاحقة التحركات.. قلق رجلٍ ما خطرت بباله أن يلتقيه يوماً لقاء الزيارة البيتية وحديث الأمر الهام.. لقاء الترجّي في تجاوز خلل عبر طلب مساعدة أشبه بالمستحيل.. فتاة ما خطفت بوميض الرغبة حتّى في سيل الأحلام المارقة ساعات اليقظة. فتاة تأتي الآن رافلة على خميلة مشاعره لتقول الشعر وتفضي بطوايا القلب. تعرض فتنة العشرين عاماً لتقول له أنا أصغرك بعديد الأعوام لكنّي أكبر من تقديراتك لمشاعري، وأوسع من نظرتكَ لحبّي لربوع الأدب.

يدعوها صعوداً إلى غرفته؛ فالأمّ خارج البيت، في زيارةٍ لابنتها المتزوجة في الصوب الثاني من المدينة. اتصلَت بها يوم أمس معربةً عن اشتياقها وعارضةً حاجتها للزيارة. والأم لا تقول " لا " عندما يتعلّق الأمر بابنةٍ تطلب بلسانها الحضور، فلا بدَّ من أمر يستدعي ذلك؛؛ وحتى لو لم يكن الأمر مُلحّاً فالاشتياق واجب والتواصل سمة العائلة الموشومة بالحنين والسؤال الدائم عن الحال. كذلك ما تريد أن تبوح به الأم عمّا يحدث من سرقات وأعمال مثيرة للشك وغير معهودة تكتشفها يومياً.

تدخل غرفته فتروح العينان تجوسان المحتوى.. ترحب بها المنضدة (حومة التدوين)؛ يستقبلها من عليها كدسُ كتبٍ (مؤجَّلة القراءة) ترتكن جانباً فيما تتوسط سطحها أوراقٌ بيض لم يدوَّن عليها حِبر القلب. يُلفت اهتمامها أوراقٌ زرق؛ حين دنت عرفت خطّها فأدركت أنها أوراق القلق

الذي استدعاها للحضور. رأت ثمّة خطوطاً حمراً وإشاراتٍ دائريةً خُطَّت ورُسِمت تحت أسطرها. هذا يعني أنّه قرأها وأبدى ما يرتأيه فيها.

خزانة الملابس واجهتها عندما رفعت الأنظار؛ وعندما استدارت شاهدت قوامها مختوماً على المرآة البيضوية المؤطرة بصاج فحمي محفور، على يمينه يحتل سرير عريض وواسع انتصب على الجزء المتمم له مصباح منضدي يحني قامته وينحاز بوجهه الضوئي إلى الوسادة النائمة عرفت أنه يستعين به للمطالعة متمدّداً على السرير.

- كيف رأيت نصوصي؟

- أحلاماً ورؤى تتجسّد على الورق.. لغة رائقة بأسلوب يتوخّى شفافية الأنثى، وتطلُّع يتوجه لخوارق القوى يناشدها أن تحمله إلى جزر تحقيق الرغبات.

تفتحت ملامحُها اندهاشاً.. طارت حمائمُ الزهو من بين رموش عينيها:

- هذه رؤية نقدية أم شعر؟

- بل الذي كتبته لكِ بعد المطالعة.. خذي النصوص واقرأي فقد عرضت انطباعاتي، ولكِ أن تتقبَّلي أو ترفضي.

ترفع الأوراق بأصابع ريشية متهجّسة فيتملاّها بنظرات اختباريّة متفحصة: رشاقة فتية ناهضة وبشرة تعدو فوقها أجنحة الرهافة. لدانة تختزن مكوّنات اللذّة وقسمات تجمع هندسة التوازن المُثير. يتهدّل شعرُها الحنّي مُسترسِلاً يقاوم التموّج بلا اقتدار فيهطل على الكتفين بمشاكسةٍ ظاهرة يمنح انطباعاً يقول: هذه فتاة تستحم بالنزق في بحيرةِ الشبق المجنون. وجهُها المتجاوز الاستدارة / الرافض الاستطالة

تتساوق على جغرافيته جبهةٌ عريضة أخفى علوّها خطُ الشعر الهابط مُشكّلاً استواءً عرضياً خطّته مِسطرة الجمال. وللعينان وجودُهما المتّسع يضمّان قرصين شمسيين أصفرين يتناغَى رمشاهما الأسفلين مع حُمرة الوجنتين البارزتين وهما يجاوران فَماً اختلجت شفتاه الآن تُتمتِمان بما دوِّن على الورق.

- أنا لا أقرأ انطباعات؛ أنا أقرأ نصوصاً.
- هذا ما تقوله المدارسُ الحديثة. فكلُّ نصٍّ يُقرأ يولِّد نصّاً جديداً.
- ولكنك بانطباعاتك هُنا تتنبأ لي بالقص أكثرَ من الشعر؟
- هذا ما أراه. فلديكِ روحٌ سارد أكثر سعةً من فضاءِ الشعر.

انتفض الصدرُ بعد شهيقٍ الانشراح فاندفعت قِمّتا النهدين يزاحمان رخاوةَ القميص كما لو كانتا تبغيان الانتفاض وتقصّفت الأغصانُ من تزاحمِ ورود القميص المتجيّشة بالألوان الفاقعة ، لكنَّ " التنورة " ظلّت تتشبث بالبطن الضامر؛ استمرت تخفي الركبتين تاركةً الساقين يعجّان بامتلائهما.

أرى قلقاً يملأ عينيها بغتةً مُزيحاً أكداسَ الحبور الذي توالد جرّاء اللقاء والرأي الذي يهب مفتاحاً لولوج عالم الكتابة الأرحب.. عالم البوح بلا مواربة، والإفشاء بلا كبت.. هذه فتاة تخشى الفرح وتتطيَّر من سحب البهجة.. عاطفية تتنبأ أنَّ بعدَ كلِّ ضحكةٍ ستتقدّم عواطف كمد. وغب كل قهقهة تندلع أعاصير كدر.. هكذا هم حاملو الوعي، قارئون للخاتمات / متنبئون للكوارث. يدركون أنَّ الحياةَ دهاءٌ، وأنَّ وجودَهم على أديمها عبث.

أرسم ابتسامة مصطنعة لتبديد التوتر، فتكتشفها:

- خائفة عليك.. شاعر أنت بحق، وكبير. يُفترض أن تُعلى علماً يُحتفى بك.

- لا علمَ في تضاريس البغض؛ ولا سارية في سهوب الساديّة.. هنا لا قامة تعلو فوق قامة عريان. هذا شعارهم الظاهر والدفين.

- أمس سمعت أبي يفشي قلقاً عليك؛ وأسمع أمي تتأسّى وتتّمتم لئلاّ يسمعها: ما هذه المصيبة الواقعة على الناس. لعنَ الله السياسة وأبادَ الإنكليز؛ يخرجون من الباب ليعودوا من الشبآك.

على وشك أن تقفز الدموع من عينيها؛ على وشك أن تنفجر.. تقرأ الاحتدام في وجهها الذي احتقن بانفعال أقرب إلى الهستيريا، فتدنو منها تضمّها إلى صدرك. تقيس رجفةً سرت في أوصالها، وتخفّف من الارتعاش تقيس رجفةً سرت في أوصالها وتخفّف من الارتعاش. هكذا عندما تغيبُ أو تُغيَّب النفوس الطاهرة عمداً ينهض التجنّي من تلافيف العَسَف. كم من مصابيحٍ للنور أُطفِئت قَسراً في مسار البشرية؟!.. وكم من أعلام للبراءة دُكَّت بمجانيق الفُحش.. وتروح تجهش.. لا، يا نجاة. لا يجب أن تكوني بهذا القدر من الحساسيّة. لا ينبغي استدعاء هذا القدر المدمِّر من التشاؤم.

وتسمع من بين ثنايا نشيجها:

- يضمرون لك شرّاً؛ وقد يقتلوك.

تجمع مفردات الطمأنة؛ تنثرها على مسمعها:

- لا تذهبي بعيداً. فأنا ليس جنرالاً يتوجسون تخطيطه لاجتثاثهم، ولا حشداً عسكرياً يتربص بهم. أنا كاتب ليس لي سوى الكلمات.

ترفع رأسها محاولةً الرد على رأي فيه بلادةٌ وبرود لا تريدهما

صفتان لي.

– هؤلاء لا يفرّقون. الكلُّ حيالهم أعداء لا يأمنون بغير قتلهم. لا، بل أنتم الأدباء والمثقفون أخطر عليهم من الجيوش. يرون في الجيش معركة بإمكانهم الانتصار أو الهزيمة لمرة أو مرتين؛ لكنهم يرون فيكم صوت التاريخ الذي يدينهم على مرِّ العصور.

جملتها المشحونة بالرؤيا والصدق حفّزتك على ضرورة التضئيل من إحساسها الثائر.. أنتَ تدرك كل ما قالته وقد تقارب في هذه الأمور كثيراً مع كمال وخلصا إلى هذه النتيجة.. وبغية إبعاد غمامات الكدر عن روحها ابتسمتَ؛؛ ومن جديد ضممتها إلى صدركَ، ودفعت برأسها ليسترخي على كتفك.. وشرعت بهدوء الواثق تبوح:

– غداً مساءاً إذا سار الأمر حسب المخطط سأستلم الجواز وبعد غد ظهراً سأكون خارج المدينة باتجاه بغداد، وصباح بعد غد سأتصل بك في البيت أعلمكِ أنني خارج العراق وقد انتهى فصل الكابوس الذي ترجرجت في ضبابيّته وماجت جميع النفوس الوجلة، الحائرة.. سينتهي، يا نجاة.

بين ملامح التصديق وعلامات عدمه.. بين جموع الدهشة وتوالدات الأسئلة قطبت حاجبيها في مسعى لمعرفة ما قلت.

في لحظات الضيق، وساعات الضَّنَك، وأيام الضياع البشري والبحث عن النجاة ترتفع الأكف: ترجو وتستغيث / تتضرّع وتجثو / تخشع وتتأمَّل؛ تلهثُ صارخةً أنْ تعالَ يا مُخلّص. فتنتظر.. تنتظر.. تنتظر. وها هي نجاة تنتظر تأكيد ما قلُتُ. ما كانت موقنة بكلامي؛ ولا هي مُصدّقة نفسها. وعندما أكّدتُ لها اعتماداً على القَسَم والكلمة

الصادقة التي جمعتنا. رفعت رأسها من كتفي فجاءتها أفراح الأعياد؛ ودنت منها زغاريد الأعراس.. طبول نقَرت ودفوف ضرَبَت، وصنوج توالت إيقاعاتها الصادرة من برونز لمّاع. وعلى صدى التوافقات علا هدير أصوات رخيمة.. تقول لي: أسمعُ وأرى، فهل ترى أنتَ وتسمع؟!.. أقول: أسمعُ ماذا؛ وأرى ماذا؟!... تفرد ذراعيها؛ ولأول مرّة أجدها تضّمني مرددّةً: سآخذك إلى مرافيء القلب. سأجعلكَ تعيش هناك حتّى لو لم تشأ.

- هل تعرف إنانا؟... سألتني.

- آلهة الخصب لدى السومريين.

- سأكون أنا..

سحبت حزمةَ الأوراق واستدارت.. وكما لو أنها تذكّرت شيئاً. فتحت حقيبتها الصغيرة. أخرجت أوراقاً:

- فيها بعض ما كتبت بحقّك.

تطلّعت بوجهي تروم حصادَ ردّة فعلي؛ ثم طبعت قبلةً خاطفة على خدّي:

- هيّا؛ انصرف الوقت سريعاً. عليَّ أن أعود. لا تدري كم سيكون عظم ارتياح أبي لو أنك خرجتَ.

- إلى أين؟!

- سآتيك غداً قبل مغيب الشمس. ستتكرّس بهجتي وأقبض على حزمة ثلج تبدد الحرائق هنا - وأشارت إلى قلبها - لو أنك عرضت الجواز أمامي.

تركتني / نزلت السلّم خارجة. لم تدعني ألحق بها للوداع، بل

سمعت الباب الخارجي يُغلق وتصل إلى قرارات فحوى الجملة التي قالتها. فإينانا آلهة الخصب والنماء. هي إذاً مقبلة على فعلٍ ستؤدّيه أو عهدٍ ستبصمه بحبر القلب. لكأنَّ هذه الفتاة منذورة من قوّة كونية خارقة دفعتها لحلبة الروح لتستحيل قصيدة طويلة لها امتداد أعوام لا تنتهي.

ما كنتُ مدركاً أول الأمر أنَّ مخلوقةً بهذا الامتزاج والاختلاط من اللظى والصقيع / الهدوء والعنف / القلق والطمأنينة / العاطفة المرهفة والغضب العنيف ستقتحم حياتي بهذه الرغبة.. ما كنتُ موعوداً بفرضية التصاقها بي كما حتميّة انشدادي إليها.. هذه الكتلة الروحية الآتية من ما وراء فيوض الحلم تستحيل حقيقةً على الضوء المتسلل من جنب الستارة المسحوبة للنافذة أتأمل وجهها فأقيس الصفاء وأحسب مقدار البراءة. أدخل في عملية حساب الأخماس والأسداس فأخرج بنتيجة أنها قدرَي، وأنها التي لا ينبغي التفريط بها. عروس البحر خرجت لصيّادٍ ألفى وجوده وسط هياج البحر وعنفه / في جنون التحسب للمجهول وفوضى القلق الأرعن. صحيح أنها لا تمد يد العون لتنتشله إلى شاطئ السلامة الناجزة لكنها ستنتصب المساعد المحرّض على الصمود / صورة الأمل الطارد لشبح اليأس / الأنيس المبدد لوحشة المجهول / النجمة المضيئة حيّزاً من ظلام الجزع.

هبطتُ نازلاً.. أدخل الحمام لأحلق لحيةً تكاثفت بعدما نالت إهمالاً وأُبدد تراكماتٍ رغاوي ساخنة: تكاثفت بحجم ثقل الأيام القليلة الماضية / ساحت في حواري الجسد وطرقاته.. أرجاء البيت يعمّه صمتٌ متناسل إلاّ من رذاذ هذا "الدوش" يعلو مجسداً احتفالية ساعة ممطرة تغسل يباب أرض أنهكها العطش.

(١٠)

"إيقاعات الرماد"

كان هذا آخر نصٍّ يُنشر لي قبل مبارحتي الوطن. لفت انتباهي حشره في زاوية مهملة مع أنّه من النصوص نائلة الاعتداد؛ كانت ذائقة من اطلعوا عليه منبهرة، تلقّفوه قبل نشره وحفظ عن ظهرِ قلب لما فيه من حداثة وجرأة لغوية تتجاوز المألوف.

عرض كمالُ استغرابه وهو ينشر أمامي الصفحة الثقافية، متحاملاً على غباء مسؤول الصفحة وعد فهمه للنص.

– لا.. لا يمكن حدوث هذا. مسؤول الصفحة شاعرٌ يقدّر باعتزاز نتاجاتي؛ لكن ثمة قصدية واضحة هنا. رسالة مبطنة للإيذاء.

– أي إيذاءٍ تقصد؟!

– مثلما حطّموا عبد الرحمن ودفعوه للهرب؛ وكما هدّموا فيك جموحك الفني وإبداعك الفائر يعملون الآن على تحطيمي.

سُحبُ الإبهام تراكمت في عينيه. ومن الأفق البعيد قدمت طيور الحيرة تنثر الاستفهامات على السحنة التي تكدّرت:

– كنت البعيد عنهم في نظري. فهل بدأ زحفهم الشيطاني لالتهامك؟!

"يا زورقي طر بي! ". قفزت روح بوشكين تنطق بوحها على لساني مفصحةً ألماً وتقاسيم دواخل تتلظّى على نار تحتدم بالغيض وفخاخ مبثوثة للترصّد.

* * *

في المقهى..

لا أحاديث تترجم الألفة؛ لا حوارات. ليس إلاّ الصمت.. الوجوه صحائف تقول تهجّسات تفضحها أبجديات هذا الصمت. العيون المزروعة تتغلغل في الزحام لتمتص ما يرشَح من النظرات لتحيلها كلمات تحتويها التقارير الرمادية الانطباع بغية إنتاج البغض المتوالد ليأخذ وجهته بسكاكين التشفّي لطعن البراءة الفتية لجموع هذا الشعب المُبتلى.. ألمح عيناً تتحرك مجسّاتها تتابع تقاسيم الغضب المتلظية على وجه كمال، ورياح الامتعاض المندفعة من بواعث إدانتي لوضاعة صنيعهم. ألمحها تغرز حدقاتها اللاهثة لتبيان عنوان الجريدة التي بيدي ومصدرها. ولقد لمعت عيونه المركبة لهذا الاكتشاف. سيكتب أنها جريدة متسللة من ما وراء سواترهم المخابراتية. وسيظن أنّه اكتشاف سينال مقابلة التبجيل المعنوي والمكافأة المادية السخيّة.

طويتها قصداً وأبديت اهتمامي بإخفائها بين كتابين كان كما يحملهما ما جعل العين المركّبة تتوفَّز لمعرفة المجهول فتنهض على أرجل الفضول التي بلا عدد.

– أبحث عن موضوع يهمّني. هلاّ أعرتني الجريدة.

احتشدت سحب دخان الأراجيل، وتراجع سقف المقهى علوّاً. نعبت جموع الغربان، واصطفقت أجنحة الخفافيش. تهاطلت أرجل الأبالسة تركل خاصرة المطر لتنشر اليباب.

– جريدة محلية يمكنك شراءها من المكتبة وتصفحها عندما تخرج.

لم يتوقع الرد.. تراجعت عيونه المركبة مطفأةً؛ لكن رائحة الغضب والشعور بالإهانة شاعت متفجِّرة كما لو كانت تصدر من مؤخرات

ضباع هائجة.

كذلك لك لم يتوقع كمال الرد.

عندما خرجنا أبحثُ له بكل ما مرَّ وما حدث. أفشيت بما خططّت وبما وِعِدت.

- لم أشأ تخديش مشاعرك فأنت حسّاس ومرهف؛ ذقتَ إرهابهم. احتفظت بما حدث. طمرته بسريّةٍ؛ وما جرى أمامك قبل قليل دعاني للإفصاح.. عندما تلتفت الآن ستلمح الذي نهرته يلاحقنا.

انبثق الصمت حاجزاً أتاح لكمال التطلع في وجهي ليقيس سعة صلابتي وتجلّدي على ما مرَّ قبل أن يتلقّى طلبي:

- أحتاج لعنوان عبد الرحمن. سأمرُّ عليك في مكان عملك غداً، ومن هناك سيكون وداعنا.

وقفنا عند مفترق الطريق للوداع.. رفع كمال نظراته:

- كنتَ على حق.. إنه يقف هناك؛ يتظاهر بالتطلّع للافتة عيادة طب الأسنان.

(١١)

لم يكن وفياً فقط، بل ومتواضعاً. استقبلته أمّي بشغف الإخاء . سألته عن الزوجة والأولاد. سألَتهُ أسئلةً المودّة وراحت تفوه بثقل المسؤوليات. شرحت له كيف ذهبت إلى ابنتها / أختي. وكيف صرفت اليومين الفائتين تقضي لها بعض الحاجات وتوجهها نحو مفارق السير الصحيح والعمل المجدي للزوج والأولاد. طفقت تتحدّ عن الأمان المفقود والنفوس الوجلة والأحداث الغريبة الراقصة على ألسنة الناس

تقص فصول الخوف.

- تصوّر يا أنور؛ رحت أشتكي لها عمّا حدث معنا من سرقة ملابس معلقة على حبل الغسيل فإذا هي تفتح فمها اندهاشاً فتقول هذا ما حدث لنا يا أمّي، فقد سرقوا قمصان زوجي كريم. وعندما أبحت لها عن رنين الهاتف غير المنقطع أكدت ذات الفعل. ألم أقل لك الدنيا تغيرت.

يمرر أنور حازم نظرة خاطفة كما لو كانت برقية تعلمني بنواياهم السيّئة وأفعالهم الوضيعة الغادرة. يبتسم محولاً تقليل ثقل الكَدَر:

- لا تتطيّري، يا أم مبدر. هذه أشياء بسيطة لا ندعها تشغل البال. الذين يسرقون لابد أن الحاجة تدفعهم لذلك؛ أمّا رنين الهاتف فيأتي بسبب عبث أطفال يحاولون التندّر ويجدون في الهاتف لعبةً .

وهي تجرجر نفسها لتُعد ما ستقدمه للرجل الضيف:

- نرجو ذلك... وبتمتمة فيها كثير من الشك تواصل: لكننا لم نشهد هذا من قبل. لم يحصل أن رأيناه.

- أرأيت؟!.. اندفع فمي يطلق مفردة عرض الحال.

فجاءِ الرد غيض تنفثه الكلمات:

- أولئك نزيف دائم سيقوَض قامة الوطن ولن يتركوه إلاّ عليلاً يوشك على لفظ الأنفاس.

لم أعلّق.. خروج أمّي أتاح لي الوقت لأجني ردَّ أنور حازم. هل جاء ليعلن البشارة أم قدِم ليرمي بوجهي بالونات الإخفاق، متعللاً بأعذارٍ ومُعيقات، راسماً مواعيدَ هي من عِداد البقاء على انتصاب شجرة الكبرياء والاعتداد. أرى إلى الوجه المليء بمسوح الثقة، وإلى اليد

إلـي امتـدت إلـى جيـب البنطلـون الخلفـي لتسـتل مظروفـاً حـوى بواعـث الابتهاج.

- خذ.. وفاءً لعمِّك عباس وشعوراً مني بالخوف عليك. لا أريدك أن تتحطّم كما تحطّمنا. بل أريدكُ طيراً تحلق في سماء الحرية .

قالها بحنان فائق، ولم يمر بخاطري أن أراه بهذه العاطفة الجيّاشة التـي ترتقـي لمصـاف حنـان الابـوّة. لـم يمـر بخلـدي قيـاس هـذه الرقّـة المتراغيـة تكبـر وتكبـر لتضـمّني بأنفاسـها الدافئـة. تراجـع الحـزم والجَلَـد ومكابرة كانت تطفح من عينيه تجسّدها سحنة وجهه وحركات يديه وهما ترتفعان بعصبية لتعرضان انفعالاته الراهصة على أسطح الكراهية لقتلة الاحلام.

لمحتُ الكفَّ الحاملة للجواز ترتعش أصابعها، تقبض عليه كأنها لا تبغي منحي بوليصة الضياع بالابتعاد عن مرابع الأهل.

- أظن أنك مستعد للسفر ولا يوجد ما يتسبب في تأخرك. سافر غداً كمـا اتفقنـا واتصـل بـي مـن أيـة منطقـة آمنـة خـارج البلـد. تهمّنـي سلامة وصولك.

أمسكُ الجواز بيدي.. أستدعي زغاريد النسوة المحتفيات بـالأعراس ومناسـبات الألفـة الهاتفـة.. أينهـا الآن تلـك الزغاريـد التـي لا تخشـى التكلّف فتنطلق صادقة، منفتحة.. أنده بالعصافير المحتشدة في السدرة المتعاليـة مـن حديقـة البيـت المقابـل لنـا أن تـأتي، تـدور حـولي تمـارس كركرات الجذل.. أهتف بالشمس التي انسحبت تجر شالها الذهبي من علـى الأسـطح والبنايـات أن تتوقَّـف لتمنحنـي قبلـة الانتصـار علـى الخيبـة.. أتطلّـع فـي سـاعة الجـدار وأنثـر الوقـت بدقائقـه علـى قارعـة

انتظاري لنجاة. أين هي الآن. متى يرن جرس الباب ليعلن القدوم؛ وهل أنا ممّن يمتلكون الصبر رصيداً أزلياً للهيمنة على الأقدار؟ كيف يمكن للاعبٍ لم يقتنِ ساعة الاستعداد ولم يُسأل عن قدرة تحمّل صدام المفاجآت أن يقف نداً. قُذِفَ به إلى حلبة صراع وقيل له اقبض على لؤلؤة الرجاءات واعلن قهقهاتك انفجاريةً في مفازات الصمت وبريّة التنصّت. اجتز ألغام اللحظات المشحونة بالغيظ وصولاً للكوكب الدُرّي.

اندفعتَ إلى الهاتف ولأول مرّة قررتَ الاتصال فأدرتَ قرص الأرقام تستخرجها من دليل الهاتف.. صوت نسوي هو مَن رد:"نعم.. من المتكلم؟" وما ميّزتَ صاحبة الصوت. هل كان لنجاة أم لأمّها، أم لضيفة أثارها الفضول فنهضت تتسمّع؛ أم أنت أخطأت الطلب فجاء الرد من صوتٍ آخر ما قصدته؟

أخذتك بغتة مراجعة تأرجحت بحبال سطوتها بين الانشراح والتهجّس، عائماً في غيوم هلامية تجعلك طائراً بين سمت التفاؤل ويباب الانشداه. اندفعت تقلّب صفحات الجواز كأنك تبحث عن فخٍّ ربّما نُصب لك تحت ثرى الصفحات ومُرر عن طريق نقاء نيّة هذا الرجل في إنقاذك.. تُحدِّق متفرساً في الكلمات المدوَّنة وخطوط الأختام المضروبة. تتفحّص اسمك إنْ كان يضمُّ خطأً في حرفٍ أو حذفٍ في نقطة ستعيدك إلى بوّابة الدوّامة التي انطلقت منها هارباً.. عُدت إلى الهاتف لإعادة المحاولة عندما رنَّ جرس الباب.

بأصابع القلب سحبتَ المزلاج..

قسماتها النضِرة تكسوها سحابة شحوب، وسيماء قلق ظاهر يشي بساعات وجل صرَفتْها على أثافي لظى الانتظار. لم تفعل حمرة

القميص ولمعانه فعلهما على سهوب وجهها الموشاة بلون حيادي جامدٍ.. تحدِّق في وجهك كأنها ترشقه بسؤالٍ برقي تنتظر إجابته الوامضة قبل إلقاء تحية اللقاء.

- تفضّلي.

العينان اتسعتا آفاقاً لا تُحد، الفم انفرج ففرّق شفتان مختلجتان. وبومضةٍ طرد نظراتها كلَّ خفافيش الكدر مستدعيةً فراشات انبثقت من بين صفحات الجواز وهي تمسكه؛ تتطلّع فيه؛ تتصفّحه وتقلّب أوراقه.

أغلقت الباب الخارجي واستدرت داخلاً. لم تسمع صوتاً لأمّكَ؛ لذلك قادتكما الخطى نحو السلم / إلى الغرفة وهي لمّا تزل تتصفّحه. ولحظة هممتَ بإشعال ضوء المصباح منعتك قائلة: هكذا أفضل!.. لماذا أفضل أيتها القادمة تحملين من تخوم المشاعر المستوفَزة باقات هناءة البال، ترسمين باباً للألق وتأخذين بيدي كما صبي غرٍّ فتهمسين بنغم الرضا: أدخُل. لماذا أفضل وأنا المهووس بتخمة الشعر وحنين الأم وفراق الصديق وقمع الرفيق وجنون هذي الفتاة التي خلقت لتكون صنوَ فتاة الحلم؛ بل مزيحتها... تهمُ بسؤالها العلني فتلفيها مستمرةً في التفرّس والقراءة كما لو كانت تبغي إرضاء دواخلها التي كانت يائسة، وقلبها الذي استمر مزحوماً بشك التحقق.

- الآن أيقنتُ أنَّ فأل الخطوة الأولى مفرحٌ، وأنّه سيقود للانتهاء من مسيرة الألف ميل. الآن أشعر يا مبدر بأن اليأس له هالة كاذبة تثير فينا رغوة الإحباط. وإن ووجه بالصلابة والثقة، قطعاً ستتهاوى الهالة والرغوة معاً. أنا الآن مشحونة بالأمل، وأنت مفعم بيقين النجاة.

تجمع حشود الكلمات والأماني لتعرض سيلَ تهانيها، وترسم ديباجةَ

سرورِها؛ وسرعان ما تغلّفت عيناها بدمعٍ طفح سريعاً وسال على وجنتين ستحتاجان لوقتٍ كي ما تستبدلا غيوم الصفرة الطارئة.

تندفع إليها؛ يضمّها قلبُك إلى تخوم حنينه فيعانق ضرباتِ قلبها. يروحان في مؤانسةٍ حييّة، طليقان يندفعان رشْقاً في رحلة إدراك المدى واغتراف شغف الأثير المنفتح.."أبداً لن يموت شيءٌ من الروح الكامنة في قيثارتي المقدَّسة. تبعث بترابي حيّاً، نضِراً." هل أنتَ بوشكين لتهتف بهذا النشيد الخالد، وتُعلن التحدّي؟ تُسابق القانون الأزلي للوجود وتنهض من موتكِ لتبتسم لبائعة الأزهار، ثم تهديها نصّك الذي ستقرأهُ مقهقهةً، محلّقة على سُحابة من جذل، ومندهشة لتوصيفٍ يُعطّره الرومانس.

تشتري لها عبارات الطمأنة وأنت تجفف سيل الياقوت المنسكب:

– اطمئني، يا نجاة. كل شيء سيزول. غمامات الرماد تحتاج لصبرٍ حتى تنقشع؛ والإنسانُ هلوع يخشى الانسحاق.

ترفع رأسها لتقرأ هدوءك أو لتعرب عن غرابتها لهذا الرد الخارج من روحٍ لا تقّر قسوة الموقف... لا تريد لهذه الفراشة الدافئة أن تغرق في بحيرة أحزان ليست لها، وقيادة زورق عذاب في نهرٍ تعكّره رياح التجنّي.

نجاة هذه المفعمة بالعذوبة وغمَر الرهافة تقف إزاءك لتجسّد لهفة فتاةٍ ربطت تطلّعاتها بمصير حالمٍ آثر العبث... تنهض صباحاً لتؤدي دور الطالبة التي تعد نفسها لولوج الحياة الجامعية بكل الجموح والإرهاصات؛ بكل السعي لإثبات الذات بغية الخروج بقامةٍ واثقة سامقة وسلاح علمي قادر على مواجهة التقلّبات المسحوبة لهيمنة الأعراف.

تنهض مدفوعة برغبة أداء الواجبات، وتسعى لتلبية حاجات تتراغى في الأعماق، جائشة في غمار حمّى التعبير عن الآمال. تحفظ الشعر وتقوله / تصف الشمس وتترجمها / تحاور القمر وتمسك بتلابيب بريقه؛ ثم تريد لك أن لا تلتقي المصائد فتسقط في حلبة أذرعها المقيتة. تتمنى لك الخلاص من هول العاصفة التي تلوح طافحة / مجنونة ستكتسح مرابع طموحاتك وتقوّض انشاءات انجازاتك البهيّة، مطيحةً بابداعات لسانك المختزن شعراً يستعذبه الكثيرون.

تدنو منّي..

أدنو منه.. أقيس سعة البريق المتفاقم في حدقتي عينيه. أقرأ اشراقات الضوء الذي يتغلغل عمقاً في سهوب روحه الغامرة بالأحاسيس، السابحة بالألق. ألمسها.. وعلى رهافة أنفاسه المتلاحقة أترك مجسّات شمّي تصطاد نسيم الذوبان.

تلتصق بي..

ألتصق به.. أترك لاندفاعات الذات تأخذ بوحها في التعبير، ولنداء القلب يترجم فحوى العاطفة. أشمُّ من عنقه نزوتي، وأقطف من رياحين صدره الذي تركت لي أزرار قميصه العليا فسحةً لرحيل شفتي وسَوحهما على الجانبين أو تحركهما نزولاً.

أرفع رأسها لأتملّى الملامح المتباهية بتناسق الأبعاد: سعة العينين وتقويسة الحاجبين / تسليطة الأنف وتجانس الشفتين / انبعاج الخدّين وتدبيبة الحنك. ينده بي عنقها فأحاوره باللثم؛ وتنده بأذني تُهطل في قمعها مطر الهمس والآه المتكرر، ومفردة النغم المحبب: حبيبي.. حبيب.. حب.. آه.. آ. تتلوّى كسويقة حبق، وتتهصر كغصين زهرة

لـوتس.. آ.. أصـابعه تزحـف مـن تـاجَي كتفـيَّ هبوطـاً. تفـرك أزرار قميصـي فأفـكّ أزرار قميصـها.. يُنـزل إبـزيم تنّـورتي؛ ينفـرج.. أُحسّـها تتهاوى رخيةً عند قدمي. ردّة فعلها متأرجحة / رفضها يبدأ متردداً، شيئاً ويتراجع متقهقراً. تترك لـي حريّـة التحرّك.. أخلـع ما تبقّى من معيقات الجسـد، وأزيـل الحصـونَ والموانـع المتخفيّـة وراءهـا الكنـوز. أنحنـي فأرفعها... ينحني؛ وبيديه الحانيتين وكفّيه المُشتهاتين يرفعني. يهبط بي علـى السرير. لا أرى منـه إلاّ القوام. العتمـة التـي دبّت فوشّت الغرفـة بحلكتها غيّبت تفاصيل جسده. ارتمى يشاركني السرير... كان جسدها ساخناً. كان ساخناً. جسدانا يتقاربان فيلتصقان. انكماش حييٌّ وارتعاش خجول يكتسحان أعضاءها. كفُّها المرتعش بانخذالٍ يباغت نشوتي.. آ، نجاة؛ أنتِ خائفة!... لم تكن نزوة. لا! ولا رغبة في ممارسة فعلٍ، إنّما أردته يتشبّع برائحتي. يُعانق جسدي كي ما تتغلغل تضاريسه في دروب ذاكرته. سيرحل ويغيب؛ ولا بدَّ من أن يأخذ معه ذكرى. أريده أن ينهل من رياض جسدي؛ يسافر بين محطّات الروح؛ يُعانق نسيم ثراي ويحلّق فـي فضـاءات أصـقاع لهفتـي ليبقـى منشـدّاً إلـيَّ مهمـا نـدهت بـه أكـف الإغراء، وأثملته خمور الغواية، وأخذته بعيداً هتافات الخديعة... دفنت وجهها فـي انحنـاءة عنقي بينمـا تركتْ أنـاملي تبدأ رحلتها علـى عنقها نـزولاً إلـى النهـدين الممتلئـين بتكـويرتي تفّـاحتين، هابطـة علـى البطن الضـامر متّخـذةً طريقـاً إلـى غابـة متماسـكة. انحرفـت جانبـاً... أحسُّ بأناملـه تسوح على باطن فخذي وتهبط. قليلاً وتتوقّف؛ ثم ترتفع علوّاً لتستقر على خدّي؛ تمسح على بشرتي فتتوالد ارتعاشـة من لذاذة مائية غـامرة... ولأنـي اكتشفتُ غفوتها وتبيَّنتُ استرخـاء أعضـائها انتشـاءً فقد

تركتها مستدعياً الزمن ليشهد ويختم على أديم ذاكرته هذا اللقاء الخالد بحضور قمرٍ يسكب شيئاً من ضوئه في فم النافذة فيسقط سجّادةً فضيّة على الأرض؛ ونجوم تتعرّى سافحة لئلاءها في حومة عناقنا السرمدي.

وببطءٍ زاحف كما انسيابِ ماءٍ تحت كثافة ورقٍ، يانعٍ تحركت نجاة... رفعت رأسها من فوق صدري. قطة حالمة تسللت، نازلةً من السرير صوب النافذة كأنَّ ثمّةَ نداءاً خفيّاً يبعث بنغماته لتحاكيه. في المستطيل الفضّي انتصبت واقفة. قوامها يعرض هيكل جسدٍ أبان فيه التضاريس بلا تفاصيل..

وكما لو كانت ترد على أمرٍ يشغلها، أو تساؤلٍ يلح عليها سمعتُها:

- أعتقد أنَّ هذا يكفي.

- نجاة!!

- كأننّا في واجب الإثبات.. كأنها فرضُ عين.

- ماذا؟!

- نحنُ والتضحية.

تحركت تبحث عن ملابسها. ارتدتها قطعةً فقطعة بينما اتجهت يدي نحو زرِّ المصباح فانتفض الضوء يكشف غيمةَ أحزانٍ تتكاثف في فضاء عينيها، وأسىً كاسحاً ترسمه القَسَمات.

- لقد تأخرت.

- نجاة!

واقتربت.. التحمتما من جديد. طبعتَ قبلةً على شفتيها / رسَمتْ قبلة على خدّك. رجتكَ الاعتناء بنفسك ووعدتك بزيارةِ والدتك لمعرفة نبأ وصولك، والمحطة التي ستستقرَّ فيها. تمنّت عليك أن لا تتلكّأ في

إرسال الأخبار.عاهدتك على ضوء رجاءاتك أن لا تنساك وستراسلك دوماً.. رفعتَ يدها؛ قبّلتها على ظاهر كفِّها .

تحركتما نازلين...

عند الباب الخارجي فتحتْ حقيبتها الصغيرة. استخرجتْ ظرفاً أزرقَ حوى شيئاً خفيفاً، قالت:

- احتفظ به. افتحه بعدما تجتاز حدود الوطن. أرجو أن لا تفرِّط بفحواه.

الفصل الرابع

(١)

ونحنُ نقضمُ شرائحَ الخبز، ونلتهمُ السَّلَطةَ التي أعدّها، و نستطعمُ لذاذةَ البيض الذي قلاّه - بعد ليلٍ صرفناه بلا طعامٍ، وفطور صباح تعدّى وقته - دارت أحاديث سريعة ومبتورة عن ضروراتِ المجيء ومحتِّمات العودة إلى الوطن . حكيتُ له عن شوقي لمحادثته وأنا أرى صورتَه تتكرر، محاوراً في برنامجِه الثقافي من إحدى الفضائيات العربية.

سألته عن دراساتِه البنيوية في كتابٍ لهُ صدر حاملاً عنوان (النص والتناص). حكيتُ له كيف أنّي قرأتُ له في صحيفةٍ عربية تصدر في لندن خبر إصدارهِ مجموعته الشعرية (غراء لقلوب المدحورين) زاد اشتياقي لقراءتها، فرحتُ أتساءل عن فحواها. ما لبثَ الرد أنْ جاء بعد أقل من شهر.. قراءة نقدية يكتبها ناقدٌ مغترب. القراءة متشعبة، تسبر فحوى النصوص وتعالج مستوياتها ومرجعياتها المستلّة من بحور الضياع.. من تضاريسها استشفَّيت جبل الآلام الرازح على قلبه.. ومن بين ثناياها الدفينة سمعتُ صراخاً، وتلمّستُ عبثاً ينضحان من فجوات الأسطر.

- رأيتُ أنكَ ما زلتَ مسكوناً بهمٍّ العودة؛ ترثي الأعوام الضائعة وتنده بالآمال أن لا تبتعد، أنْ لا تتبدَّد.

- ذلك عزاؤنا الأخير.. تأتي لحظات أوقنُ تحت إخطبوط كابوسيَّتِها أنْ لا عودة فعلية للبراءةِ الضائعة. فالاستباحةُ ما برحت

تفتك بجسد عراقنا الرهيف، فكيف أعود لأشيائي المنهوبة؟.. وجدتُ ذلك في البوح المفرداتي، والصراخ بهتاف الأحرف علّها تُضَّئِل بكائي الأزلي.

ما زال عبد الرحمن كما هو منذ ما يزيد على العشرين عاماً موبوءً برصد الواقع وتصوير الماثل. لا يريد للرومانس طغياناً على الحاصل؛ ولا يبتغي أجنحةَ الخيال تحليقاً عمّا يجري.. الشعر يكتبه بجديّةِ الواقع؛ والنقد يتولاّه بلا مواربات، تخلّياً عن المحاباة، تمسكاً بالقناعات.

كنّا نلمس في آرائه أشياءً من الجفوة؛ ونعيبُ عليه تغليفه للرؤى بقشرةٍ صلبة، وجافّة، وفضَّة. ولم يكن يتراجع ليساير آراءنا ويغنّي مع سربِ نظرتنا الأكثر مرونةً، والأبعدَ تحليقاً. لقد نشأ في بيتٍ أفرادُه يخطون على أرضِ الجِّدِّ والاعتداد بالرأي. يفضّلون الصرامة على الاسترخاء، ومواجهة المواقف بدلاً من تخطّيها باللامبالاة. كان الأبُ فنيّاً ماهراً، يدير محلاًّ يتراصف مع محلاّت سمكرة السيّارات في المدينة. وسطَ المحل تتركّزُ آلةٌ فولاذية ضخمة تتحرّك فيها عتلات، وتجري عبر تروسها سلاسلَ كنّا نهابها ونحن نتطلّع إليها بعين الفضول الطفولي؛ لكنَّ أبا عبد الرحمن كان مهيمناً على سطوتها. لم تخيفهُ، ولا أبصرنا فيه العاجز عن إدارتها. يطالعنا فيقرأ رهبةَ اقترابنا منها في سحنات وجوهِنا فيضحك، ويروح يربت على معدنِها الصلب، مردّداً:

– هكذا سقينا الفولاذ.

عبارةٌ غريبةٌ على مسمعنا. نتذكّر إنَّنا سألنا عبد الرحمن: من أينَ لأبيك هذا الكلام المبهم؟!..

حين كبرنا، ودخلنا صومعة الأدب بمنظار القراءة المتهافتة واجهتنا العبارة فعرفناها عنواناً لروايةٍ روسيّة؛ وعرفنا أنَّ أبا عبد الرحمن كان يقرأ الأدب، بل ومتأثراً بالسوفييتي منه، ذلك المُمجِّد للعمل والمفتَخِر بالعمّال.. لِمَ لا وخمسينات القرن العشرين تجسدّت بسنيَّ يفاعتها الاشتراكية، ونشاطها الفنّي الزاخر بالانطلاق ومحاولة الارتقاء لقمّة المجد... وكان إنْ هبَّت رياح الاشتراكية الحادية إلى الشيوعية فولج شذاها الساحر، المثير سماءَ الوطن العراقي، وشاعت كتوف الأنسام الباعثة على تفجير حجيرات التخيُّل بين الأحياء الفقيرة، والأزقّة الموبوءة بالجهلِ والمرضِ والفاقة؛ تلك الرازحة تحت أثقال العَسَف الاجتماعي... وهناك في الفضاءات الريفية شمَّ الفلاحون هواءً لم يألفوه، أنهضهم من ربقةِ خدرِ العبودية وأفاقهم من ترياق المهانة والهمود الأزلي.. في ذلك الزمن الراكد فتح أبا عبد الرحمن، العامل عينيه ليتسلّم صكوك مطالعة ما صار يَفِدُ من كتبٍ ومنشورات تتنقل في الخفاء، بعيداً عن لمسات الآباء الناظرين إلى الوافدِ كفراً، والمتلمّسين في أدبياته مسلكاً لفساد الوجود. كان الشعارُ الماركسي آنذاك يدعو بالصوت الهادر (يا عمّال العالم اتَّحدوا). يرفعه لينين – عن قولٍ هتفَ به ماركس يوماً ما – وينظِّر له، مُفجِّراً دروب الخيال، زارعاً الحلم الأمميّ لمستقبل نضرٍ / باهرٍ / زاهٍ / ألِقٍ / مُشرقٍ / مفعم بالتواصل الإنساني، محبور بأشذاء الحريّة المهفهفة على الوجوه المتّشحة ببهاء المساواة. حيثُ لا نشاز قومي، ولا رائحة عنصرية، ولا حسّ إقليمي، ولا دبيب أصولي. المستقبلُ هو الإرثُ والمال والكنز الذي يستحق الحيازة. لا عودة إلى الماضي، ولا التفات إلى الوراء...

وكان تروتسكي حتّى وهو في أسر المنفى، من أمريكا الجنوبية مطروداً من ستالين ومُطارداً يهتف بشعار العنف الثوري وصولاً لسدَّة الحكم، تحقيقاً لرفعةِ العامل سيّد الآلة والفلاح إله الأرض. عنفٌ يُطيح بقوى الهيمنة السياديّة المتوارَثة، والوطء الإقطاعي المُتجبِّر، ومنجنيق الدين المستحّوِذ.. ولقد رفلَ هذا الأمل المُضمَّخ بالتفاؤل الوسيع محمولاً على أجنحة حمامات السلام البيض، رفضاً للحرب، تخلّياً عن الأطماع. الثرواتُ توزَّع بلا استحواذ. الطاقاتُ تُجنَّد بلا استغلال.. الكلُّ للبناء، والجميعُ للسعادة.

كنا نرى أبا عبد الرحمن يُشرِك الابن في جزئيات العمل وإنْ كانت سهلةً، يسيرة لا تتجاوز إعطائه ما يطلب من مفكّات أو صواميل، أو قطع حديدية خفيفة. يأتيه كلٌّ مَن يحتاج لأطرافٍ لا يوفّرها السوق ، وليس من اليسر ابتياعها فيروح هو استعانةً بالآلة التي تتعملق إزاء دهشتنا كالديناصور الفولاذي المَهيب يصنع البديل المشابه في النوع والمواصفات. لعلَّ ذلك ما أشاع على وجهه سحنة الصرامة، وفي أعماقه أواصر الثبات. فانتقلت حيثياتها إلى ولده عبد الرحمن، وإنْ يكن للأمّ دورٌ لا يمكن اغفاله؛ فما كانت مثل أولئك النساء اللاهثات وراء الدموع، والبكاء، والضعف لأيّ ما موقفٍ ينده بالعاطفة ويدفعها إلى تخوم الخنوع. بل كانت أُمّاً جَلِدة / واثقة / رصينة. يأتينها الجارات من النساء يطلبنَ مشورةً أو سؤالاً تزرع إجابته الطمأنينة في القلوب الواجفة الهلعة.

نهضَ.. تركني أُكمل تناول ما تبقّى في الصحون. دخل المطبخ ليغسل يديه وعاد بهمّةِ مَن تذكَّر شيئاً. تلقفته الغرفة؛ ثم عاد سريعاً وقد

ارتدى ملابسه، وحمل حقيبةً مثقلة بالأوراق ومتطلبات الكتابة والتدوين.

- هل سترافقني؟

- إلى أين؟

- لديّ لقاءٌ مع مؤرخٍ أعطى دوراً للمدن المُهملة قَصداً.

وكما لو تذكّر شيئاً، أو سعى لاستثارتي:

- بالمناسبة؛ لقد خصصَّ فصلاً كاملاً لمدينتنا السماوة؛ دورها في الثورات وخسارتها في نيل الانجازات. هكذا أخبرني. لهذا سأتوجه إليه بالأسئلة لعلّه يمتلك معلوماتٍ لا نعرفها ووثائقَ قد تفيدنا مستقبلاً. المصور ينتظرني؛ كم الساعة الآن؟

كان النهار تجاوز انتصافه ودفع بالهواء الساخن للتسلل إلى الأفياء. يدخل من شبّاك مطبخ الشقّة المشرع، ويجعلني أرد برغبة البقاء.

- سأنتظرك إذاً في مقهى العاصمة، وعلى الطاولة نفسها. الساعة الرابعة أكون أنجزت اللقاء وتهيأت لمقدمِك.

وهو يغلق الباب الخارجي ويتوارى على إيقاع الدرجات الهابطة للسلّم انتفضت في الروح رغبة الحوار مع نجاة المنشطرة حياتين: الأولى متجهةً للإفضاء الراكض في دروب الحنين، ومسارات الوصف الآيل إلى التصوير، راهصةً على الورق الصامت. والثانية الذات الضائعة في خراب الزمن الموتور / ليل الهجر المُكرَّس، المقصود.

نحو الحقيبة جامعة الروح، وضامّة غدير المشاعر ينهض هذا الموبوء بالوله والذكرى ؛ وإلى باحة الاطلاع على المكنونات يتوجّه. يسحب الظرف ويقلب الأوراق. يتجاوز التداعي الأول، المعنون " الأب

كما رأيته.. البيت كما أراه. " ليتشبَّث بالأسطر الأولى للعنوان الثاني " أبجدية الأعوام الراحلة ". يخطو مع تهافت الأسطر وهي تحاربه بالخشية من أنْ يكتشِف في قراءته سكاكينَ البغتة تمزِّق أحشاء أملٍ تمنّاه يستحم بالتفاؤل، و أهوال تطيح برغبة استكناه مشاعر نجاة في ما إذا كانت تحوي بوحاً يخصّه.

يقرأ فيكتشف سيرة ذاتية ترسمُها لرجلٍ اسمه شهاب. هو نفس الاسم الذي احتل التداعي الأول واستحوذ عليه، ولكن باسترجاعٍ شامل يعطي خلفيةً لطفولة متواضعة، ونشاط واسع لكبرٍ طموح، إذْ المنحى يعرض كياناً عائلياً يُجسِّد أسماءً لزوجة اسمها " أنيسة:، تلك هي أم نجاة تحديداً، وولداً منحته اسم "ياسر" لا بدَّ أن يكون أخوها؛ وبنتاً قالت عنها "حليمة"، لكنها تحمل مواصفات نجاة الراوية.

تُدخِلني الكلمات في نسيج السرد فأقتفي خطى الوصف؛ تُعرّفُني على حركة الشخوص لأتملّى دواخلهم. أبحث عن الشيفرات المبثوثة في أنساق الاشتغال فأواجه أُسرةً جاءت من سهوب التواضع وتاريخاً لا يرقى إلى التفخيم.. كيانٌ عائلي لا تجد فيه تفاوتاً مع أيِّ كيانٍ عائلي عراقي. هل كانت نجاة تسعى لتقديم هناءً ناجزاً لتبرّر أنَّ بساطة الحياة لدى الشرائح العامة أبسط من التعقيدات الاجتماعية لأولئك المنضوين تحت غيمة الرقي والرفعة؟.. هل ولجت هذا النوع من عرض الأحداث كي ما تدرك تخوم الذروة المبنيّة على أساس أنَّ الصراع والوصول إلى الأهداف في عالمٍ كعالمنا يستدعي التضحية بأمورٍ ثمينة وخسارة عالية لا رجعة لاستعادتها، ولا مغفرة لفقدها أو الندم عليها؟.. أم هو الصدق الفني التي تجاهد في تجسيده ليبدو تقديمها أكثرَ واقعيةً وأشدَّ إقناعاً؟

نعم.. أقرأ، وأقرأ. أرحل مع العبارات الموغِلة في الشعرية، وأتوقّف عند الجمل المستحمّة بالسخرية. تعابثني!. تدعوني لرسم الابتسامة على المحيّا الظاهر، وتدفعني لسلوك القهقهة المتعالية في الداخل. تؤرخ الأحداث بلسان السخرية، وتؤطِّر الجِّد بكلمات الفَكَه.. ومن أدنى الكلمات/ العبارات / الجمل يُذهِلُكَ استشفاف المرارة تتقطَّر ناضحةً في " ناقوط " الروح القارئة؛؛ عائدة إلى الستيّنات، إلى الحقبة الموسومة بالبساطة والفضاء المشع بضوء العيش الهادئ رُغمَ أجواء الفقر المهيمن.. لا تكتفي في مضمارها التدويني على ذاكرتها الفردية، بل تستعين بذاكرة الأب من خلال استرجاع السيرة الذاتية يفوه بها كحكايات ليلية يسكبها في أقداح مسامع الصغيرين حليمة وياسر فيُنتج ذلك الحكي المسرود صوراً تدَّخرها الذاكرة الفتية كخزين قد تأتي الضرورة إليه.. وقد قدِمت فعلاً لتشكِّل رسمَ وقائعٍ لأعوامٍ راحلة. ومن هنا جاء عنوانُ اشتغالِها الثاني ليكون تواجداً سردياً قصصياً وإنْ اتكأ على أبجديات القص السِّيَري... يرنُّ جرسُ الباب فتختلط في الذهن عناصرُ القراءة مع سؤال التداعي. لحظة تساؤل تقفز من فم الحيرة: ما الذي أعاد عبد الرحمن؟

شابٌّ فتي بصدرية بيضاء وقبعة كالطربوش، يحمل صينية تحوي صحوناً فيها بقايا طعام.

– مرحباً.. هل تأمرون بوجبة غداء؟.. لدينا دجاج بنوعيه المشوي والمقلي. كباب سوري؛ شاورما؛ رز مع أنواع المرق: مرق كوسة مع البطاطا؛ مرق فاصوليا بيضاء؛ باميا؛ ملوخيّة.

جدِّيةُ الشاب كافية لتكميم فم احتساب الموقف مقلباً.. ولولا

مشاهدتي له بعدما تركني يطرق باب الشقّة المقابلة ويقدِّم نفس العرض لاعتبرت الأمر من باب الكاميرا الخفية... عرف في ما بعد أنَّ معظم مطاعم عمّان تتبع تقليداً أساسه خدمة ساكني الشقق والفنادق الذي عادةً ما يكونوا نزلاء غير دائميين. رأيت غب إشارة العامل إلى جهة الحائط المقابل لباب المطبخ مستطيل ورقي . عندما دنوتُ وتطلّعتُ قرأته إعلاناً محفوفاً ببرواز مُزيَّن بورود، يضم قائمة بأرقام هواتف مطاعم وفنادق العاصمة. المستطيل الورقي حفَّزَ لدي ذكرى المستطيلات الخشبية الصغيرة التي كان العراقيون يضعونها في أعلى أبواب بيوتهم تحمل أسماءهم والألقاب كفعلٍ يتسم بإعلان الهوية وإشهار السمعة، إظهاراً لمركز اجتماعي يتصف به حيث تبارى الكثيرون في التفنن في المباهاة فراحوا يعرضون أسماءهم على صحائف برونزية لامعة يخطّها أبرع خطّاطي مدنهم، حتّى إذا جاء عريان وتسلّم الحكم وصار عرض الأسماء من عِداد المصائد والمتابعة شرعت مستطيلات الفِخار والتباهي تختفي، ثم بوقتٍ قصير تزول نهائياً.. صار الحذر في الوطن السجن واجباً؛ والتهجّس مصلاً يسري في العروق ارتياباً. تتحسَّب الناس للعيون، وتحسب الخطى. تراقب شخوص الظلام تتناسل وتتكاثف وتختطف امتصاصاً أنفاس الألفة. صار الخروج من الوطن القفص وانصراف الأعوام بعيداً، في جادّات الغربة والعيش كأغراب يقلل من أعراض الحذر.. إنَّ أجملَ ما تمنحك شفاهُ الغربة هي قبلة الطمأنة وراحة البال؛ إذْ المحيطون بك لا ينظرون إليك كياناً ينبغي الاحتراز منه، والاشتباه فيه. كل ما يفسِّرونه فيك وعنك أنّكَ ناءٍ عن الأوطان طلباً للرزق وهروباً من المنغِّصات؛؛

وبعدها ليس من المعقول للطير الهارب من سجنه ارتكاب فعل الحماقة بالعودة إليه.

هواءُ عمّان يتباين وهواء السموم اللافح لوجوه مدننا العراقية سيما هامات الجبال المحيطة بقلب المدينة، كجبل الحسين البناية التي نسكن تأخذ موقعاً على قمته.

الأنسام المُختزنة ببقايا برد الفجر لا تروم الاضطجاع تحت شمس الظهيرة الساخنة، لهذا تندفع والجةً الثغرات، متسربةً عبر نوافذ البيوت الفسيحة أو الشقق الضيّقة.

– تعالَ هنا!... تناهى نداء نسمة رهيفة دعتني إلى الاستدارة. تردَّ نداؤها من عمق الغرفة فإذا النافذة تفتح فماً ضيقاً؛ اندفعتُ لأشرعه على مصراعيه؛ وألتقط بعين التطلّع.

هامات البيوت تعرض فحوى سطوحها. المسوح الخضر متناثرة تفخرُ بحدائق وزروع. رائحة الأرض تعبق. الأشجار تزدهي. أنا لا أُتقن الاستقبال. يتماوج الهواء خافقاً تحدوني خفقاته إلى استذكار نجاة... لماذا؟!

أبحث في الطوايا عن أنفاسها، وأُسائل الذرّات عن أدنى خبر.. أنده بالقلب المُعتَصر: يا جبل الحسين؛ يا أحياء عمّان وحواريها. يا دروبها والمنعطفات. يا جبالها والوديان!.. أيتها السلالم الصاعدة باتجاه السفوح. يا منحدرات الإسفلت الهابط لوسط البلد، هل لي مَن يدلّني على جوهرتي الضائعة؟!.. مَن يشير إلى مسارٍ على أديمهٍ طبعت نجاة قدماً؟.. مَن يؤكّد لي أنها هنا وليست في متاهةٍ أخرى من هذا العالم الفسيح ؛ من هذه الدنيا المتاهة؟!..

يهرب الهواءُ. والنافذةُ تستحيل فماً ساخراً بينما يدبُّ في فناء الغرفة دخانٌ خانق ورائحة كاربون ثقيل؛ هكذا شُبِّه لي.. السماوة تقترب من باب الذاكرة؛ تفتح دروبها. تعرض أبنيتها الأفقية. يتلوّى السوق المسقَّف بعتمته الباردة وخثرة هوائه. يتمطّى الفرات ويرغو على ضفتيه الوديعتين.. يحضر شهاب: " لن تجدها! نجاة تشظَّت وضاعت كالغيمة البيضاء في هجير شمسٍ ساخن.. أثاث الغرفة؛ شيئيات الصالة؛ وجه الباب الخارجي يصرخ بي: اخرج! والساعة تدوّي دقّاتها الأربع في أذني كما لو كانت فرقعات هائلة... تدخلُ في ملابسِك، وتهرع مخلِّفاً الأشياء كما هي بلا انتظام. الباب تغلقهُ وراءك؛ وهابطاً تتحرّك. تلاحقك عواءات ذئاب مُكدَّسة خلف سرابات التطيّر. حتى إذا تلقَّفك الشارع، ولفَّتكَ أبجدياته التكوينية همدَ كلَُ شيء؛ وعاد مشهد الحياة طبيعياً يمتطي الألفة.. الناس تتحرك بنشاط وقت ما بعد الظهيرة.

وأنا أصل نهاية الشارع، وأهمُّ في العبور للجانب الآخر لاستقلَّ عربة "السرفيس" تقلّني لوسط البلد تبارت إزائي لافتة عريضة تحمل "مطعم الرفاه"؛ وفي الأدنى كانت واجهة المطعم المزججة تعرض ما خلفها. وما خلفها ثمة عمّال يتنقلون. من بينهم ألمح العامل الذي طرق باب الشقة يطالعني من الداخل كأنه يتساءل أين رآني حتى أنهّ تحرّك خارجاً. وحين دخلتَ جوف السيارة والتفتُّ أبصرته لمّا يزل يبعث بنظراته المستفهمة.. "غداً أطفئ نارَ فضولك عندما أطلب غداءً تجلبه بنفسك، أيها العامل الذي رميت نفسك في دوّامة الحيرة."

(٢)

أبجدية الأعوام الراحلة

وجيبُ العمر ينوء بتعثّرات الأيام؛ وهي الأقدارُ ترسم تشفيّاتها على إيقاع الآلام بوتيرةِ طفلةٍ تبكي، وأمٍّ تئنُّ، وأشجار تشكو استطالات الخريف بينما ضفاف العيون تضجُّ بالقذى. وسقفُ السوق الوحيد توشّمُه آثارُ نقرِ " حالوب " تلك السنة التي غدت تاريخاً يفصل بين ماضي (ما قبل) ومستقبل (ما بعد).. " ولدتهُ أمّهُ قبل الحالوبة.".. " سقط من شقِّ السقف الآيل بعد الحالوبة."

رشقات أقرب إلى الأكذوبة / أدنى من الأسطورة؛ مع أنَّ الأساطير لم تذكر حوادث بهذا الاتساع: حمار جُنَّ رغم البَلَد / قطّة بُليت بسعار المواء / شجرة تخلّت عن بعض أعضائها عنوةً / بيوت تثلّمت شرفاتها / أكواخ صارت سقوفها القصبية منخلاً.

وداخل فناء السوق المسقّف بصفائح معدنية ولدت سيمفونيةٌ هادرة من الضجيج... صاح الآخرون: هيَ!.. هيَ!!.. هي ذي إرهاصات الحشر. بواكير لا تقبل الظن؛ لا تكتفي بالتردّد؛ أو الانتظار لما سيحدث بعد، سوى الشهادة ويقين الانتهاء.

غب أسبوع من تجاوز سيل الاحتمالات ولدت "حليمة ". سمّتها أنيسة الأم بعد إلحاح مهيمن بهذا الاسم فانتفى اسم " حرية " الذي شاءه أبوها هويةً لها حيثُ الحرية آنذاك حمامةٌ بيضاء تثلج قلوب

المسحوقين، وتسرق عيون المقموعين باتجاه سماوات الشعارات الأممية الباعثة على الريبة، والآيلة إلى التجنّي بنظر عيون أعداء أولئك الرازحين تحت جبروت الشقاء... وكان لسنوات العمر الأولى طعم البراءة، ولسنوات الدراسة الابتدائية مذاق من يخامره الارتياح المتوالي يوم كان الأب يمتلك زمام رأيه. يحظى بالتقدير، ويجد من لدن نفسه قبولاً بما يفعل.

وظلّت حليمة تكبر.. تقيس الكبر من هبوط حافة الباب العليا للغرفة التي كانت تبصر أباها وأمها يلجّانها ورأساهما يكادان يمسّان تلك الحافة؛ وكذلك من البنات وهنَّ يرافقنها صوب صفوف المدرسة خروجاً إلى تشابكات أزقةٍ كالأمعاء... تتذّكر أنيسة الزقاق الرحِم فتقول لابنتها:" كان سكنتهُ يعيشون حفاوة الهناء رغم انتشار أذرع الفقر، وينعمون بالوفاء وإنْ خدّشت جباههم مخالب الضنى. قدمنا إليه إثر شراء بيت بمبلغ لا يُعد مبلغاً لأنّه غرفتان وفناء حسير مفتوح على السماء، ومطبخ بتكوين ثقب معتم في هالة طينية مكدّسة، والمساحة الكليّة تحوي ثلاثين من الأمتار المربعة. ".

كان السكنُ بمثابةِ سترٍ وابتداء حياة لأنَّ ياسر عندما فتح عينيه قال " هذا باب." ومن وراء فتحة الباب أطلَّ برأسه، وقال:" أنا في الزقاق." ويقصد واحداً من الأزقة التي تهتف به : تعال يا ياسر نحو المتاهة؛ على اعتبار أنَّ الأزقة متداخلة وستفضي به إلى " مركز شرطة الخنّاق "بمواجهة الفرات لأنَّ أحداً ما أبصره يبكي بافتراض سيناريو سينفّذهُ ياسر عاجلاً أم عاجلاً؛ فأخذه إلى المركز لتتجسّد أولى العوائق في الحياة إذْ هو لا يعرف كيف ينطق اسم شهاب الأب، ولا

أسم أنيسة الأم. فقط كان يرد على سؤال: ما اسم أبيك؟ فيقول: أبي. وما اسم أمّك: أسمها أمّي.

تقول حليمة بعد أعوام من البراءة؛ بعد استعادة السماء لمشهد حالوبة أخرى: " كنّا نحتمي بالاستغاثات كدفاع ضد مجهول. بين صمت وصمت،، حوار وحوار نردّد آيات دنو المنيّة عندما دخل ياسر.. تقول أمّي: كنت أتحدّث مع شهاب وتعني أبي حين دخل ياسر الصبي.. دخل أحمر الجبهة؛ يصبغ الدمُ كفّه. يقول " دم " وسط ذهول تأثير الضربة... مصدومةً تصرخ به:

- الدم يسيل من رأسك

فيجيبها:

- كلاّ؛ يدي جرحها رأسي المتألم.

تنفجر بصرخة تزيل ذهوله، تزيد رعبه:

- ومن فعلَ بكَ هذا؟

- لا أدري.. صخور بيضاء جاءت مع المطر. رشقت أصحابي في الزقاق فولّدت البكاء لديهم. أمّا أنا فلم أبكِ؛ ولكن يدي هي التي انجرحت..ها .. ولكن ما هذا؟.. ما هذه السخونة السائلة على وجهي؟!

يرفع كفّهُ، يتحسّس رأسه، فيقول بانشداه:

- دم.. آ.. دم. من فعلَ هذا بي؟!

تقول حليمة: " لم يكن ياسر قد ولد عندما فكّر أبي بترك (أبو الخصيب)، مدينتنا الرهيفة المستحمّة بأمواه شط العرب، والمستلقية أدنى ظلال بساتين النخيل تتسمَّع خرير المدّ وتغفو على انسيابية الجَّزر؛ مقرراً الانتقال إلى مدينة تقرب - ولو بعيداً - من العاصمة

كطموح ابتدائي لوصول نهائي مرتقب.. لم يكن ياسر قد رأى الحياة وشمّ هواءها بعد... ويوم قدمت تلك السيارة الصغيرة الزرقاء بحوضها الخلفي المكشوف تنقل ما لدينا من عفش كان ياسر يحبو. واستمر يحبو حتى ونحن نصرف الأسبوع الأول في منزلنا الجديد في (السماوة) المدينة الفراتية. كانت أنيسة، وأقصد أمّي تقول: " أخاف عليه من المجهول فنحن ساكنون جدد، ولا نعرف الناس رغم علمنا بطيبتهم؛ وهم لا يعرفوننا رغم جهلهم ببساطتنا.

كنّا نسمع تهادي الفرات فنتذكر باشتياق زحوف شط العرب. كانت أمّي مُحقّةً بإصرارها في أن يكون انتقالنا لمدينة تصادق النهر، وهو شرط اقتنع به أبي فجاراها في الطلب.

وفي واحدة من أسئلة العودة إلى الماضي أفضى شهاب لياسر السائل والمستمع وهو يغذّيه بحليب المودَّة ويسقيه طُعمَ الحكايات التي تقود إلى جزيرة الرقاد.. أفضى بذكرياته:

" وقتها لم أتعدّى العاشرة؛ تماماً كما أنتَ يا ياسر اليوم. كان العام ١٩٥٢. ما كنتُ أعرف ماذا تعني الثورة. "... انتفض ياسر: " الثورة أم الثور؛ يا أبي؟ "

ضحك الأب، ولم تضحك أنيسة لأنّها نادت على حليمة أنْ تكمل غسل الصحون وتستمع لحكايات الأب من مكانها في المطبخ غير آبهة لضواري الفئران في بوادي المسارات المتداخلة لخارطة المطابخ المتجاورة. مطابخ البيوت المتلاصقة. وكان الزقاق في الخارج يشهد سيمفونية الأزيز بجحافل الزيزان المتوارية في ثقوب الجدران: ززززززز، مثلما ننتظر شخير ياسر: خخخخخخ.

" نعم؛ لم أفقه ماذا تعني الثورة سوى أنني أبصرتُ الناس يهيمون. يتناثرون مثلَ النمل؛ ثم يجتمعون.. ثم إلى أجهزة المذياع يلجؤون. "

واستمر شهاب يشير لظهيرة الثالث والعشرين من تموز، مستخدماً الوصف إيذاناً باكتشاف عيني ياسر تصارعان الرموش وهي تتداخل وتنفصل، فتذكّره الصورة.. الصورة تُذكّره بتأفف الناس لتلك السخونة وذلك الصهد اللذين كانا كافيين لجعلهم يلعنون مراوح لا تفي بواجباتها. لكن الضجر يلتهمه الموقف المريب والتنصّت العميم لشتّى الإذاعات اعتماداً بالصدق على إذاعة الـ BBC كصوت محايد وكلام إنكليز لا يقبل الافتراء.

تضحك أمّي. تقول حليمة: تضحك لأنَّ خمسة عشر عاماً كافية لتحويل الكارثة إلى ذكرى. والذكرى مهما كانت مرّة ستستحيل بمرور الأعوام حكاية لطيفة تستحق التكرار.. وكانت لياسر رائحة المراعي عندما يعود بعد اللعب خارج البيت.. يقترب منّي فأهرب. تسألني أمّي عن السبب فأصرخ به: هذا خروف وليس ياسراً.. تشمّه أمّي فيما هو يضحك مندهشاً.. يقول: أنا لست خروفاً. الخروف في " الطَّولة "؛ أمّا أنا فياسر. وتدرك أمّي أنَّ ياسراً يلاعب علي ابن صاحب طولة الخراف. والطولة مسرح لعبهما؛ يتساوى وتزاحم الخرفان.. يحتّك فتأتيه الرائحة؛ تتمسك بثوبه وشعره ويديه فيصبح أقرب إلى خروف منه إلى ابن شهاب.

شاهدَ شهاب وهو أبي المارّة في السوق تتبادل الحذر، ومعه الترقّب فالانشداه. الخطى تسرع تارة وتُبطئ تارات. العيون تتحاور بلغة البهجة، والأكتاف تحتك ليس بمثل ما تحتك الخرفان لكنه احتكاك

بشري من قبيل الملامسة والتوجه للآخر بـ " عفواً سامحني! " و " آسف / لم أقصد! ". أمّا الرؤوس فتنم عنها حركات تشبه الطأطأة قدَّرها مزيجاً من تساؤل وإجابات... وفي البيت المتواضع؛ بيت الطين ذي الغرف الثلاث والفناء الترابي صار للمذياع الصغير أهميةً تعادل تلاًّ من الحيرة، يجاوره تلٌّ من الارتباك لدى الأب الذي هو جدّي.

- هل نمت، يا ياسر؟
- لا.. لا.. أسمع ما تقول يا شهاب.
- ما اسم جدّك، يا ياسر؟

يتلوّى الصغير مع النعاس:" داشر.. جدّي داشر، وأنا ياسر.. وأنتَ أبي."... وكان داشر الجد يستهين بجهاز المذياع؛ لأنَّ الخبرة بنت التجربة، فاسأل مجرِّباً ولا تسأل مثقفاً.. لهذا يعيب داشر على أقرانه من الشيوخ الاهتمام بما يُدلى من أخبار وما يُصوَّر من افتراءات، موقناً بكذبِ ما يُذاع.. وذلك اليوم ظلَّ يردد بسخرية القرويين: " كلام إذاعات! ".. غير أنَّ الأخبار السريعة كذّبت التجربة وأطاحت بهيبة الخبرة، مثبتةً أنَّ السياسة لا تعتمد الثوابت؛ وليس كلُّ ما يُقال تشربه الثقة وينال حيازة الصدق.

وسمع شهاب الذي لم يكن أبي آنذاك أنَّ الشرطةَ تجوب الشوارع، ورجال الحكومة السريّين بعضٌ يصاحب أعمدة الكهرباء وقوفاً، مجهِّزين عيوناً تلاحق حركة الناس، وبعضٌ يتداخل في أي ما تجمعٍ مُريب.

في سوق البلدة أبصر شباباً يرتدون القمصان والبنطلونات ويمسكون صحفاً ومجلات، مهندمين كإشارة لطبقةٍ تُعلن وجودها بعنوان

الثقافي.. أبصر رجالاً ببدلات عمل زرقاء وجنوداً موحلي البشرات وجوههم يدهنها العرق يتبادلون النظرات الخاطفة فتهتز لها رؤوسهم منتجةً علامات التوافق؛ لأنَّ النظرات كانت رسائل. من هنا انبرى أحدهم يهتف بصرخةٍ أوقفت المارّة ودفعتهم للتطلّع أولاً؛ ثم التهجُّس ثانياً؛؛؛ وعاشراً سمعوا: " يسقط الاستعمار.. تحيا الحرية! ".. ومن بين الحشد انفجر هتافٌ متَوافقٌ : " يسقط.. يسقط! ".

وسقط ياسر في حومة الكرى بعدما توارت حدقتاه وحلّت محلهما الرموش المُطبقة. " دع الباقي للغد! " قالت أنيسة؛ وقالت:" الولد نام "، لكنَّ ياسر فتح عيناً وأبقى الثانية : " لا، ما نمت " ففسّرها الأب رسالةً للاستمرار رغمَ الرقاد الذي سرق الصغير... ولأنَّ شهاب وهو أبي يحبُ الذكرى ويحنُّ إلى الأعشاش استمر يُدلي: " وقتذاك الساعات مرّت لاهبةً. الحقيقة فرضت وجودها على الخبر. قال اليقين ها أنا أفوز على الشك لأنَّ الحركة العسكرية كانت بفعل ضبّاط سمّوها ثورة، أيدها الجميع رغمَ التنبؤات المنهالة من نافذة ارتجاج الوضع حيث نجاح الثورة يعني تمهيداً لابتداء انتفاضات في المسارح الأخرى. وكان للقول ما يؤيدهُ، إذْ تفجّرت في العراق ثورة صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨. " ثورة أم ثور؛ يا ولدي؟ ". ولم يفه الولد فأدرك الأب رقادَه هذه المرّة؛ عندها نهضَ تاركاً لأنيسة مهمّة نقل الولد إلى فراشه على اعتبار أنها الأم الموكَلة بهذا الأمر، وداعياً حليمة للجلوس أمامه تركن رأسها على باطن كفّها وتستمع لسيمفونية الذكرى المشروخة وهي تسمعها للمرّة الألف: " وقتها كنتُ أخوض بمياه العمر الخامسة عشرة. قالوا لي مراهق فحسبتها شتيمة ولم يحسبها غيري مدّعين أنْ لا شيء يسيء

فكلّنا مراهقون. ومن بين هدوء المتشرنقين وهياج المتحرّرين سمعتُ أنَّ الثورة تغيير، وأنَّ الحياة لا بدَّ من أن تشهد حاضراً يتبارى لتبوءٍ مُرحبّاً بهِ من مستقبلٍ ينتظر. أبصرتُ اندفاعاً جارفاً لقطّاعات شتّى. رأيتُ العمال يسعون بجدٍّ كي يمسكوا زمام القيادة، مثلما رأيتُ الفلاحين يهبّون ثأراً لسنين الخنوع؛ والطلاب يتراغون اشتعالاً عبر مقولة " الطلبة رأس الرمح في الثورات ". رأيتُ تجمّعات بمثابة أحزاب؛ كلٌّ يبغي نشر هيمنتهِ على الساحة الوطنية؛ مُهمِّشاً الآخر، ساعياً لإلغائه. وكنتُ أسمع أبي يخاطب جارنا المتذمِّر: " لن يدوم الحال قطعاً.. الإنكليز لا يتركون أحداً يفلت من قبضتهم، والخديعة حتماً واحدة من شؤونٍ يتقنونها.. مَن تبصرهم الآن يتقافزون في الميدان سيكونون حطباً لنار ستضطرم. ".

واكتشفتُ في كلام أبي حكمةً. إذْ ما أنْ تصارعت الأعوام الخمس صراع الجنون والدم والحقد المتبادل حتى انكسرت قارورة الزيت فأحرقت البيدر. وأطلق البعيدون قهقهة الشماتة.

تنهض أنيسة حاملةً ياسر. لا تحمله حملاً أكيداً ولكن بطريقة اتكاء الرأس على خصرها والقدمين يضربان الأرض، تماماً كما هو جرّ الخرفان.. يقول الصوت الهامس: " إلى فراشك، يا ولدي. غداً سيكمل أبوك الحكاية. وهي تعني الاسطوانة المشروخة المُعادة يومياً. فلا الابنُ ملَّ الاستماع إليها، ولا الأبُ ساوره الضجر منها. ذلك أنّه استمر يردد، ويردد. لكأنَّ الحياة سجلٌ من الترديد.

يقول شهاب.. وهو لا يقولها لأحد، بل يتذكّرها الآن: " يوم سقطت بقايا الأحلام في العام ١٩٦٧ أيقنتُ أنَّ الانهيار الاجتماعي المشفوع

بهزائم عسكرية وانطفاء بطولات كاذبة يمنحني انبثاق وعي ذاتي. فالعمر يقرب من الرابع والعشرين وهو عام التهيؤ للإبحار بسفينة النضال، لاسيما وقد أحببتُ الشعر؛ الشعر الشعبي وليس شعر عنترة لأنَّ مظفر النوّاب سرق من الجميع مشاعلهم وانطلق مع " الريل وحمد "، فانطلقتُ معه، على اعتبار أنَّ الشباب الذين يقاربونني العمر كانوا يتغنّون بـ " دك راسك بكاع العرس / واطلع مرادَس على الدف / أيام المزيّن كظن / تكظن يا أيام اللف. ".. الساحة تضطرم؛ والعرب شعوباً وقبائلَ تكمّم أفواهَهم عفونةُ الشعارات وفسادُ الأنظمة. وحين مرَّ عام وحدث الانقلاب، وشاهدّتُ مَن قدموا يردّدون: " جئنا لنبقى! " احتسبتهُ شعار الحقيقة ونداء الإصرار على البقاء لإصلاح ما دُمِّر، فتوجّهتُ داخلاً التيار أملاً بالتحرر الصادق. ولم أستمع تلك المرة لقول الأب المردِّدُ دوماً: " هذا واحد من الشعارات السابقة. كلّهم يهتفون هكذا في البدء؛ ثم بعدها يتآكلون كالحطب في نار صراعاتهم الشخصية. ". ينظر لي بعين الناصح: " إيّاكَ!.. إيّاك! يا ولدي شهاب. ضمَّ ابنتك الحميمة حليمة وزوجتك الطائعة أنيسة إلى صدرك، وألزم عملك على تواضعه. اكتفِ بما لديك من قناعة؛ وتذكّر أنَّ الهيمنة للكبار. لقد عملتُ مع الإنكليز لسنواتٍ طوال. عملتُ عتّالاً في ميناء البصرة وجسورها، وتعلمتُ منهم حكمة: العمل ثم العمل؛ ثم العمل. أمّا الشعارات فتأتي في ذيل اهتماماتهم. ".

بعد أشهر ماتَ أبي، وهو يردد: " إيّاكَ.. إيّاك، يا ولدي شهاب!. "...

(٣)

في إحدى لقاءات التحاور على قلَّتِها قلتُ لنجاة:

- أخشى أن يجعلني الزمن معادلاً موضوعيّاً لرجل جاك بريفير.

- لا أفهم!

- لم يحرز ذلك الرجل فرصةَ فوزِهِ بباقة ورد سلّمتها إليه بائعة الزهور.. لقد خذله قلبُه؛ ولحظة البهجة استحالت موقفاً سرياليّاً قاد إلى المفاجأة الفجائعية.

- ما زلتُ جاهلةً قصدك!

عرضتُ عليها القصيدة.. قرأَتها. أعادَتْ قراءتها.. وبسعادةٍ تتوارى خلف خشيةٍ تتنامى سألتني:

- أتجدني فيها؟

- قد لا تَظهرينَ بوضوح. قد تكونين متماهية؛؛ لكنّكِ موضوعها. أشدُّ المواقفَ مأساويّةً أشدُّها صدقاً.

ابتسمَت كعاشقةٍ.. تأسَّيتُ كفارسٍ طعين.

- بدأتَ تقول الشعر وتستدعي الفلسفة.

- كان يمكن أن نتواصل لنُشيِّد ولو جداراً في قصر الأدب؛ ونحيك من لقائنا الأبدي نصّاً يعرض نموذج الهناء. كان يمكن أن نقول هاتِ أيتها السماء بركاتك يحملها ملاك العشق ليسقينا كأسَ الرواء معاً فننطلق مبلّلين بالحبور والشغف ولذاذة ربيع ليس له انتهاء، تماماً كجنة الله التي لا تنتهي ، ولكن جحافل الكراهية تحتشد وراء لحظات سعادة الجميع .

عندما تعيد شراشف الأمس وتفرشها على طاولة الذكرى لا بدَّ من

أن تمر عليكَ دفقةُ الوجوه التي تراجعت وخَلُدَت في متحف الأيام تنتظر مراجعاتك التي ترفعها من جدران التحنُّط لتستعيد ولو نزراً من التصابي فترى إلى صبيٍّ يعدو في أزقّة البراءة. شقيٌّ، نزقٌ، حالمٌ صحبةَ جوقةٍ من أقرانٍ أكثرَ شقاءً، أشدَّ نزقاً، أوسعَ أحلاماً؛ لا يأبهون لمنظر أقدامهم العارية تطأ أرض الزقاق المُتربة، ولا ثيابهم الموحلة الممزّقة التي قد تُظهر عصافيرهم الخفيّة.. البيوت المتلاصقة بتهالكٍ هاتفٍ يرونها ملاذاتِ هناءٍ. والزقاق الذي يحتويهم بأفيائه الوخمة يتجلّى عالماً للقبض على الأشياء باعثة الألفة. نزعات؛ صراعات ومماحكات صبيانية تبدأ أولَ النهار لتنتهي آخرَه . ألعاب يفتضّونَ غمارَها بابتهاج. أدواتُها مستوحاةٌ من أبجديات المحيط.. عندما يطول النهارُ صيفاً يعالجونه بنداءات الفرات. يتوجّهون لضفافه جوقةً ضوضائية تعكِّر أبعاد القيلولة حيث الخدر يشيع في الدروب، والآباء المتعبون من تراكمات العمل الجهيد يرقدون تحت تسارع الأذرع المتلاحقة للمراوح السقفية تضخُّ فوقهم هواءً ساخناً ورطِباً؛ مُطلقين الشخيرَ صفيراً ببطونٍ منتفخة، وأعضاء مستسلمة لارتخاءٍ عميم. العيون تنهل من الماحول، والذاكرات طريّة في حومة الفضول تتوارب لاستقبال حركة الأطيافِ وتصوِّر تضاريس الهياكل المنشأة بيوتاً ودروباً، منعطفات وزوايا، ضفافاً ومنحدرات.

في أحدِ أزقّة الولِه يقف عبد الرحمن أمام بابٍ خشبي واطئ لبيتٍ أكلَ الدهرُ عليه ولم يشرب، يهمس بإذن مبدر: " هل ستطرق باب خالتك جواهر لتبلغها سلام أمّك وتحياتها؟ " فيضحك مبدر بوجهِ مّن تكشّفت حيلته في الحصول على مكافأة نقدية تهبها له الخالة هديةً

على إيصال سلامٍ لم تكن الأم قد حثّته على نقله؛ والخالة تدرك الأمر؛ والأم تعرفُ ذلك.. يضحك مبدر عندّما يذكّره عبد الرحمن بأنَّ العودة من السباحة تستدعي قارورة بيبسي وحفنة كعكات لأنَّ العطش والجوع سيهدَّانهم بعد النهر... يطرقون بابَ كمال فتخرج لهم أختّه الصغرى؛ تفقه سرَّ مجيئهم فتدخل. قليلاً ويظهر لهم كمال؛ ينطلقون أكثر ضجيجاً. وعلى مرمى شارعٍ من النهر يتقافزون انشراحاً، ويندفعونَ لهفةً بينما الضفاف تكايدهم، ينده بهم الماء.

صبيٌّ يكبر، ويكبر. ومعه النزعات الجامحة تصغر وتصغر.. تتلقّفه مرحلة الدراسة المتوسطة لتتسلّمه الثانوية. بيدهِ تضع قلماً يتحرَّق للتدوين، وفي صدره قلبٌ يخفق يسعى للبوح.. رأسه يقول اكتب فيدعو الورقة.. يكتب: صار جِدّاً ما لهونا بهِ // ربَّ جدٍّ جرَّهُ اللَعِبُ. " ينشرح.. يبتهج. يقول: " هذا شعرٌ!.. هل حقّاً أنا أكتبُ الشعر؟. غير أنَّ الذاكرةَ تسخرُ منه وتفضح عن حقيقة أنّه شعرٌ، لكنه لقائل غيره.. يكتب مأخوذاً بحالات البيوت المتهالكة التي تمر من أمامها فلا تتنفّس وجوداً لأهل: " لكِ يا منازلَ في القلوب منازلٌ // أقفرت أنتِ وهنَّ منكِ أواهلُ ". يتوقف متردداً. لا يمكن أن يكون هكذا تعبير من خلجات روحه.. ويتذكّر!. يتذكّر أستاذ ناهض، مدرس العربية؛ ذلك المولع بالمتنبي، المهووس بمفرداته، وصوره، وبلاغته، وحنينه لدارٍ تركها في مدينته كركوك وجيءَ به مدرِّساً منقولاً إلى السماوة بتهمة الزندقة والإلحاد . يدخل الصف حاملاً دفاتر التعبير؛ يتناولها طالبٌ لتفريقها على أصحابها. تلك اللحظة يرتفع صوته يسأل عن مبدر . يحدّق فيه؛ وقبل أن ينطق بشيء تسقط نظرات الفتى على ملاحظة دوَّنها له فيقرأ

إطراءً ويتولّى نصائحَ.

يومها كنّا مهووسين بقراءة المجلات ومتابعة المنشورات القادمة من بيروت. نقرأ الدواوين الشعرية ونتبادلها. نطالع القصص ونقاربها. نلاحق خطى الفنون التشكيلية والمسرحية والسينمائية ونتعقّبها... في حمّى الاحتدام وفورة الاغتراف، وانبثاقات القلق بانت الدروب وانفتحت المسارات. اختطَّ عبد الرحمن قراءة الشعر وكتابته، ثم الوقوف عند الاتجاهات النقدية، يطالع الآراء. يقف عندها؛ يدخل معها في حوار الذات مؤيّداً بعضها ومجاهراً بمناهضة بعضٍ آخر. كانت بواكير بناء الذات النقدية قد بزغت لديه بينما توجّه كمال للتخطيطات يرسم ويرسم. يسعى لاقتناء ما تلاقيه من اشتغالات فنية؛ يُعجب بـ " رامبرانت "، مواضيعه المختارة وفنيّة ريشته تنتج تلك الانجازات البارعة. يقف عند لوحةٍ صارفاً الساعات ذهولاً واندهاشاً؛ وكثيراً ما أبصرناه جامداً يحدق في تفاصيل اللوحة وسيلان من دمعٍ ينساب على وجنتيه. انفعالات تجيش داخله فتهدر، ورؤى تتوالد في مخيلته فيعجز عن مجاراة النظر فقط؛ عندها يتهشم حجر الصلابة لديه وتتفّتت سواتر الجَلَد. نتركه في حومة العناق الروحي وننسحب.... ويصرّح عبد الرحمن لي:" أنتَ تكتب شعراً يخرج عن المألوف.. أنتَ تكسر المُتَّبع. صورك الشعرية فيها جِدَّة، والتراكيب أكثر حدّة ممّا أقرأ للشعراء.. هل تنشر؟. أقول: " لا.. أشعر أنَّ الأرض التي أقف عليها ليست ثابتة أو أنَّ ارتعاشاً يعتري ساقَيَّ. لا أريد دخول حومة النشر ما لم أقتنع وأثق أنَّ ما أكتبه يخصّني، ويمثّلني، ويشير إليَّ.. دعنا نمارس النشر بطريقة اللقاءات والقراءات الثنائية. أعتقد أنها مناخات التوازن وفضاءات اليفاعة،

والإدراك.

وكان إنْ نزعنا قشرةَ الفتوّة واستجبنا لنداء الشباب.. صار الجميع ينظر لنا على أننا كبار فكبرنا؛ ولم نعُد صغاراً فصغُرت هياكلُ الأحياء التي كنّا نخترقها. صرنا نرى الأزقّةَ محشورةً ضيّقة، والبيوت ضئيلةً وطيئة متكتّلة، حتّى أننا شرعنا نتساءل كيف كان أهلنا يرتضون العيش في هكذا أعشاش. صرنا نرى بعضهم يتشبّثون بسكناهم فيما آخرون يهجرونها لبيوتٍ أكثر سعة وأجملَ منظر، في أحياءٍ ولدت حديثاً. وصرنا كلّما مررنا على بيتٍ تُرك وتذكّرنا ساكنيه تذكّرنا أيضاً الأستاذ ناهض الذي عادَ يوماً إلى مدينته كركوك تاركاً لنا بيتاً صرنا نحفظه فنردّده استعذاباً تارةً ، وحسرةً تارات: " لكِ يا منازلَ في القلوب منازلُ // أقفرتِ أنتِ وهُنَّ منكِ أواهلُ. ".

* * *

الساعة تُعرّي زمن الرابعة والنصف عصراً عندما قالت أرصفة محطة "السرفيس" لقدميَّ: تعالي.. الساحة الهاشمية تخلو إلاّ من الشمس تأخذ حيّزها الوسيع على المصاطب والتدرّجات، وترقص إشعاعاتها الساخنة في المدى المستطيل الشاغل وسطاً فسيحاً سيغدو غب ساعتين أو أدنى مراحاً لنفوسٍ توّاقة للتفرّج والاطلاع والتمازج.

الكازينوهات كثيفة الشجر يتراقص على كراسيها الفراغ؛ والظلال المتناسلة تنتظر قدوم المُتهيئين في المنازل والفنادق كي يمارسوا فعلهم اليومي في الحضور... أرصفة خالية لا يطأها اللحظة إلاّ عراقيون يذرعون الفراغ ويرمون بعيونهم الذابلة إلى دواخل ملأى بالأحلام

الموءودة، وذكريات حروب خاسرة، وجحافل آلام خلّفوها وراءهم في المدن المسيَّجة بأسوار المقابر الجماعية. يتحاورون بلغة الأمل الضائع والنور المطعون، والروح المُهشَّمة، والجيب الفارغ، والجهد المسروق، والحبيبة الطعينة، والأم الثكلى، والبنت الكسيرة، حيثُ النفي، والقهر، والسقوط، والقتل، والخذلان، والصبر، والإرهاق، والعجز، والانحطاط، والحصار، والهجر، والبربرية، والساديّة، وميكافيلي، وستالين، ونيرون، وعريان، وشارون، وhuman rights watch، و الـ UN، والجامعة العربية، واسطورة الذبح العراقي بسكاكين الإخوة الأعداء، وحكاية الضياع العراقية عند موانئ الغرباء الأكثر رحمةً / الأقل اضطهاداً. أُشاهد الجالسات على الأرصفة يبعنَ السجائر بعيونٍ قلقةٍ من سياط الملاحقة والممنوع. نساء عراقيات سرق الزمن المُر نضارةَ وجوههِن ورمى عليهنَّ أثقالَ الأعوام المتهافتة فظهرنَ أكثر من عمرهن الحقيقي.. السواد ثوبٌ دائم يرتدينَّهُ؛ وسحنة الفقد وشمٌ أبدي يغرز نصالَه في الوجنات والجباه، تاركاً للتجاعيد مهمّة الهجوم الصارخ حول العينين.. العيون قلقة حقّاً؛ والمفاجأة قد تحدث في أيةِ ومضة فتأتي شرطة العاصمة تنهال على رؤوسهن بهراوات الممنوع.. دربكةٌ من بعيد حدثت، وضرب أقدام أتت، وخبرٌ خاطف يحملهُ فتى مرابط عن بُعد جاء؛ نهضت على إثر تلقّيه امرأةٌ خمسينية رفعت صندوقاً كارتونياً يعرض بعض علبِ سجائر. نهضت بكل ملامح الرعب تبغي ملاذاً يبدو أنها جعلته مسبقاً ساتراً للتخفّي، وحسباناً للمباغتة.. نهضت؛ وبنهوضها المرتبِك ارتفع ثوبُها مع رفعها للصندوق فانكشفت صومعة القَداسة. ظهر الشعر الغزير مُحصّناً كسّاً ضمُرَ بين فخذين منكمشين،

وساقين محتقنين من جلوسٍ خاطئ لساعات.. لم أكن أنا الوحيد المقذوف بهذا المشهد السريالي، إنّما العديدون صُفعوا. بعضهم ضحكَ لمرأى لم يحدث إلاّ في أفلام " البورنو "، وبعضهم تأسّى؛ فيما امتصّه آخرون بعين اللامبالاة.. وحين دنوت رأيتها تلوذ في زاويةٍ تحتَ سلّمٍ صاعدٍ لفندق.. حملَقت في وجهي، ثم طفقت تسألني بارتباك: "هل ذهبوا؟".. "نعم!"؛ تفجّرَ قلبي صيحةً. وفي الأعماق انبثق صوت المرارة: "أمّا مشهدُ كُسِّكِ فلا. لن يذهب. ذلك الكُس الذي يقيناً أخرجَ ولداً أو أكثر سيق إلى محرقةِ الحروب المتعاقبة حَطباً بشرياً، أو جرّته أقبية السجون مالئة الوطن لتسقي عينيه عتمة الغياهب الأبديّة."

الانكسار / الذّلّة / اللوعة / الانسحاق / التهالُك / التقهقر يتبارى ظهورُها على الوجه المُحاصَر بينما الأصابع المرتعشة خوفاً تحاول الإمساك بعلب السجائر لئلاّ تنفلت من الصندوق فينفرط جهدُ الأيام ويتمرّغ غذاء المنتظرين جوعاً بوحل التجنّي.

مشرَّدونَ صراخاً؛ ومقموعونَ جهاراً أمام أعين النهم في التهام نضارة الوجوه، وسرقة الإرث، وانتهاك ما تبقّى من بصيص إنساني سحبوه امتصاصاً أو رشفاً أو اغترافاً.

تتوالى المشاهد، وتتراكم الحكايات: "لولا الخشية عليهم لصاحبتكَ!". يأتينني صوت كمال من بين ثنايا الآهات: "لا أبغي لكَ البقاء هنا. إنْ بقيت وواصلت الكتابة سيكون مآل ما تكتب في حضن الجارور؛ محنَّطاً، جامداً ؛ أو أن تبعثه للنشر فتغدو نصوصك مصيدةً تجرُّكَ إلى الانسحاق؛ وكلاهما موتٌ.. ما أُنجِزُهُ من لوحات يغدو نصيبه الركون على جدار السكون.. ولا أكتمُكَ فهي كالقنابل لا أعلم في أيّةِ لحظة

يُداهمون البيت فيفجّرونها في وجهي."

يخشى كمال على ولدٍ وثلاث بنات صاروا جنادل روحية تُثقِل عليه انطلاقته. صاروا شعاراً تحذيرياً يسحبه إلى قرارةِ واقعٍ كلّما فكّر في تجاوزه والهروب من مخالبه سُحبَ باستغاثاتهم ونظراتِ عيونهمِ المتوسِّلة في بقائه رصيداً يعينهم على مواجهة قسوة المُعاش من دينونةٍ لا تُرضيك بتوفير معادلة النَيل والحيازة الناجزة. لكأنّه يُناهض مقولة الله "المال والبنون زينة الحياة الدنيا"، مستبدِلاً إيّاها بقول الإمام علي: "لماذا كلّما كبُرَ عمري كثُرَت خطاياي؟ ".. لكأنّه يُراصف أبا العتاهية الصارخ في يباب الحياة البريّة: "لِدوا للموتِ وابْنوا للخرابِ!.. كمال! هذا العابث، الرافض، المُستهين كيف يستكين لرصاص الأيام تهاجمه من سواترها الصلدة لتُطيح بدفاعات صممَّ يوماً ما على أن تكون جبروتاً لا يُقهر إلاّ بإرادة منه. دفاعات يبدو أنها ضعفت فأضعفت يقينه بقدرةِ تجاوزها وركلها إلى عتمات التلاشي؛ وإلاّ ما الذي جعله يردّد يأسَ المعرّي في واحدة من رسائله التي وصلتني يوماً: "تحطِّمُنا الأيام حتى كأننا // زُجاجٌ لا يُعاد له سبكُ"؟

شارعُ الملك طلال يضمّني. المصلونَ أنهوا صلاةَ العصر وشرعوا يتقاطرون خارجين من جامع الحسين. أعبر إلى الجانب الآخر لأضع نفسي رقماً يجاور الأرقام السائرة، مولياً لعيني فسحة النظر المترجرج لمداخل محلات تعرض بضائع مكشوفة.. نساء مُحجّبات يرتدينَ السواد وقفنَ باتجاه محلٍّ يرفع لافتة " السلعة بدينار ". يتفرسنَ في المحتويات: عِدد مطابخ بملاعق وسكاكين وشوكات. أوانٍ معدنية وأخرى بلاستيكية.. زهور متناثرة تتفاوت بأشكالها والأحجام، تتصارخ

بالألوان.. قناني عطور فاقدة المناشىء تجاور صوابين غسيل لا نكهة لها. قبّعات وأربطة. دُمى وألعاب.. تقفز طفلة بثوبٍ موشّى بالدانتيل؛ جدائلها سائبة تقافزت مع حركةٍ نقلتها إلى دُبٍّ يطول عليها، احتضنته وجاءت به متعثرة، تصرخ: ماما، هذا لي! هذا لي. فتضحك المرأة الشابة، وتجاريها عجوز. قليلاً وتخاطبها: امسكي ابنتك يا ابنتي، وأرجعي الدمية لمكانها... توقظ ذاكرتك التعبى ملامح نجاة. تروح تنثرها على الوجوه. وجوه النسوة القادمات لإشباع الرغبات يصطحبنَ الأزواج؛ والفتيات يرافقن الأمهات والآباء. تتساءل فلا تجد سوى الخيبة.. وتبقى نجاة نغمَكَ الضائع وشعرك المُستلَب، المسروق عنوةً... تصطدِم برجلٍ فيتوقّف. يُحملق فيك. تهمُّ بالاعتذار، فيبتسم:

- عراقي دايخ!

ومنفعلاً تنتفض:

- وهل أنتَ ملاك؟!

يوَّسع ابتسامته؛ يرد ببرود:

- لا.. عراقي مثلك!

تقف مبهوتاً، لكنَّ الرجل العراقي يواصل سيره، بينما حركة المارّة تحاول إزاحتك.تستدر يساراً فيتلقّفك الفيء. تحاور وجهَك أنسامٌ آتية مع انحدار المرتفع المنشطر شارعين. لم يتبقَّ على مقهى العاصمة سوى مجموعة محلات بتجاوزها ستتاح لكَ فرصة زجّ النفس في ظلمة السلَّم المُرتقي صوب عبد الرحمن المُنتَظِر.

الخطى تقودني إلى السلَّم. والسلَّم يرتقي بي إلى جوف المقهى.. روّاد قليلون، لم أبصر فيهم عبد الرحمن. جلاّساً فرادى رأيتهم؛ يتداولون

الفراغ صامتين لأنَّ الحوارات انتهت، والرغبةَ في كلامٍ يمكن أن يكون أثيراً انصرفت... أتَّخِذُ طاولة الأمس منتظراً النادل يأتيني بقدح شاي يفتح مغاليق الارتياح ويطرد أوبئة الهموم المتراكمة عند جادّة الذهن.. أتطلَّع لمدخلِ المقهى علَّ عبد الرحمن يطلُّ بطلعته الغريبة. لم يساور المخيلة أنْ أشاهده بذلك المظهر المتغيّر، المتحرر: شعرٌ يتهدّل ليمس الكتفين، وقميصٌ أحمر فاقع اللون تُطعِّمه دوائر ومنحنيات. كثيف اللحية والشاربين.. أجواءٌ اجتماعية غربية اختطفته..أجواء تمنح هامشاً فضائياً وسيعاً للحرية، وتضمن حقوقاً عريضة للفرد. إنَّ السنوات الطويلة في "لندن" وهبته غنى ثقافياً مثلما جعلت منه محاوراً نشطاً متمكّناً، وكاتباً مسموعاً ومقروءً. إطلالته من على الشاشة الصغيرة في برنامجه الأسبوعي "النادي الثقافي" تمغنط الكثير من المشاهدين، لاسيما أولئك الباحثين عن نافذة معرفية تلبّي نزوعاتهم وسط برامج ومسارات باهتة تغلب عليها صفة الإشباع الوقتي للذائقة؛ متعة آنيّة بلا حصاد معرفي ولا شعلة نور تُختزن ليوم العتمة.

ثرّاً وواقعياً كانَ حديثه بالأمس. عكَسَ ما تطبّع به سنوات غربته؛ وعرَضَ عمق قراءات تداولها. نسي عندما حاولتُ استثارته لتذكُّر أسماء كان لها حضور زمن علاقتنا البعيدة. نسيَ الأسماءِ والوجوه؛ لكنه لم ينسَ الوطن.

- العراق الدولة هنا - وأشار إلى قلبه - أمّا السلطة فهناك، تحت - وأشار إلى حذائه -.. القتلة والسفلة والمأبونون هناك مكانهم. يجب أن يُسحقوا كالخنافس.

وصدمتني عبارتُه المُشددة: " إنَّ يومَهم لقريب.. قريب جداً، يا

مبدر.".. لم أشأ الاستفسار. لعلّي حسبتها عبارةً مارّة كما العبارات المتحررة من روحٍ تضمرُ غيظاً. كدتُ أرد: " لا أظُن. ولا أتَّفق معك. تلك سلطة كجبلٍ فولاذي؛ زحزحتُه أقرب إلى الاستحالة. هذا ما شاهدته وتلمَّسته أيام دخولي واطّلاعي. سلطة تقيم هيمنتها على جوع الناس وخوائهم. العراقيون لا يفكّرون الآن إلاّ بما يوفِّر لهم لقمة اليوم بينما الغد مُضببٌ يلوح لهم بمفاجآته المُفزعة. لقد تخلّوا عن القدرة الغيبية التي ظنّوها تعينهم يوماً؛ وعندما تقول أنَّ الله قادرٌ على كلِّ شيء يردّون عليك: إلاَّ على عريان، فهو عاجز وخائف ومدحور.

دكنة المدخل ولَّدت " علي الزرّوق " بحقيبته، يصاحبه مصطفى العارف يتأبَّط كتاباً ومجموعة أوراق.. نظراتهما المتحرّية استقرَّت على حيثُ أجلس. رسما ابتسامةً عريضة:

– سيهدأ عبد الرحمن إذاً.

– أين هو؟

– تأخرَّ قليلاً. كنّا سويَّةً، وتخلّفَ بسبب لقاءٍ غير محسوب.. قال اسبقوني ستجدون مبدر في المقهى ينتظرني.

ولجنا غمار الحديث الثقافي العام ثم إلى الاهتمامات الشخصية والمشاريع. أوضحا رغبتهما في زيارة ليبيا بعدما تعرّفا على حركة ثقافية ناهضة هناك. تطرّقَ مصطفى العارف لتأثير الإشعاع الثقافي المغاربي في مجال الدراسات والترجمات مثلّما تحدّثَ عن الأنشطة العربية الواسعة في الساحة الثقافية السويدية حيثُ يُقيم، خصوصاً في سنوات ما بعد حرب الخليج الثانية يوم لجأ الوفير من المبدعين العراقيين إلى أوربّا.

– المبـدعون العراقيـون لا يهـدؤون. انبثقـوا مـن رحـم الرمـاد كمـا العنقاء. ثوَّروا الإبداع وفجَّروه؛ وما رضخوا لماموث السلطة والحصار، ولـم يتجاوزوا المحنـة بـالخرس. كنّـا فـي السويد وكـان غيرُنـا فـي بلـدانٍ أخرى خصوصـاً الأوربيّـة، وعلـى امتداد أعوام نمارس حركـة ثقافيـة لا تعدو كونهـا لقـاءات، ومـن عـامٍ لآخـر؛ لا يقتصـر جهدنا سوى علـى معـرض يُفتـتح هنـا أو لقـاء يحصـل هنـاك. لكـنَّ الحضـور العراقـي وبالكثافة المؤثرة من الخلاّقين هذه الأعوام فتح أبواب النشاط فانتشرت حمّى ثقافية لفتتّ انتباه مثقفي السويد: عرباً وأجانب.

– ومن هنا ولِدت فكرة المعارض والأناسي المشتركة للفنانين العرب والسـويديين.... أكملهـا علـي الـزروّق فأثـار انتعـاش مصـطفى وشـعوره بالزهو كأحد أقطاب هذا النشاط مَن أثبتوا وجوداً وحفروا تاريخاً.

وكما لو أردت دعم كلامهما :

– هذا يعني أنَّ المعرض المقام في قاعة الفينيق إحدى الثمرات؟

– بالضبط. سنزوره اليوم؛ وسنجد أحمد كامل مديراً له.

* * *

بـدت الصـالةُ فارهـة؛ تسـترخي تحـت أضـواءٍ هادئـة . واللوحـات المعروضة ظهرت بوجوه تُقدِّم الدعوات. عوالم تفتح آفاقها علـى الزائرين المحتشدين وسط ضباب متصـاعد أحدثتـه أعواد بخور هنديـة أُشـعِلَت وعُلِّقَت بأعداد وفيرة، مشيعةً أجواء شـرقية تتمـاهى وعـزف كلاسيكي غربـي يتضـام مـع مـا تحتويـه لوحـات ثلاثـة فنـانين سويديين ولعوا كثيـراً بسـحر الشـرق، ورحلـوا هـائمين علـى جنـاحي الرؤيـا الخرافيـة السـريالية

لحكايات ألف ليلة وليلة؛؛ تتداخل معها فحوى لوحات لأربعة تشكيليين عرب: عراقي وتونسيان، وسوداني.. ذلك المشهد الذي يشبه كرنفالاً قدِمَ من دنيا الأمنيات؛ ولقاء حُسِبَ لهُ حساب التطلُّع المغمور في هفيف الأحلام... تلك الوهجة الدافقة من منابت الخلق البشري تسعى للمِّ أشتات هجر تسببّت به ساديّة عربية وضيعة سادرة في الغي، مستلّة من رحم البداوة التي عفت عنها القرون .

العيون ملأى برفيف الرغبة في النهل والاغتراف. القلوب أزهار تفتَّحت فطفقت تعبُّ من رحيق التواصل الإنساني الحضاري. تبتشر سحنات وجوه الغرباء مشاركين أو زائرين أو منظِّمين تعبيراً عن ولهٍ؛ تعانقها نظرات القادمين على سحابات الشوق للتعرُّف على اشتغالات لم تعرفها مسبقاً أو هي قرأت عنها فقط أو وعِدت بما يزيد لسِعة شغفها المعرفي سعةً تنتظرها. نظرات تدخل فيض الحوارات مع نتاجات تعرض اعتمالات دواخل إنسان الغرب واهتماماته؛ تقيّم تجربة مشتركة وتدرس جهداً مصاغاً بلغة الجسور والترابط الحسّي للمجتمعات مُقدِّرة فعل الإنسان ومقيِّمته.

المصابيح المنتصبة بأبعاد هندسية مدروسة بفنيّة عالية توجِّه أضواءها صوب اللوحات عارضة جزئيات الأعمال وتفاصيلها، ومثيرةً نزوع الجموع المتطلِّعة للوقوف والتحرّي / القراءة والتأويل / التأمل والمتعة... وأسمع من بين همس الحضور جملة التعليقات.. شابّان يتحاوران، أحدهم: "ما زالت تأثيرات "فان كوخ" على الفن السويدي بائنة؛ وصلتهم العدوى من سهوب هولندا." فيرد الثاني بشيء من تقليل حدّة الرؤية: "أرى الطبيعة تهيمن. لا يوجد هامش للانسلاخ؛؛ والفن

تأثر وتأثير. ألم يكن كوخ نفسه متأثراً حدَّ الجنون بالفن الياباني؟".

تذكّرتُ كمال.. نعم تذكّرتهُ ..

كان الأَولى إن يطلق صفّارة الإبداع لماراثون لوحاته ومواضيعه في هذه الصالة لتبوح بتجسّدات مضامينه ورؤاه ؛ تضاريس روحه الراكضة عدوا باتجاه الشموس الملوّنة؛ تفاعلات أعماقه الملأى بالنصوص والخلق المثير. يعرض دم ريشته النازفة، وعنفواناته اللونية غير المسبوقة عنوانات لفنّه الحبيس. ينتزع الوجع لزرعه حدائق من أمل. أمل ماراثوني لا ينقطع لأجلِ أولئك المنسيين المُهمَّشين على قارعة الحصار المزدوج.

على مرأى من التأمل والتطلّع / الدهَشِ والتحسّر؛ بين هذا الكرنفال – المفقود هناك في وطن الجراح – أبصرُ أحمد كامل يقف في مدخل الصالة يستقبل الزوّار "لم نشاهده عندما دخلنا!" قال مصطفى، مؤكِّداً انهماكه في إنجاح العرض وانشغاله مع المسؤول الثقافي الأردني مُفتَتِح المهرجان اللوني، العالم ألاحتفائي المُصغَّر.. يبتسم بأناقة مُكرَّسة لغرضٍ كهذا ردّاً على الثناءات وحسن الإعداد؛ بل والظاهرة التي لم تشهدها عمّان منذ أعوام باستضافة مشتركة لنشاط فنّي عربي / غربي.

سحبني مصطفى:

– لنحييّه.. انثر عطور رؤيتك.

معاً تحركنا. وقبل أن نمد الأكفُّ مصافحةً وتحيّةً لمحنا عبد الرحمن، مستديراً إلى مصوّر برنامجه ليحفِّز كاميرته كي ما تدور وتصوِّر.

علـى سـحابات ابتسـامات عريضـة وأعمـاق بهيجـة قـدّمْنا لأحمـد التحيات والاحتفاء فجابهها بالانشراح ومسوح الرضا على نشاط أنجزه كرسالة يروم بقاءها محفورة على جدار الإبداع العربي الذي يبغي لـه إثبـات نهلـهِ للثقافـات، وانفتاحـه عليهـا. لا يجيـز الارتمـاء فـي دائـرة الانغلاق والبقاء تحت خدر وطأة العماء.

يتجوَّل عبد الرحمن بين الحضور مصوِّباً نظره إلى اللوحات يقتنص اللحظات فيشير لمصورِّه التقاط ما يقررُّه مستحِقّاً للتناول. ثم يترك لـه تسجيل حركة الزوّار وابتهاجهم.

أمـنح نفسـي فسـحةً للتحرّك منفرِداً بـين المتطلّعين.. أنـاس متفاوتـة الأعمار، متباينـة المظـاهر. شباب تصـاحبهم شابّات يقاربنهم الأعمار، يتفوَّهـون بلغـات غيـر عربيـة. وآخـرون عـربٍ؛ سـحنتهم السـمراء تفشـي عربيَّتهم. اللوحـات تتعرّى، تجسِّد فحواهـا نصوصـاً منفتحـة. أتفرَّس فـي فضـاءاتها بحثـاً عن شيفرات تقود إلى تأويل قد أُكرِّسه موضوعاً، وانثره قـراءةً.. عطـرٌ يُـداهم أنفـي تضـخُّه فتـاة دنـت منّـي تتأمـل لوحـةً لغابـةٍ بأشـجار ضـخمة، جذوعُها متقاربـة، وأغصـانها متداخلـة. ومـن مـا وراء هذا التداخل التشابكي يتراءى وجهُ طيفٍ لوجهٍ أنثوي كما لو كان سجيناً خلـف قضـبان صـارمة يبحـثُ عـن مُخلِّصٍ؛ أو كأنّـه ينـده بمـن يبـدي استعداداً لاستماع ما تبغي الشفتان الإفضاء به.

العطـرُ السـائح حـولي، والملامـح الشـاحبة أمـامي قرّبـا لـي شـخص نجاة.. لقد شممتُ عطر الأنثى من جسدها يوماً؛ وترجمتُ هذه المسوح الهاطلة من طيف القسمات.. ها هيَ نجاة أتحسسُّها / أشمّها / أتلمّسُها تطـوف حـولي، تخترقنـي، تتمـاهى بـي، وتتمـازج مـع انعطافـات شـغفي

لاحتضانها.

الفتاةُ ذاتُ العطر ابتسمت فاسحةً المجال لاستدارتي المفاجئة.. الطيف السجين خلف لحاءات الشجر وبين الأغصان راقبَ تحرّكي. أهمُّ باحثاً بين الفتيات المنشغلات بحفاوة المشهد وبهجة اللقاءات علَّ إحداهُنَّ تقول أنا نجاة.. يحتك كتفي بكتف عبد الرحمن المنهمك في المتابعة، فيضحك. يسألني: ما بك؟!.. أينَ أنت؟! يسأل عنكَ على الزرّوق؛ افتقدَك!.. "" هنا.. هنا!! "... وأنسلخ. أبحث بلا هوادة.. غير أنَّ التملّي والمتابعة والوهم سلموا بيدي مفتاح الخيبة بعدما هشّموا واحداً من سواتر دفاعات الرجاء.

* * *

تلك الليلة سكرنا على ثمَل اللقاء والنجاح الباهر للافتتاح. الحشد لم يتوقّعه الجميع؛ تركَ أثراً جميلاً وفاعلاً في نفوس الفنّانين السويديين، ومن ورائهم ملحقهم الثقافي في عمّان، مثلما أبهج الوسط الثقافي الأردني. حسبوه أول معرضٍ يحظى بحضور فني ومعرفي وفير.

تخلّفَ المصوِّر ونحن نستقل التاكسي صوب شقّة عبد الرحمن؛ غير أنّه لم يتأخر كثيراً؛ إذْ ما أن دخلنا الشقّة وجلسنا لاقتناص لحظات نفض التعب وطرد أشباح الضوضاء المثيرة في الشوارع ونفير العربات حتّى رنَّ جرس الباب ودخل يحمل أكياساً هبَّ مصطفى لحملها بينما جاء صوت علي الزرّوق من بين قرقعات الصحون والأقداح يسأل إن كان فارس قد وصل.

مكعّبات ثلجية حواها إناءٌ زجاجي مع أقداح رُصِفَت وسط صينية

وضعها علي وسط الصالة وهو يقهقه: "سنسحقهم هذه الليلة! أولاد الزنا.. سنطلق عليهم رصاص احتقارنا.. أولاد الكلاب!.. هيّا؛ فارس أخرج قواريرك وأملأ..".

تحرك مصطفى فاتحاً القوارير، وطفق يسكب سائلاً مائيّاً رائقاً سرعان ما عكّرته مكعبّات الثلج فأظهرته مستحلباً:

- عرق؟..

- وسوري. احتفاءً بأحمد ونجاحه في إدارة العرض.فهو لا يحتسي إلاّ عرقَ بلاده سوريّا.. فاه فارس، باعثاً غمزةً من عينه لعبد الرحمن.

وابتدأت الأقداح وسط رفقة افتقدتها كثيراً.. لم يحصل هذا السيناريو منذ زمن طويل. لعلَّ آخر مرّةٍ حدثت قبل خمس سنوات! يوم دعاني صديق عراقي يمارس القراءة ويتسكّع بين أماسي الأدب المقامة هنا وهناك؛ في طرابلس أو المدن الأخرى. التقيتهم! شبّاناً يحملون هوية الانفتاح ويجاهرونَ بحبٍّ ليبيا والحياة الحرّة.. قرأتُ فيهم رغبة الأدب والكتابة، وحصدتُ سيرة المرح والدعابة، كشفها فعل "الويسكي" المُهرَّب الذي لا أعرف كيف جاءوا به في وطن يحرِّم تداول المشروبات الروحية. أربعة قارورات سُكبَ سائلها الذهبي في الأقداح واندلق في الأفواه ففجّر روح الشوق للأيام الخوالي.. مبتدأ الحديث جرى عابراً؛ ثم انتقل إلى الشعر ودارت الأسئلة عن بواعث وكيفيّة كتابته.

وقتها كنتُ مهموماً ومحموماً لانقطاع رسائل نجاة؛ ومكتئباً لصور شعثاء كانت تنبثق على ثرى المخيّلة؛ إذْ مرّت ستة أشهر وأنا بانتظار رسالة ولو واحدة هي التي لم تعتد التأخير والانقطاع. كل شهرٍ كنت أستلم طائرها المُحلِّق تأتيني بفيض كلماتها: عن أحوالها وظروف

تواصلها؛ عن حال أمّي وصرفها الأيام بعيداً عنّي فتسقيني جرعة للأمل وأغترف حفنة من الطمأنينة.. انطلقتُ أُفضي بما في القلب من بوح كإجابة على استفهاماتهم. تطرّقتُ إلى أنَّ الشعر قبلَ كلِّ شيء حاجة، وشحنة تبدد ضرورات انفجار الإنسان البشري وتعيق قراراته في التدمير الذاتي والانتحار المقبول. رحتُ أقول:"لولا الشعر لرأيتم الشعراء مجانين، يجوبون الشوارع والطرقات بأسمالٍ خرقاء ومظاهر منفرة."

وما أن مرّت ساعةٌ حتى انقلبَ حوارُ الانشراح لنجاح المعرض والانتشاء بجهود "احمد كامل" الذي انضمَّ إلينا قبل ربع ساعةٍ صحبة رجل طويل ونحيل، أصفر البشرة ؛ رحّبوا به وعرفت أنَّ اسمه "ضيف الحساوي": شاعر سعودي يكتب بنبض الألم ويتوجّه شطرَ القرّاء بلسان اللوعة.. قلتُ انقلب الحوار إلى سِباب وشتائم انصبّت على يافوخ الزعامات السائرة ببلدانها نحو اقيانوسات التخلف والتجويع.

هتف العارف:

- إلى الجحيم أيها المولودون من رحم العمالة، ولتحيا تونس خضراء؛ جنّةً لنا نحنُ أبناؤها الأنقياء، الشرفاء، المزروعين على يافطات الغربة، الباحثين عن لقمةٍ نقتطعها من جهدنا الصبور لنهديها لأهلنا الجياع في الوطن الحبيب.

فوجئتُ بعينيه تتضحان دموعاً يسكبانها سيحاً على الوجنتين فيطأطئ الرأس، وينتحب. صرخ الطعين الذي بداخلي: "آ. هذا رجلٌ مثقلٌ بجراح الوطن، ومهتوك بسكاكين البعاد. إنّه يشبهني.. بل يشبهنا!

- وماذا يقول هذا الذي أمامك؟!.. نطق الحساوي من ما وراء إكمال احتساء قدحٍ ثالث عبّه سريعاً كأنه يخشى هروب الكلمات من

فمه فتنتصر الخيبة عليه.

– ماذا يقول هذا الذي يعوم ويغوص في بحرٍ من نفط وليس بيده قطرةً يتباهى بامتلاكها؟.. ماذا يقول عن شعبٍ نصفهُ يهيم ويضرب في صحراء عتيّة، بدوياً يلاحق الجرابيع والأضباب، يصيدها سعياً لإدامة بقائه على قيد التهميش؛ ورُبعهُ يتسوَّل لقمةَ العيش على يدِ حفنةِ سُرّاق أعلنوا امتلاكَهم للوطن ونصّبوا أقزامهم أُمراء رافعين بكل مَراءٍ يافطةً تحمل اسمهم،، ماحين هوية الأرض الأزلية بممحاة امّيَّتِهم؟

– لا تبالغ، يا حساوي!.. قاطعه العارف. هكذا تصف سارقيك! فبماذا أصف أنا قاتلي؟

شاهراً سيفَ السخرية، ومطعوناً انتفضَ الحساوي:

– خدعوك أيها المثقّف؛ وجعلوك تظن أنّهم أفضلَ من قاتليك.. هذه هي الطامّة. تلفّعوا برداء الدين، وتبرقعوا بشال التواضع.. غسلوا الكعبةَ المشرّفة بسلوك الخدم أمام الكاميرات وتسلّلوا بوئيد خطى الذئاب يعانقونَ المغفّلين من المسلمين كي ما تقول أنتَ بلسان الكاتب قبل الإنسان البسيط المُغرَّر به أنهم أفضل من غيرهم.. أيها المخدوع الكبير.

احمرَّ وجهُ العارف؛ وسنوات هروبه الثقيلة ملاحقاً من مخابرات بلده أظهرته أكثر إرهاقا. جهِدَ في جمعِ جملٍ للرد لكنّه قوطع من عبد الرحمن: "اتركوا حواراً يجعل موضوعه طُعماً لتناحرنا.".

انسحب المصوّر فارس؛ وتبعه بعد وقت علي الزرّوق والعارف.. ثم تركنا أحمد والحساوي إلى منتصف الليل فسمعنا ساعةً تدق دقّاتها الرنينية من بابِ شّقةٍ مجاورة فُتحت للتو. جاء صوتُ مذيعٍ لبناني من

جهازٍ تلفاز صائت يُعلن تباشير صباح يومٍ تالٍ فقفز من ثرى الأعماق صدى عنوان رواية قرأتُها عديد المرات تحمل عنوان "صباح الخير يا منتصف الليل" لروائية من جزر الأنديز تحكي معاناة بطلتها التي "هي"، ونظرة الدونيّة التي تجابهها وسلالة المهاجرين من قبل الآخرين.

تركَنا الجميع.. أنا وعبد الرحمن والقناني الموشكة على الفراغ، وصمت يختلس لحظات تيهنا في مفازات دواخلنا المتلظّية؛؛ قليلاً وانتفضتُ:

– احكِ لي، يا عبد الرحمن.. القلب يهفو لسماع ما صرفته في أعوام افتراقنا. إنَّ مسبحة مودّتنا انفرطت قسراً؛ وعشقنا لمستقبلٍ جميل خُطِّطَ لأنْ ينهتك بخناجر البغض.. آ، عبد الرحمن.. لقد مزّقونا..

يرفع عبد الرحمن القدح إلى فمه، ويُفرغ ما فيه دفعةً واحدة.. تتغضّن جبهته وتحمر عيناه:

– مزّقونا في الماضي نعم.. الماضي كان لهم، أمّا المستقبل فلا.. لن يكون لهم قطعاً.

استكان الرأس مُطأطَأً، ثم ارتفع. رأيتُ قدْحاً من نار، أو شرراً من حقد.. رأيتُ دمعاً يمتزج بألم، وسهوم يشبه عودةً إلى الوراء؛ إلى ماضٍ مُسترجَعٍ:

– أيُّ خرابٍ قادوا إليه أولئك القتلة؟! وأيّةُ فجيعة يتجرّع أهلنا مرارتها يوميّاً؟.. ما معنى أنْ نظلَّ نتطلّع من بعيد ونراقب حارقين مهجنا على اكتواء تتابعي، تدريجي سيقودنا حتماً إلى الفناء؟... هكذا كانت السنوات تنهال عليها بأسئلتها، يا مبدر.. أقفُ أياماً طويلة في حومة التهجّس والقلق وهما يبنيان أهراماً من الكره داخلي فانطلقُ

أتساءل من جديد بمازوشيّة صاعقة: لماذا استمرُّ في مشاهدة المأساة دون أن أضغط بنوابض الضمير للانتقام؟.. دونَ أن أبحث عمَّن يساعدني ويقف بصفّي لنصرةِ شعبٍ يعاني تحت ساديّة نظر الأخوة الأعداء؟

– لم يكن ثمّةَ حلٌّ، يا عبد الرحمن.. الأبواب مغلقة؛ يقف عندها المنتفعون من انسحاقنا، المعتاشون على صدى آلام جراحنا.

يعدُّ عبد الرحمن قدحاً آخرَ.. يرفع كفّاً ليشاركها حديثُ غضبٍ يبدو أنَّ كلماتي أسهمت في تأجيجه؛ وبالسبابةِ طفق يفوه:

– هذا ما بقيتُ لأعوامٍ أُردّده مع ذاتي الحياديّة العاجزة. لكنَّ الخطر الداهم على وطني ولَّدَ شعاراً ناريّاً أذاب الصقيع المهيمن على مجرى الحواس لدي. كان هذا الشعار يهتف باتّزان وثقة: "لا يقضي على الظالم إلاّ مَن هو أظلم. ولا يواجه القرصان الأعور إلاّ قرصان أعور، أشرس وأفتك.".

– ما فهمتُ!

– أمريكا..

توقَّفَ مؤشر الخدر في تلافيف الدماغ؛ وتراجعت جيوش متعة الجلسة. تعثّرت اللحظات التي حسبتها تاريخية كحفرٍ نافذ على جلمود الذكرى.. ظننتُ فتاة الخمرة بدأت غوايتها وأفانينها؛ أو جاءت دليلة المحتالة لتختطفه من سهوب الحوار الثنائي الودود لترميه في مغارة الفقد والرقاد.

– وما دخل أمريكا في سكرتنا؟!

– وبريطانيا معها.. جاء الكلامُ أشدَّ إصراراً.

– وروسيا؟!.. قلتُ متفكِّهاً.

– إلاّ الروس؛ العقارب.. خدعوا جيلَ آبائنا فلن نسمح لهم بخداعِ جيلنا... خُذ أبي! ماذا جنى من اهتماماته وارتباطاته بالحزب الشيوعي المُسيَّر من موسكو؛ البعبع الفارغ سوى الملاحقة. يُجَرجَر ليلاً من بين قلقِ أمّي والهلع المكتسح كيانات أخواتي وإخوتي وهمُ يبصرون أولاد الأبالسة يسوقونه مكبّلاً ليزجّونه في سجن الإهانة والاستهانة فلا يفعل رجالات موسكو الأشاوس شيئا... ويخرج بعدما يصطلي صدره وظهره، وتكتوي أعضاؤه بآلات تعذيبهم الصاعقة. يخرُج ليُعاد من جديد.. كنتُ أراه يجرّ سنواته المُثقلة بالعذابات وجنادل الهموم ولا ينبري مَن يواسيه؛ فأتألَّم؛ بل أبكي في سري.

يُفرِغ بعضاً مما في القدح.. يتحسَّر:

– كم من الأحلام تولَد وتروح ترفل على كفِّ المخيلة سعياً للتحقّق.. ضاعت أحلام آبائنا فدعنا لا نغتال أحلامنا بأيدينا.. هكذا شرعتُ أُحاورَ نفسي.

– لكن أمريكا هي مَن جاءت بهم!

– وهي التي ستقصم ظهورَهم... الذي أدخلكَ مطمَئِناً متسللاً من الشبّاك يعرفُ كيف ينتزِعُكَ لصّاً سارقاً وقاتلاً من الباب.

أنظرُ إلى عبد الرحمن وأتأسّى. لم يكن كما أراه الآن. عرفتهُ قويّاً، صلباً، عنيداً. أتساءل: كيف ارتضى سلخَ أفكاره؛ وكيف تاجر بالمبادئ مع مَن كان ينظر لهم أعداءً وإمبرياليين؟.. أتذكّر! قافزاً إلى ذاكرتي المخدّرة فحوى فلمٍ هندي شاهدناه يوم كنا بعمر البراءة يصوِّرُ أُمّاً عفيفةً دخلت مسارب الغواية والدعارة اضطراراً، ابتغاء إطعام أطفالها

المسحوقين برحى الجوع والفاقة في عالمٍ لا يأبه؛ لا يرحم... وها هو صديقي يؤثر بيعَ كلَ شيء لديه من أجل إنقاذ وطن يحترق، وشعب يُباد، وتاريخ تُطمس حضارته وتُسرق لتُباع في مزادات السحق البشري. كلماته ذكّرتني بمقالاته المُلغَّمة بالوعيد والثقة بقدوم بركان ماحق؛ مثلما أعاد لي مراجعة فحوى برنامجه الثقافي، المتلبِّس لبوس الثقافة والمتَّجه صوب المنحى السياسي حيث البؤر الساخنة.. وهل غير العراق كذلك؟!

أتذكَّرُ كمال.. أتذكّرهُ تحت طائلة العقاب اليومي القسري وعينيه المضببَّتين بغشاوة اليأس أول يومٍ التقيته في زيارتي الأخيرة: "المُعضلة أكبر ممّا نتصوَّر، يا مبدر؛ والخديعة أخطبوطية مزدوجة لا يفاعة للوطن على تقويض دهائها وتفكيك خيوطها." وأعود إلى عبد الرحمن المندَفِع لجعل طاقته مُسيَّرة بيدٍ أجنبية غريبة؛ هو الذي كنت أتأمل فيه توظيف جهوده في أوربا حيث الأجواء مهيأة للنضال بتحرك لا تقيّده المُعيقات، ولا توقفه التابوات مثلما أملتُ في كمال إنتاج ما يمكن إثارة الكوامن وتحفيز القدرات في وسطه الثقافي على تقويض معاقل الظلم،،، وأنا المأسور بهاجس عربي لا يمنح فسحةً للإفصاح عن مظلوميةٍ ولا يهب نسمةً للإقرار برأي أو طلب حق، ولو بدافع النُصح.

– وماذا عنكَ؟... فجَّر سؤالَهُ كقنبلةٍ في وجهي.

الصمت تسيَّد الفضاء وطغى على الموقف قبل أن أعيد توازني المُنتهَك بآخر قدحٍ أفرغته في جوفي:

– أنا!.. أنا استكنتُ للواقع العربي. أكتب بحياديّة كاذبة وكلمات تتوء مرتبكة رغم إدراكها الهدف المرصود إذْ القرّاء يتابعونَ تراصفها

المتشكِّل نصّاً، وتعطي رضاها ورغبتها في التلقّي المُمتع والتقبل المؤثّر. ولا أخفي عليك؛ الرقيب الداخلي متسلّط يشهر سيفاً قاطعاً أمامي، إقراراً بأنَّ أذرع السلطة الدموية ستطالني بسهولة في وسطي الذي أعيش.

* * *

بعد عشرة أيام من الالتقاءات والافتراقات على جغرافية عمّان، والشقّة تضمّنا للرقاد ليلاً والحوارات المتقطّعة نهاراً جاءني عبد الرحمن بموعد الرحيل.. رحيله إلى لندن حومة نشاطه الثقافي ونضاله السياسي، فقد أُعلِمَ بضرورة عودته قبل تاريخ انتهاء مهمّته في الأردن بسبعة أيام. إذاً عليه السفر بعد ثلاثة أيام.. ثلاثة أيام فقط يجب أن أعيشها معه ليعُود الفراق مجدداً، ويبتدئ ماراثون الاغتراب: فلا أصدقاء نلتقي، ولا خبر عن أحباء نعرف.

استرجع حواراتٍ وكلاماً لم يُثِر الانتباه لحظتذاك؛ أو أنّه ضاع بين تلافيف لحظات الخدَر الأخيرة.. عاد كلامُه كقصّةٍ يحكيها مستلّةً من أصقاعِ الحلم أو مقتطعٍ قُرِءَ من رواية هاربة، أو كلامٍ فاهت به ذات ناطقة من فمٍ يبوح لأُذنٍ تستمع، ينقلهُ عبد الرحمن فيفرده إزائي دلالة وجودنا غير المرغوب من قِبل الآخرين؛ نحنُ مَن نعتز بإرثٍ نحمله بكل ثقله ووطأته على كواهلنا ونجاهر به فخراً وخيلاءً. فإذا هو بعين الناظرين من بعيد منبتُ مَسخرةٍ، ومعلَمُ تفكّهٍ. أعتقد أنَّه حدَّثني عن صديقةٍ له: إنكليزية وتعمل مدرِّسة في تاريخ اللغات، وأظنه قال اسمها "أليس". أحبته كإنسانٍ ولم تحبّه كعربي يمشي كما الطاووس المغرور،

المخدوع.(هكذا كانت رؤيتها لهم). سمعت منه الكثير عمّا كان يتحدّث، وما تركَ وراءه من إرثٍ إنساني غيَّر العالم وانعطف بالوجود صوب آفاق نقلت البشرية إلى تخوم الوعي بالذات ونواصي الانطلاق صوب بناء دنيا لا تشبه الذي وراءها.

في لحظة غضب، وتكرار اسطوانة ينثرُ فحواها افتخار عبد الرحمن جابهته بامتعاض:

- كفى.. كفى! أوقف معزوفتك المشروخة ودعني أرسم صوتكم بعين الآخرين... أنتم العرب كذّابون، مراءون. تتبجّحون بما ليس فيكم. تحسبون أنفسكم أمّة متسامية، مع أنكم جئتم من براري التشرذم وما زلتم تعيشون بعد كل هذه القرون شراذم ونتفاً تسمّونها قبائلَ. تتلاعبون بألفاظ اللغة؛ تزوّقونها بالبلاغة الزائفة والصور الناشزة الملامح. عصابات ترتكبون الإغارة في ما بينكم، وتسمونها تبجّحاً وبلا حياء واستحياء غزوات، رديفةً لكلمة انتصارات. تمارسون القتل لأبناء جلدتكم فتعلنون الانتصار.. سُحقاً!!

بدوتُ، يا مبدر - أظننّي سمعته يقول - كمن يحمل عاراً على كتفه، ويسعى لإخفاءِ عورة اكتشفها اللحظة مع أنّه كان يحسبها اعتقاداً إحدى صوامع الفخار، ويجاهر بها كشهابٍ يدلِقُ نوراً وهّاجاً لإضاءة درب عتمة ضياع البشرية.. ما هذا الذي تقوله هذه المستهينة؛ المصرّة على سلخ هويتي ورميّ في بريّة الإحساس بالخواء؟. كيف تتجرأ على فكرٍ ودينٍ يردد فحواه الملايينُ اعتناقاً صدوقاً؟.. ترى أيكون من العقلِ تصديق رأيٍ تطرحه متّزنةً، واثقة، وتكذّب جموعاً تركع وتسجد باسطةً إيمانها على ثلثي كرة الأرض؟!

كطفلٍ يرفض نصيحة وتوجيه مَن يكبرونه انتفضت:

- نحنُ أمّةٌ جاءت أفكارُها لتقول للإنسان: " كُنْ حراً " وانطلق.

- ومَن مِن أمم الأرض قالت للإنسان كُنْ عبداً وانخذل؟!... جاء ردُّها الساخر سريعاً.

أخذنا الكلام.

أخذنا بعيداً..

تذكّرتُ أنّي ثرثرتُ كثيراً، وتحدّثتُ بما لم يكن ضرورياً لكنَّ عبد الرحمن كان ينصت لي باهتمام وشوق وقد لفتَ اهتمامه ما أبحثُ به عن نجاة؛ إذْ أبصرتُ عينيه تتّسعان محاولاً التقاط كل مفردة تتحررّ من فمي.. ورويداً رويداً أخذ يستجمع صورة التي رحتُ أنثر شذراتها وصورتها أمام مخيلته فاندفعَ يتمتم بشيء من الذهول، وبواقع من الاستفهام: "نجاة.. نعم نجاة.. ماذا بها؟ ".

قصصتُ حيثيات اللقاء الأول كيف حدث. شرحتُ له موقف شهاب / أبيها معي.. أوضحت مبررّات تعلقها بي، والأيام المنحوتة على هياج الذاكرة. ذاكرتينا الراعفتين على موجة الود الابتدائي. ذاك الذي استحال على نار الساعات الوهيجة اضطراماً مربكاً، وقلقاً مثيراً؛؛ كذلكَ حرصَ القلبين النابضين على وقتٍ خشينا أن يمر سريعاً خاطفاً، فلا يترك لنا فُسحةَ تعميق لذاذة الحب وإحكام تشابك خيوط المودَّة.

حكيتُ له عن عهدٍ نثرته إصراراً على لقاءٍ قادمٍ سيتجلّى قطعاً، حتى لو كان على أبواب الجحيم.. عن سنواتٍ سأحرقُها وكلماتٍ سأبثُّها رسائلَ أقص على مسوحها حركةَ الأيام وما يدور في فلكها... أستعيد وجهها البلّوري الناصع، أجسِّده إزاء استماع عبد الرحمن الشغوف..

نعم!.. وأعتقد أنني قلت: عندما سألتقيها سأغطس في قرارة عينيها، وأترجل إلى منابت الينابيع. سأقضم الأنف اللوزي بشبق لهفتي، وأخطف من سهوب الرقبة ديون قبلات لم تُسدد طيلة سني البِعاد فيما أُطلق الشوق للكفّين وأوليهما مهمّة تفقُّد التضاريس... ويقيناً قلت: أنَّ نجاة معي، وفي الحقيبة هناك. لعلها تستمع لما أقول وتُفصح كلماتُها عن هويتها.. عندما غادرتُ عمّان، يا عبد الرحمن بعد غربة أكلت من طيفي وفيضي الكثير ودخلتُ العراق كان همّي اللقاء والاقتران بها؛ مصمِّماً على منح العينين حرية الاستحمام بجسدها تفصيليّاً.. من تكسُّرات شعرها الغجري العابث على الكتفين إلى لوامس قدميها الرخاميتين، الململمتين.

لكنَّ الرجل لم يلتقِ نجاة!!

ووجِهَ بشهاب يوارب البابَ ويدعوه للدخول.. لم يكن بابُ البيت الذي فتحهُ فقط؛ بل فتح أبواب التطلّع على منعطفات ومفارق. لم يُبصر الزوجة التي كتبت له نجاة عنها الكثير؛ ولم يكن " جميل " ولده هناك. أمّا نجاة فمثل فصِّ ثلج: ذابَ وتبخّر.. أينهم يا عم شهاب؟!. وما هذا الفراغ الجاثم على فحوى الموجودات؟.. البيت موبوء بالصمت والسكون وخفافيش الفجيعة في زمن مُحنَّط.. لماذا حديقة البيت الكثيفة الزرع أول يومٍ رايتها يلفُّها العراء الآن؟ أين دالية العنب الذي مررتُ من تحت عريشتها مرّةً لأستلم منك ذلك الرجاء الودود بضرورة الخروج؟

لقد سقطت الآمال، وانهارت الرؤى!!.. عينا شهاب ترجمتا إجابةً مختزلة لتغلق الباب عن سيل استفهاماتي وربّما لومي، والبيت ردَّ عليَّ بالصمت العميم. فلا نجاة أرى تخرج لاستقبالي، ولا أمّها تفرد الذراعين

لزوج ابنتها المُنتَظَر.

قسمات عبد الرحمن توشَّحت بالألم. ارتعشت أصابع كفِّه عندما راحت تبحث في الأقداح والقوارير عن بقايا سائل يطرد عبث الكآبة التي هجمت عليه بسهام كلماتي المتكسِّرة، وسحنتي التي بدت باعثة على الرثاء، مستجديةً المواساة والمشاركة في الألم.

* * *

لم أشعر بالوحدة كما هو شعوري بها الآن.. لا؛ ولا أحسست بالافتقاد كمثل هذه الليلة.. فليلة أمس أقلتني سيارة الأجرة صحبة عبد الرحمن صوب "العبدلي".. هناك أنزلنا الحقائب ثم حملناها نحو الباص الذي انطلق بعد خمس دقائق باتجاه مطر "عالية ".

في الصالة الوسيعة ثمة حركة فاعلة. أُناس يستعدّون للرحيل عبر الإقلاع فيما آخرون مودِّعون قدموا؛ وآخرون منتظِرون يصيخون السمع لأجهزة التنبيه تُعلمهم بهبوط طائرة ولقاء أحبّة.. يذهب عبد الرحمن ويعود بملامح تفضح جزعاً. يدري أنَّ الرحيلَ مرضٌ، والافتراق نوع من أنواع القتل. يدري أنَّ آهاتنا كلمات تفسِّر انصهار الأعماق، وأكفَّنا المودِّعة وهي تهتز بارتعاشٍ صارخ قصيدة غليظة من الألم.

قرأ على وجهي سوناتة الجزع فتجاوزَ إظهار الشقاء، استعانةً بالجَلَد.

- هكذا نحنُ أحفاد السندباد، سفرٌ ورحيل.
- ومغامرات، وفقد.. متى الانتهاء؟!
- عندما يضحك العراق وتُزال من بشرته بثور العلل.

وحيداً عدتُ تلك الليلة؛ أعدُّ الدقائقَ متخيلاً عبد الرحمن يصطلي لوعةً في حضن مقعده في الطائرة؛ يسترجع ساعات لقائنا تقلُّهُ إلى السنوات البعيدة بينما تعود كلمات إصراره على المواجهة، وجهود فصَّلها أمامي كنشاطات نضالية تخدم الوطن وتسعى لإنقاذ ما تبقّى من المسحوقين بين فكّي رحى الظلام.

الشقّةُ موحشةٌ. الشارعُ يغطُّ بسكونٍ جاثم لا تنتهكه سوى عربة مارّة تليها بعد وقتٍ ليس بالقصير عربة أخرى. وليس غير اصطفاق أبواب قريبة دلالة حضور نزلاء الشقق الملاصقة.. غرباء مؤكَّداً كما نحنُ.

بالأمس كان فضاء الصالة محتفياً بحوارات الأصدقاء.. أحبّاء التقوا على زورق المرارة، وانطلقوا يعيثون بحثاً عن وسائل إيصال رسائلهم النضالية. يتوجّهونَ جرياً لإسماع أصواتهم النادهة في بريّة المسيرة البشرية، مقدّرين عُظمَ مآسٍ تخيّم فوق ثرى أوطانهم المستباحة بمخالب الجناة وجدح أعين أولاد الذئاب الموبوءة بجراثيم الغدر والخديعة وفايروسات الغيظ الدفين والبغض المتوالد لكل ما هو مُعافى وسليم.

بالأمس كان وجود عبد الرحمن سحابة تبعث الألفة وتنثر رذاذ الأمل. أمّا الآن فأشعر بغرقي في يم الوحشة وقاع الضياع..

وبغتةً يأتيني همسٌ دفيء ينطق باسمي فأستدير مدهوشاً على قوام نجاة ينتصب إزائي حييّةً نضِرةً كأنها استلطفت خلاء الشقة أو اقتنصت فرصة إسقاطي في حلبة أسرها.. أتقدّم لأتلقّفها وسط هدير عارم لدهش دافق فتستدير بأقدامٍ ريشية نحو الغرفة؛ تلجُّها. وبالتفاتةٍ تخفي ابتسامة شغف، ووله، وحاجة لإفضاء، ورغبة لعناق، وأصبع السبابة يرتفع كإشارة دعوة، ثم غمزة غواية جارفة ترشقني كحفنة سهام.

تحـتَ غيمــة الـذهول المهـيمن.. فـوق انعطافــة الشَـدَه الراغــي يفـاجئوني دخـولي باسـتحالتها غيمـةً بيضـاء تـتقلّص ثـم تـتقمّص شـكل دخـانٍ خيطـي يتسلل إلـى فـم المظروف الذي ينام علـى سطح منضدة المـرآة؛ ثـم أسـمع دبيبـاً كأنّـه الأنـين أو الـدعوة لاسـتغاثة.. أمـدُّ يـدي.. أرفعـهُ باحثـاً عـن أنفاسـها، منـدفعاً لاسـتفهامها فيـأتيني بوحهـا حفـراً بالكلمات.

* * *

علقم.. علقم !!

منذ تمثيلية " أبو طير " ولعبة " كعود " وحضوره السحري من علـى " حصـانه الطـائر " وشـهاب! نعـم شـهاب ولـيس غيـره أو غيـره الـذي يشبهه تلـتهم شـهيتهُ الفكرية سندويشـات مـن مثـل: الاجتمـاع / النـدوة / الخفارة /الحلقة الحزبية / الهياكل التنظيمية. ويلعق لسانه " آيس كريم " علـى شاكلة " نفِّذ ثـم نـاقش ". ثمَّ تأثيثات تمنح صفةً جمعية لـها اسم " النضــال "، واسـم آخـر " تحـدّي المواقـف " حيـث الأحـزاب خلقتهـا التحـديّات (التحـدّيات التـي مـن بـاب التنـافس الشـريف غيـر الشـريف، فحصـل جرّاء إعـلان قبول التحدّي علـى بيت جديد نقلـه إلـى درجـة الاهتمام بعين الآخرين، مـع أنَّ الآخرين لا يهتدون إليه إلاّ علـى أنّـه يمسك بخيـط البلادة لينطلـق فـي مضـمار حـرق السـمعة فـي محرقـة الحـزب الكـاذب، رافـع شـعارات الخديعـة المموَّهـة بـالإخلاص.. نعـم! فانتقل من البيت الوديع المحشور فـي تـداخلات الأزقّة رغم الطمأنينة إلـى مويجات الأشذاء والحدائق الوسيعة.. جاء بعدها التصعيد الحزبـي

لينقله من عامل في قسم خدمات البلدية إلى رئيس ملاحظي " خزينة المحافظة "، تخرج الصكوك من تحت يديه بناءً على أوامر تأتي موقّعة باللون الأحمر، وأخرى بالأخضر دلالة الأهميّة.

البهجة ممزوجة بالخشيّة في قلب أنيسة.. وأنيسة المتشكّكة، متشكّكة حتماً وطبعاً تقول: لا يمكن الحصول يا شهاب على بيت لمجرد حضور الاجتماعات. ولا يمكن اصطياد وظيفة لا تأتي بها حتى طيوف الأحلام لمجرد الدخول إلى المنظّمة الحزبية والخروج منها. يطلقون عليك لقب " رفيق" بمعنى مناضل، ويكيلون لك كل هذا التقدير!! قلبي يخفق، يا شهاب وعقلي لا يصدِّق.. فيضحك الرجل " الزوج "؛ يضحك بدلالة دموعه الهاطلة من عينيه كإشارة ليس لضحكٍ عادي بل لغرق في بحيرة السخرية من تهجّسات المرأة ضعيفة الإرادة، وطيئة التفكير. ولأجِل إلاّ يُسمِعُها كلاماً ثقيلاً بمثابة إهانة – وقد أسمعها الكثير أوقات النكَد الذي لا يخلق سوى الغضب والكمَد –. يقول: أنا لم أطلب ما خفتِ منهُ إنّما هم قالوا أنتَ الأفضل ولا غيرك يستحق.. هل أرفض؟!

كانَ الغناء يمنحها رغبة التأمل بعد الاستماع فتتيه لِحاقاً تتابع صفوف المشاق القادمة صفّاً فصفّا مقارنةً بالذي سيأتي؛ والذي سيأتي أطباق مسوح رمادية (لن يفقهها) سلاحفيّة الأقدام (هي تتهجّسه بذكاء وحدس) ربما. دفق رملي يُنبئ بعاصفة خرقاء تسخر من بلادة المصدّات.. شَدَهٌ غائر طويل، نافذ يُضمّخ الحدقات ويسرق لحظات التفرّس.

وظلّت أنيسة تقيس سعةَ الاحتراق تحديقاً بأشبار التتبّع حيث الزوج

يزدهي ويتباهى؛ يرفرف ويطير. طاووساً يخطو

فيتعالى خيلاءً. بسمةُ اللحظة فاتحةٌ للضحكات؛ هكذا يشير المتفائلون؛ كذلك يُصرِّحون أنَّ شروق الشمس أبهى من مغيبها على اعتبار أنَّ التفاؤلَ يقود إلى جِنان الحيازة، تماماً عكس التشاؤم وائد التطلّعات لأنّه يوماً ما كان يقرأ ويقرأ فتعرَّفَ على أسماء مفكرين وثوار منحتهم آراؤهم هويةً للخلود؛ وقادتهم صراحتُهم إلى حفظ الناس لمقولات هتفوا بها.. جان جاك روسو، وفولتير، ومونتسكيو وروبسبير. أسماء! فقط أسماء ممّن خلبت ألباب سلامة موسى يومَ كان يقرأ له فأدهشته صراحة هذا العربي المنفتح، وشجاعة مثل هكذا رموز مثيرة للإعجاب.

يعود مُتعباً فلا ترغب في إذكاء قلقها؛ ولا تريد له أن يتعكَّر بردّه.. همُّها وتطلعاتها أن يبقى البيت مثار هدوء وتأجيجات ارتياح؛ وحليمة باتت تخرج لمدرستها وتعود مع قرينات لهنَّ آباءٌ يناضلون والأبُ في دربٍ واحدٍ. آباءٌ جيء بهم من مدن تجاور العاصمة. كوادر تنشر الأفكار الحزبية لتنمو على أرض رفضتها ولفظتها منذ أتت برياح سمومها ورأت بهكذا أفكار مَفسدةً وانحرافاً، كذباً وافتراءً، وقيادة تنحو صوب تعليم " كيف تصبح مجرماً في حفنة اغتيالات ". أمّا ياسر الابن فيعود متذمراً لأنَّ التلاميذ لا يدنون منه سعياً لعدم نيله سرَّ الاكتشاف. اكتشاف كرههم لأبيه لا بغضهم لأمّه: " دعونا نلعب! "؛ فينفضّون عنه رافضين؛ متعلّلين بالضجر. حتى إذا انسلخ عنهم وغاب لبعض الوقت ثم عاد أبصرهم يمارسون اللعب بانطلاق.. يعود ليشتكي لدى الوالدة؛ وأنيسة تطمئنِه: " لا عليك! العب مع حليمة هنا. وإن لم تلعب مع حليمة هنا فاذهب هناك، إلى إخوان صديقاتها، جيراننا

القريبين. " .

تقدِّم لـه صـينية الغـداء، فيقـول: " أحسنتِ، يـا أمَّ ياسـر. كـم أنـا مشتاق للباميا؛ تـذكّرنـي ببامية "أبـو الخصيب " يـوم كنّـا صـغاراً نـأتـي متعبين من السباحة في الأحواز أو فـي شط العرب فنهجم علـى صحن الباميا، نلتهمها من شدة الجوع، متلذّذين بطعمها. " وتقول مجاراة لذكراه واستعادةً لذكرياتها: " كانت أمّي مغرمة بالثوم. تضع خمسة رؤوس منـه فـي القدر يوم تطبخ لنـا الباميا.. لماذا تأكـل الباميا وتتـرك الثـوم، يا شهاب؟! ". يقول مبتسماً: " أتركـهُ حتّـى يكفيك ويُشبِع شهيتَكِ. ".. الرد الدبلوماسي لا ينطلي عليها لأنها أنيسة وتعرف أنّ شهاب لا يرغب فـي أكل الثوم ليس لأنّه لا يستطعمهُ مثلاً، بل سيجلس إلى رفاقه فلا يروم للاجتماع الحزبي أن يستحيل مرحاضاً.

مع أنّه يقرُّ بالبساطة لكنّه يميلُ إلـى الارتقـاء.. نزعـة إنسانية من باب رفع الرأس لا معرفة لون الأرض باستخدام أدوات التحديق.. الفعل الجاد يقود إلـى صيد الثقة. ثقة الكبار الذين أخذوا به صوب درجات الترقّي فقيل أصبح " عضواً ". هذا يعنـي صار كادراً. لا يدري أنَّ صفةً مثـل هـذه ستنقله باتجـاه تعثّرات الكـدَر كمثـلِ مَن يقفـز برجل عرجـاء يسرى فيستبدلها برجل عرجاء يمنـى دون استخدام الاثنين سويّةً تخلّصاً من رهزةٍ بهلوانيـة أبصـر تأثيرها هِزءً بعيون الآخـرين... أقول الآخرين لأنَّ حليمة تترجم ذلك كلّما وقفت أمام مدرِّستها تتكلّم عن قرار الأمّة بالتحرر اعتماداً علـى أفكار حزبٍ يعِدُ بالفردوس القومي فـي حين يقيم ولائم الطائفية تمركزاً على أسس عائلية فاسدة الدعامات، منخورة البدن بدليل سقوط الحلم في العام ١٩٧٩ وانهيار تل الرمل المزيَّف يوم جاء

شهاب مُرهَقاً ينطق بفمِ الذهول عن استقالة جماعية سيعلنها الرئيس العجوز، مُسلِّماً المقاليد للرئيس القريب، ابن العائلة غير البعيدة. وراثة عائلية لا تنم إلى طقوس العهد النضالي، وليس لها فقرة في جهاد الحزب العتيد.

وظلَّ شهاب يشمُّ رائحة إعصارٍ آتٍ رُشِّحَ على أثره ضمن ثلاثة من المدينة سيحضرون ندوةً موسَّعةً في العاصمة.. أقول ذلك لأنَّ شهاب، أبا حليمة التي صار عمرُها الآن أربعةَ عشر عاماً، وزوج أنيسة التي كبرت بعدما توجّست خيفةً وأظهرت خشيةً للبنت، ولم تقل للزوج " هذا ما رأيته في المنام حلماً لا رؤيةً " حيث الأحلام قد تكذب وقد يأتي الرد على حكايتها سلبياً بكونها أضغاث لا يصح تصديقها، مع أنَّ الأضغاث أفكارٌ لم يُتَح لها البوح صحواً فتنتشر أشرعتها المُبدَّدة حُلماً.

بعد أربع وعشرين ساعة من السفر سيعود شهاب ليُعلم أنيسة عن الخبر المُفزع ويترك لسانه يُعبِّر عن ارتعاشة وتحديق بكفّين: " هاتان اليدان ليستا لشهاب البريء، بل لقاتل ارتكب إسكات أنفاس أُناسٍ أبصرهم يقفون صفّاً. قيلَ أنهم مجرمون بعدما سمِعَ الحزب قبلاً يُجاهر بهم كمناضلين.. يقول: " انتهيت! " وهو يعني إنَّ حياته لم يعُد لها ثمن. فتخاطبه: ولماذا النهاية وأنتَ أمامي وليس معهم؟!

لا يريد أن يقصَّ بانوراما مجزرةٍ شهدها وشاركَ بها، لكن صرخات الأفواه التي انطلقت كتيمة ما زالت تدوّي في إذنيه؛ وصورة الشحوب الذي غمر الوجوه وهي تُجبر على ملاقاة الموت تنبجس أمام ناظريه كعاصفة غبارية صفراء. تكتسحه موجة دوار؛ تُعلن المرارة انتشارها في مذاقه

فيتمتم: " علقم!.. علقم!.. من أين يجيء هذا الرماد والملح يملآن فمي؟! ". وهو لا يعلم أنها بداية النهاية لفيلمٍ اسمه " السعادة "، من تأليف الحياة وإخراج المخرج العتيد في أفلام الجريمة. أقول العتيد لأنّه سبق وأخرج فيلماً مؤثراً في العام ١٩٦٣، ظلَّ غائراً في ذاكرة الأجيال لما احتوى من أدوات فضيعة في الجريمة، لم تُستخدم قبلاً؛ ولا تجرَّأ أحدٌ في الخروج عن المألوف.. " علقم.. مرارة. أشعر كما لو أنَّ ملحاً يُزرَق في فميّ . ما هذا، يا أنيسة؟.. لماذا أنا هكذا؟!. هل أنا مريض؟ ".

تلك العودة كانت فاصلة؛ برزخاً بين ضفةٍ جنى على حافّاتها فاكهةَ الزهو القصير، ثم هو يعبر إلى الضفة الثانية فيطأ أرض الهواجس وينظر إلى الضفة التي تركها.. يقول: لا أبغي تركها. كيف أعود إليها!.. يفكر بزورق النجاة؛ لكن الزورق استحال فقاعةً طارت إلى أعلى وانفجرت عندما عاد ياسر غاضباً بعدما فكّر بشراء صنّارة صيد السمك من أحد الدكاكين فلم يقدر، لأنَّ البائع نهره وهو يردد: ستعود أيام الظلام!"... كان ياسر يصر على شراء الصنارة، فيقول: يا عم أنا أريد صنّارة وليس شمعاً للظلام". لا يدري أنَّ البائع يدري فيتقصّد إسماع الفتى على أساس أنّه ابن أحد أدوات صانعي الظلام.

تقول حليمة سمعتُ أمّي تقول بهمس الخائفين: " هذا ما خفت منه، يا شهاب؛ وهذا مبعث الغصّة النابتة في حلقي. "، ثم " لا عليك؛ ما زلتَ في أولها. تسحب نفسك من الغولة ودعنا نعود لأيامنا البسيطة." فيجيبها، تقول حليمة:" ولكن سيضيع كلُّ شيء!" ويقصد البيت والحديقة والوجاهة المؤقتة." الكل يحلمون ببيت ليس ككل البيوت، وحديقة لا ترقى إليها الحدائق.. مَن مِن الناس لا يبتغي

الوجاهة ويبحث عمَّن يقول له أيها السيد المهاب؛ يا شريف، يا كريم. ".. " إلى قير! " تقفز أمّي بصوت غضبها – تقول حليمة – لا نريد بيتاً تلوِّح لنا بكف التهديد كل يوم. بيت أشبه بالدنيا: يوم لك ويوم لغيرك. أمّا نحنُ فلنا بيتنا الصغير. لَكَم عشتُ الليالي والنهارات بين حجرته والممر، أطبع أصابع ارتياحي على طابوقاته المتهرئة.. أتمنى لو عدنا إليه.. وإن شئت نعود إلى أهلنا في " أبو الخصيب. ".

يتحسّر أبي وهو شهاب أمام وجه الزوجة التي هي أمي واسمها أنيسة. يقول " يا ليت! " لكنه يقول أيضاً " وقعت في المصيدة، يا أم حليمة فكيف أتقي أنيابها؛ كيف أخرج؟ مَن يروم الخروج يلتقي القتل. هكذا كانت أدبيات حزبنا السريّة تُقر؛؛ ثم أنَّ " عريان " بدأ بمسلسل القتل الجماعي فلا ضير من أن يرصفني في أحد المشاهد..

نعم كان للمسلسل فعلُهُ؛ وكانت للمَشاهد تواليها.. أبي حدس ذلك تقول حليمة فكان التحقق، وكان نجاح مشاهد الدم متقناً على اعتبار أنَّ المشاهدين لا بدَّ وأن ينشدّوا إليه ويتأثرون به. إذْ تصالبت العيون ليس برغبة المتعة والسادية، بل بدافع التقييم لما سيؤول إليه الحال. أقصد حالهم وحال الوطن المذهول بما يجري، لأنَّ لون الدم كان السائد في حمّى المَشاهد، والبطل الأول في التتابع ألحدثي هو " عريان ". يقود العربة بيد البطش صوبَ ضباب المجهول.. والمجهول يُعرف المتتبّع تطيُّر وشك. يعقبه رعبٌ وهلع.

وكانت تلك انعطافة خطيرة باتجاه حياتي مُلغَّم بالمفاجآت الرمادية.. انعطافة أجهزت على أسرةٍ ساقتها كفُّ القدر صوبَ غياهب الدمار.. وأنا حليمة؛ أنظرُ فأتأسّى.. أحزنُ فأقول : مَن يكتبني؟!

الفصل الخامس

(١)

من صدى زرقتهِ الشذرية!

من رنينِ نقائِه اللازوردي!

من فيض امتدادِه البهي؛ ذلك الذي اسمُه البحر تتنسّم طرابلس عذوبتها فتُنتج العبق. تضاهيه باخضرار الشجر/ تغازله بصفيف العمارات، فتتوارى المدينة القديمة؛ لا يتبقّىَ منها غير هامة قلعتها التي ارتكبت الشواهق الحديثة جناية رميها إلى الوراء. والمساجد – هوية مدن الإسلام – ما عادت مآذنها تنتصب كما الفنارات لتقول لتيه البحر أنا هنا. أمّا أزقّتها فإرثٌ يحكي زمناً تعاقبت عبر فصوله أجيال استجابت لضحكة الحياة الغاوية ثم... اندثرت بفعل قانون الاندثار؛ تاركةً فعل الأثر ولو بقليلٍ من الهِتاف الذاوي؛ ولو بقدرٍ من الهمس الدفين. وهوَ البحر أول ما واجهك وأنتَ تشرع نافذةَ غرفتك من الطابق الثالث لفندق "قصر ليبيا". هناك السفن مبعثرة. بعضٌ يحاذي الشاطئ؛ وآخر يتّخذ أماكن نائية.

سفنٌ على سَفرٍ دائم..

تأتي وترحل..

هياكل أعادت لكَ صورتُها فكرةَ الرحيل، بتفاصيل الأيام القريبة، الماضية ورائحة الأمكنة مازالت طازجة تحفل بالأحداث والمفارقات..

بدا خروجي رغم الشوائب الطافية على سطح جريانه قد مرَّ بلا عقبات. لم تكن ثمة مشاكل!! الخروج عبر بوابة "إبراهيم الخليل" باتجاه

الأراضي التركية تيسَّر بشكلٍ عجيب، كأنَّ غمامة أسدَلت عتمتها على عيون رجالات الأمن والمخابرات المفتشين. هل شيَّد الله سدّاً فأعماهم بناء على تضرّع العجوز الجالس إلى جانبي في حافلة المجهول وأنا أسمعه يتمتم "وجعلنا من بينهم سدّاً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يُبصرون"؛ ذات القول الكريم الذي ستردّده أمّي بعد عشرين عاماً وأنا أحمل حقيبتي فجراً لأمارس رحيلي الثاني. رحيل البحث عن نجاة في دروب الفقد والضياع؟!

عبرنا الجسرَ الحديدي عبوراً كأنه اجتياز البرزخ.

تركنا جغرافية الذهول لندخل تضاريس الصحو.

تكسَّرت أصفاد اليدين فتحررتا؛ انفرج القلب فأمتلك جناحين، فطار، فحلّق، فأنتشى. هناءات مُشرعة وفألٌ كالبياض الثلجي. ولم نكن نعلم أنَّ أياماً معدودة ستمر وستنقل لنا التي بعدها خبرَ سيناريو مؤامرةٍ مزعومة اصطنعها "عريان" ليجعل من النقاط الحدودية مصائدَ للفارّين ممَّن ستُبتلى أسماؤهم وتلوَّث بأصابع الخيانة.

تهافت القادمون على مقاهي "استانبول" يقصّون التفاصيل.. سعداءَ كنتم بخروجكم ومحظوظين؛ لأنَّ الاتهامات طالت الكثير ممّن ليس لهم صلة بالحدث المزعوم إنّما تسينرَ الفعل شمولياً بدهاء المستهترين لتتّسع الاعتقالات إلى السياسيين من غير فئة الحزب الحاكم مثلما لوحقت شرائح المثقفين: أدباءٌ وفنانون.

آخر الكلمات فجّرت لديِّ أسئلةً وأظهرت لي عُظمَ نصيحةِ شهاب وتوسّلات نجاة بالخروج السريع... أبرقتُ إلى عبد الرحمن في طرابلس فما جاء الرد؛ قلقت!.. صارت رغبتي إليه تزداد؛ اعتماداً على العنوان

الذي أحمله.

استانبول لم تعد ملاذاً للرجل الراحل على فوضى الأخبار الواردة والشعور بالحاجة إلى رفيق درب يُبدّدُ وحشة القلب.

نهارات استانبول رغمَ جمالها بدت كأنها ليست بحاجة لفاقدِ صبرٍ ورافض فتح الأبواب للاعتراف من فتنتها. لم تُثره الزوارق الراسية عند شاطئ " مرمرة " ومراسيها المنفتحة للسيّاح. يسمعهم يغنون أغاني بلدانهم فيهيمون؛ ويراهم يرتشفون أقداح البيرة التركية فيثملون. ولم تُلفت اهتمامه تلك المعارض المزججّة تقدّم الأجساد الأنثوية بدعارة فاضحة ودعوة للولوج إلى فم الغواية. قالوا له: هذه " السركجي "، وتلك " قره كوي ". وهناك على الشاطئ نظراته تصطدم بهياكل الأجساد اللحمية تتمرغ بالرمال بلذة استعراضية غامرة، ويرى إلى السابحين يتلقّون أمواج الخليج بصدور مبتهجة وانشراح يفوق رغبة عارمة قادتهم لرمال المكان. يلج البازار الشرقي فيجد نفسه في سوق الشورجة ببغداد وسوق مدينته السماوة. يبصر الألفة ويقترب من شعور عدم التباين؛ لكن القلب لا يقوى على الود، والنداء يدعوه للرحيل. عبد الرحمن الآن في ليبيا، لا بدَّ إذاً من الوصول إليه والالتحاق به.

حين تجد وجودَكَ منشداً لبواعث الإغراء، وحَمامات التيه تمارس فعل اختطافك على أجنحة نسيان الهدف. حين تبقى الحقائب مغلقة والليالي لا تتعدّى انفراط أصابع اليد، وصالة الفندق الضيّقة بمديرها المنشد وجهُه إلى قائمة النزلاء يكتب ويدقّق، والغرفة لا تشبع فضول البقاء. ثم أيضاً، أيضاً حين النداء العابر لبحور الأحلام ينده بك لابدَّ من التخلي عن مفردات التصمّغ؛ لا بدَّ من التحرّك لإثبات قدرة العقل

على تجنب هياج العاطفة. ذلك ما خلق الدعوة لحث الخطى إلى مكتب الخطوط الجوية التركية لحجز تذكرةً، أطير بعد يومين فأجد نفسي في سيارة أجرة تقودني إلى فندق " قصر ليبيا " وسط طرابلس. فندقٌ جاء اختياره بناءً على نصيحة السائق كردٍّ على سؤالٍ سال من الفم الحيران.

زرقةُ البحر تتقدّم باتجاهي. تنثر رذاذَ نسائمها على وجهي فتنفتح أسارير القلب وأرى إلى باخرة يتقاطر على سلّمها أناسٌ يرتقون، وآخرون يلوّحون توديعاً فأتخيلني جيمس جويس يكتب قصته "ايفلين"، يتطلع فيختزن في الذاكرة مشهد الباخرة المتّجه صوب "بوينس آيريس" بركابها الصاعدين وفيهم "فرانك" الحبيب ينتظر بشغف واختلاج قلب ينده راجياً، متضرعاً بينما تقف "ايفلين" تخيّب مسعى ندائه في الصعود والهرب معه بعدما اتفقا فتترك لكفّيها التشبّث بعارضة الرصيف الحديدية في آخر لحظات الانطلاق. وأرى إلى البحر نظرةً أخرى فأتخيله هائجاً مائجاً مجنوناً يعابث " عمال بحر " فيكتور هوجو وهم يواجهونه بثباتٍ أسطوري فلا يستسلمون. وأسمع " موبي ديك " يقص بانوراما الصراع والتحدّي على لسان قلم " هيرمان ميلفل " ويصوِّر القوّة الخارقة التي يمتلكها إنسان الأرض دفينةً في ثنايا عزيمته لحظةَ التحدّي. وأسمع نقرات باب الغرفة فأنسلخ من تفاعلات المشهد وأواجه بعامل الفندق يخبرني "إننا نبدأ بإعادة تنظيم الغرف في العاشرة، عذراً! لم أتوقعك هنا"؛ ويهمّ بالخروج لكني استوقفه وأنا أعيد إرسال نظراتي إلى البعد النائي؛ إلى السفن المتشوقة للدنو، إلى الرصيف الذي أراه يخلو رويداً، رويداً من المودعين في هذا الضحى المُضبّب.

بي رغبة لاصطياد ما يفوه به هذا المنتصب قربي عاملاً يحمل سحنات عمال وطني، أليس هو عربيٌّ من أحفاد الذين انطلقوا من بطاح اليمن وصحراء الجزيرة لينتشروا بغية افتضاض طقوس الجهالة ونشر بواعث النور قبل قرون؟.. بي رغبة لجني ما يعينني على الوصول لغايتي فأنا تائهٌ الآن محشورٌ بين كتف القلق وحاجز الإبهام، لا أعرف من أين أبدأ.

- لماذا السفن نائية هناك لا تقترب من الرصيف؟

أرمي سؤالي بشيء من السذاجة وضآلة المعرفة.

من بين نظرات التفحّص، ومن أجل أن لا يخيّب ظنّي في الاستفسار أطلق ردّاً أقرب إلى التأمل:

- لأنها مُدن! السفن مدن، يا أستاذ. والمدن لا تلتقي بل تتقارب. هناك ما يفصلها عن الالتقاء. الضحالة والخشية من الجنوح سببان علميان. العاملون فيها وعلى ظهورها تأتي بهم الزوارق الصغيرة إلى هنا للتسوّق والإطّلاع ونفض غبار وحشة تساورهم أشهرَ في جفاء المحيطات.

توقّف ليقرأ مدى اهتمامي في كلامه:

- مهنةٌ شاقةٌ ومرهقة.؛ لكنها ممتعة؛ هل سبق وسافرت في سفينة؟

- لا! أنا من بلد لا يعرف البحر. بحرنا الصحراء.

يبدو أنّه استأنس تقبّلي له أو رغبتي بالتعرّف على المزيد فأطلقَ تنهيدةً أقرب إلى التحسّر:

- البحر رامي طُعمَ الإغراء للذين يعشقون المغامرة.

التفتُّ إليه، مأخوذاً بما فاه! هذا ليس عاملاً عادياً! هذا شابٌّ

يرمي بوجهي نثار جمل أدبية ويتحدّث بلغة تتعطر بالرومانس.

أرادَ أن يقرّبني من التماس بحميميته فانطلق يواصل:

– آ.. كم تقتُ لاعتلاء ولو زورقٍ يطير بي إلى المرافئ الشمالية؛ هنالك.. إلى جَنَوة، مرسيليا، مالطا؛ وحتّى قبرص. ألجُ فمَ العالم وأمتص شهَدَ المتعة.

– وما يمنعك؟.. متظاهراً بالبرود قلت، وخازناً دهشتي المتراغية من هذا الذي ينادمني لغةَ الثقافة.

– الأسرة! أنا مشدود لأسرة كالوتد الضارب في الصلصال.

في زمن الانكسارات وتراكم الأعراف الحديدية الكسلى، وانشداد الزيف إلى بطن أرض الخديعة الأزلية الراعفة بالمقدَّس تتكتم أفواه الإفضاء. تبقى الآهات مرتعاً للتشكّي الأخرس، والنظرات الكسيرة ترجمةً للتكبيل. والشاب أمامي أنموذج لهذه التداعيات. منه أسمع اعترافاً يحمل طموحات التائقين إلى فكِّ الأَسر من أُسَرٍ ما زالت تنظر لعلائقها الاجتماعية بعين الضرورة في التماسك والترابط الصمغي الوثيق.

– لي أبٌ ما زال يصرُّ على أخوتي بوجوب حفظ القرآن من ألفه إلى يائه؛ وما زال يرى إلى أخواتي على أنَّهنَّ بؤر خُبث وتطيُّر، فلا هو وأدهَنَّ ليرتاح ويستريح ولا هو أعطاهنَّ صولجان الاعتداد ليتحرّكنَ واثقات بلا خشية ويتعاملنَ صادقات بلا ارتياب.

هذا الشابُ يريد أن يرمي همومه على طاولة آهاتي، ظنّاً منه أنني أستلقي على أمواج الاسترخاء وأعوم على رغاوي الطمأنينة وامتلاك زمام الأمر. ماذا لو نثرت إزاءه تلال قهر جئتُ بها محمولةً على كاهل

صبري وتجلّدي؟ ماذا سيقول لو حكيتُ له مبتدأ الحكاية التي لا يُنهيها لقاءٌ ولا تختتمُها مفترقات؟ هل سيصدّق تفاصيل بانوراما الألم الذي ينغل كالخنجر في خاصرة يومي ويكرّس ضبابية أفقي القادم؟!

أرسمُ ابتسامةً وأخرجُ بكلامٍ يتسلل من طوايا المواساة:

- ابدأ بالخطوة الأولى، وبدلاً من أن تستسلم للظلام أشعل شمعةً . صمّم أولاً واحسم أمرك وعندها ستُبدد أغلبَ معيقات الماثل فتغدو يسيرةً أمام عزيمتك الصلدة.

- مع أبٍ يعدُّ عليك الخطوات لا ينفع.. هل جئت إلى طرابلس سائحاً؟

أشرحُ له مسببّات القدوم، وأوضحُ كيف أني عبرتُ سبعة بحور تاركاً وطناً ليس أعذب من هوائه هواء. طرحتُ بين يديه حاجة الوصول إلى صديقٍ لي يعمل في " دائرة السياحة " فأخبرني مبتسما ليُبدِّد قلقاً نفثته عيناي أنَّ المكان الذي أروم لا يبعد كثيرا عن الفندق. أبدى الاستعداد بمرافقتي بعدما وضع أمامي ساعتين للانتظار ريثما يؤدي واجباته في ترتيب غرف الطابق المناط به ترتيبها.

- اسمي مبارك!

وهبطنا لصالةِ الفندق خارجين مترجّلين؛ نقطعُ طرقاً فرعية هادئة. "هذه المنطقة اسمها الظَّهرة؛ والشارع الذي نحن فيه يسمى زنقة اليهود".

هذا الشاب الذي يدنو من عمري؛ يافعٌ تشحنه الحيوية، وتغمره رغبة الجري. أقرأ استعدادَه للتجوال في كل حواري وشوارع طرابلس دون أن يطيح به الملل. لا يدخل درباً إلاّ وأعلمني باسمه ولماذا أُطلِقَت عليه التسمية. قال: " أنا طرابلسي؛ ولدتُ ونشأتُ هنا. ".. حكى عن

طفولةٍ صرفها على أديم هذه الدروب؛ وتكلَّمَ عن طرابلس الصغيرة التي توسَّعت الآن فغدت عاصمة بحق.. قصَّ لي عن الإيطاليين الذين ظلّوا بقايا بعدما رحلَ الغفيرون وكيف كانوا يثيرون الضحك وهم ينطقون بعربية متكسِّرة تُبدِّل الكلمات لأخرى تعطي معانٍ مضحكة؛ بعضها داعر يبعث على الخجل." لا يفقهون لماذا تثير ضحكنا وتجعلنا بعض الأحيان نتسربل بالحياء.".

مبارك يُعيدك إلى طفولتك، يستثير تلك الجمرة الذاوية من ذكريات شرعت السنون المتلاحقة على تبديدها أو طمرها حتى.. ما زلتُ أذكر شتائمنا التي نصبّها على " الإنكليز" حين نسمع هديرَ طائرةٍ تمر من فوق مدينتنا فنندفع مرتقين السلالم باتجاه السطوح المتهالكة لنطلق من هناك صرخاتنا السِّبابية " ألعن أبو الانكريزي!"؛ فتندفع من جوف الأحواش ضحكات أمّهاتنا وهُنَّ يُعلِّقنَ: " الإنكليز رحلوا منذ عقود وهؤلاءِ الصبية الشياطين يشتمونهم!.. هيّا انزلوا. ".

- ذلك هو مكتب السياحة. ابن عمّي يعمل فيه، سنسأله عن صديقك. ماذا قلت لي.. ما أسمه؟

الذين توجّهنا إليهم بالسؤال لم يتذكّروه؛ بل لم يعرفوا شخصاً باسم " عبد الرحمن محمود ". قرأ مبارك مفردات الحيرة تفرُّ من عيني وأنا أمسك ورقةً تحمل عنواناً دوَّنه عبد الرحمن بخط ثقتِه كمكانٍ عملٍ واضح.. لم يكن ابنُ عم مبارك موجوداً؛ قيل لنا سيأتي بعد قليل.

الوقتُ ثقيل، واللحظات تستحيل فرقعات تستفز الروح المُعتلج.. هل كنتَ مخطئاً أمْ كان العنوان غيرَ شافٍ للوصول. هل كانت خطواتك المغامراتية فاشلة ستقودكَ إلى متاهات الضياع وافتقاد

التوازن؟.. أتراه عبد الرحمن اختلقَ كذبةً بيضاءِ ليظهر عدم فشله في الخروج وأنّها لحظةُ مكابرة افتعلها لتغطية خطل قرار اتّخذهُ؟

الشكوك بَدَّدها خليفة، ابن عم مبارك عندما عاد وتشبّع بالأسئلة والمواصفات حيث تركنا بغية الاستفسار وجاء بما يقتل الحيرة:

– نعم؛ كان هنا عبد الرحمن محمود، أليس كذلك؟. جاء قبل عام، وعُيِّنَ هنا؛ لكنّه قضى شهرين قبل أن يستقيل ويسافر إلى إنكلترا. يُعتقد أنّه غادر بناء على مكالمة هاتفية مع قريب له هناك.. لا أحد يعرف عنوانه إذْ لم تكن ثمة فرصة كافية للتعرف عليه.

اصطخب البحرُ؛ والأعماقُ ماجت. ومن بعيد، من أقصى بواكير الأفق مدّت عاصفةٌ مجنونة لسانَ السخرية، وغمرت سماءَ الذهول صرخاتُ النوارس التشاؤمية الغرفة التي تضمّني ومبارك والرجل الذي ظنَّ نفسه أعلن البُشرى بحصوله على معلومةٍ صادقة تقطع الشك هاجمها الظلام فلم تعد تتباهى بإطلالتها على نسيم يمر خافقاً بعذوبة ضحكات الشواطىء.

ومثل عرّافٍ يتقن فنَّ قراءة الغيب قرأ مبارك حيرتي. والأكثر منه خليفة. انبريا يُطالعان صفحةَ القلق المضاعَف تشي بها نظراتي الساهمة فحاول ألاّ يتركني لليأس. استأذن خليفة قليلاً خارجاً وعاد باستفهام بشوش، يسألني إنْ كنتُ أحملُ مؤهلاً؛ فانفتحت سماءُ وجهِه عندما أخبرته بشهادةٍ جامعية بتخصص عربي أحملها. قال: " يفتح الله! ".. وودعنا عند الباب الخارجي.

(٢)

صـمتُ الغرفـة يُكـرِّس حضـورَ الأفكـار الرماديـة وهجومهـا علـى دفاعات جَلدك المرتبكة.. صالةُ الفندق الوسيعة بنزلاءٍ يتهافتون حركةً، ومبادلات أحاديث تُثير في سهوبِك الروحية خلخلاتٍ تدفع إلى الشعور بالغثيـان.. أنْ تهدأ لـيس لـكَ إلاّ البحـر ترمـي جثَّتَـكَ المبـتلاة بـالتوتّر لتبتلعهـا شـهقاته وتـدفع بهـا إلـى أفـواه الحيتـان والكواسـج والأسـماك والسلاحف والقُريدسات وقواقع الأعماق لتغدو نثاراً يلج أنسجةَ مخلوقاتٍ تمسحَكَ من تراصفات شاهدات القبور، في مقبرةٍ منسيّة لا زائر لها ولا أهل يرتـادون فَقدَ سـاكنيها. بموتـك سيموت العـالم؛ ومعـه يُفنـى القتلـةُ والسفّاحون؛ يغدو الكون ذرّةَ رملٍ تائهة في العدم، وتغدو روحُك هُلاماً ينفضُ أدران الخطايا سابحاً بلا حدود ولا آفاق.. تخرج.

تنقلُ الخُطى..

الخُطى تنقلُك..

تترجّـل فـي الـدربِ الخـالي إلاّ مـن مـارّةٍ يتنـاثرون. أجـواءُ البحـر وأطيافُه / هيامُ الطبيعة وأبجديتها الشاعرية تُلقي بأرائجها الراعشة في طريـق اختلاجـات توجُهِـكَ فيتغيـر هـدف مصـافحة البحـر. تنـده بـك صفوف الأشـجار فتجد قدميك يجرّانـك إلـى عمـق حديقـة بـاهرة نُسِّقت بترنيمة تقول: "هلمَّ أيها المخلوق المتطيّر من ربقةِ القدر؛ المهووس بشدَّة الضجر. يا ناقم، يا حالمِ! العالم لا يتغير بالأماني؛ ولا المُرادُ هيِّنٌ ويسير.".. أدخلُ كمن يبغي اكتشافَ وجودٍ لا مُكتشف. على شمالي ومن خلل الأشجار انتصبت بناية فندق أبيض الطلاءِ كأحد تأثيثات المشهد، سأعرف بعد حين أن اسمه الفندق الكبير، وعلى

يميني عَبرَ طرقٍ تتوازى لوَّح لي البحر بكورنيشه فيما أرتني ظلال الأشجار المتكاثفة أناساً مُثقلين بالفراغ ومحمولين برغبة النأي عن ضوضاء المدينة يتَّخذون الأرائك مصاطب للجلوس. بعضُهم اتَّكأ يُحدِّق في الهواء؛ وبعضٌ استلقى بحثاً عن غفوةٍ تمنحهُ فرصة صرف الوقت. ومن بعيد كان المتحف الوطني بباب عريضٍ موارَب، عرفته من التلفاز الذي يُبرز صورته كمَعلَمٍ يُعتد به في الافتخار الوطني (سألجّه مع بشرى يوماً ليدوّن إحدى صحائف تعارفنا الجميل وذكرياتنا الآيلة إلى الاختتام.. بشرى التي ستغدو مؤشراً يرسم حفره على رقيم أيامي، بشهادة طرابلس واعتراف البحر.. بشرى التي ستقلع بكف حنوّها الكثير من هجوم أشواك الأيام النابتة في درب توجهي وأنا أحترف الغربة كاجترار لا ينقطع.).

❋ ❋ ❋

ما كان ذلك اللقاء الذي حملته أجنحة المصادفات مُحتَسَباً؛ ولا كان عاديّاً ذلك الذي اسمه مبارك. تجلّى كينونةً حيوية من ودٍّ، وغيمةً ناصعة من بهاء. هل جاءت به كفُّ الأقدار كمعادل موضوعي للضياع الذي كثيراً ما راودتني الخشية في الوقوع بشراكه؟. هل انبرى الحظ مرّةً أخرى وابتسم فسلّمني لهكذا مخلوق مليء بالرهافة ومندفع لأداء ما أطرح من حاجةٍ أفتقدها أو أمرٍ أرومه؟! وإلاّ ما الذي جعله يطرق باب غرفتي في الفندق ويأتي بابن عمّه خليفة، والساعة تقرب منتصف الليل ليقول بلسان البشاشة: اسمع!.. فاسمع كلام خليفة الواثق:

- ما رأيك أن تعمل بنفس الموقع الذي شغله صديقك عبد الرحمن. غداً سأنتظرك في الدائرة؛ أحضر لي أوراقك والمستمسكات. وبعد الغد - قالها ضاحكاً - ستستقبل مبارك ضيفاً هناك.. في مكتبك."

اسكن بيتاً قديماً بغرفتين ومطبخٍ صغير في المدينة القديمة أوجده لي مبارك.. أخترقُ سوقَ الصاغة لأدخلُ سوقَ النحاسين فتبتلعني من هناك أزقّةٌ أمعائية متشابكة ثم أقف أمام بابٍ خشبي مزخرف موزائيكيّاً حفرت الأعوامُ خدوشها على نسيجه؛ وترك الساكنون المتعاقبون طبعات أصابعهم على مساماته. وفي الداخل لم يستطع الطلاء الأبيض المعمول حديثاً إخفاء تدوينات الزمن المتعاقب، احتوتها الجدران فظهرت بعضُ آياتٍ قرآنية كُتبت بخط " النسخ "، وتواريخ لذكريات متعاقبة، وأمثال شعبية (يا ضيفنا لا تقرضنه؛ الريته تخبّر فيه).

- إن احتجتَ لشيء يستدعي السرعة، اطرق باب بيت خالي عبد الدايم. ألا ترى تلك الباب القهوية الدكناء؟ هو ذاك بيت الخال؛ لا يبعد عنك سوى أمتار فلا تجعل نفسك تبتعدا أميالاً.

وبشيء من الفكاهة الصارمة التي يمتاز بها الطرابلسيون اندفع مبارك ناصحاً:

- ستتيه مؤكداً أول الأمر. وستأخذك الزنقات لدروب تظن إحداها التي تقودك إلى بيتك، لكنك ستكتشف أنك تدخل متاهةً وتخرج بلا سبيل. لا تبتئس، فأهل المدينة يتيهون أحياناً."

في اليوم التالي صاحبته في رحلة ابتياع ما أحتاج من عفش وأدوات مطبخ؛ وساعدني في جلب ما يتوفّر في بيته من أفرشة وأدوات

تعينني في ترتيب السكن.. أطلعني على ما سألت من مكتبات على قلّتها، وقادني لأماكنَ أحتاجها. أوصلني إلى " ميدان الجزائر" ، وأدخلني مكتب البريد:" هذه أول صومعة يحتاجها الغريب للتواصل مع أهلٍ فُرض عليه مغادرتهم، وأحبابٍ خُتِمتْ على قلوبهم قصيدةُ البِعاد. هيّا افتح لك صندوقاً ".

أصرف الأسبوع الأول على جولات وئيدة استعانة بمبارك. أسير محدّقاً ومتفرساً في ما خلفه الإيطاليون؛ ذلك أنَّ طرابلس ترتدي وجهين.. وجهٌ إيطالي يهبكَ ملامح الهندسة الإيطالية والإرث الروماني العتيق في كل شيء: الشوارع والأبنية / الأقواس والشرفات / النقوش الجدارية والرموز الحفرية / النافورة الدائرية / فن الرسم الطقوسي والنحت الأيقوني.. الكنائس الهاتفة بوجودٍ هنا كانَ مسيحياً؛ إلى جانب نَفَس عسكري باصماً أثراً يحكي استحواذاً استعمارياً، استعلائياً قاصماً.. أما الوجه الآخر فوجه طرابلس المدينة المسوَّرة بهيكل قلاعي وأبواب وسيعة، يوماً ما كانت تُغلق مع أول زحوف شمسي باتجاه الغرب.. تلك المدينة المنكفئة ببيوتاتها شبيهة الاقنان وجوامعها ذوات الجدران الجبسية والمنارات الشاهقة خجلاً وهي تترصد، إضافة لمهمتها الطقسية، سفنَ الغرباء الغازين القادمين من أقصى الشمال، وقوافلَ الطامعين من الشرق والغرب والجنوب لتعلن قدوم الوباء البشري بغية اتخاذ الإجراءات الغريزية في الدفاع.

يزورني مبارك عصراً فنخرج على صدى بقايا رنين "سوق النحاس". نجتاز ازدياد المد النسوي القادم للاستحمام ببريق الذهب المندلق شلالات، المنسكب من خلف شفافية واجهات المعارض الزجاجية

الضاجّة بعريها اللاهث، في سوق الذهب.

نخرج من القوس الصخري لندخل ميدان الشهداء، جنباً إلى جنب مع الأفراس الفاغرة الأفواه حاملة زهرة عبّاد الشمس التي بهيأة نافورة تزدهي بماء نافر ورذاذ مطري، مبعثر. يسألني مبارك بلهجة طرابلسية لا تخلو من نغم فطري:

- وين تبّي نعدّي؟

فأرد بمن استعذب السؤال، وبمن تعلّم بدايات لهجة محببّة:

- كيف ما تبّي!.. أنت عيني هنا. لا أرى طرابلس إلاّ بعينيك... هل سمعتَ بتلك الحكاية التي كانت تقصّها الجدّات في ليالي الشتاء الباردة، عن ذاك الذي عبر سبعة بحور ليجلب تفاحةً كدواءٍ لحبيبته العليلة، عربون لنيلها والظفر بها زوجةً؟.. أنا حفيد ذلك الموشوم بالشرط المستحيل؛ المهموم باحتمالات الفشل الذريع. لولاك ما كنتُ أدري كيف أتصرّف.

- إذاً سنزور مقهى تبحث عنها. ستجد بيئتك التي تروم.

- ولكن!.. المقهى لا تستهويني؛ يا مبارك. السمكة بيئتها الماء.

- ستدخل ماءَك الذي تبغي.. صدّقني! لن تلومني.

لم تكن مقهى بالمعنى التقليدي المتعارف .. لم تكن مكاناً لاستحداث التداول الكلامي وصرف الوقت هدراً. إنها حديقة مقتطعة من تجمعّ هندسي مُلفت، لأننا عندما وقفنا عند المدخل العريض واجهتنا لافتة في أعلى البناء ذي الطوابق الستة تحمل أربع نجوم وتصرِّح باسم "فندق الصفاء".

كذلك لم تكن زيارة عادية بنتائجها، لأنَّها ستغدو فاصلة في جملة

حضور وانعطافة في مسار حياة. وستقود إلى لقاءٍ غير موعود بمن كادت تقلب موازين أحداث خطّط لها القدر ورسمها لسنوات قادمة من عمر الآتي.

عندما تدخل متحفاً للأزياء الفولكلورية، وتقف إزاء نماذج جبسية لشخوص ترتدي أزياءَ الحقب الفائتة، وأنتَ راحل مع تفاعيل الخيال تصوّر تفاصيل ظاهرة تلك الحقب . ثمَ من بين النماذج المحنَّطة يمد أحدهم لك يداً فتكتشف أنكَ جافل؛ وأنَّ الماثل كان يمارس معك لعبة الكاميرا الخفية. عندما كل ذلك يحصل ستخرج ضاحكاً أو متأثراً تنوء بسؤال كيف أنّكَ لم تميّز حيوية اللدانة البشرية من صورة الصلابة الجبسية.. لكنكَ أيضاً ستقول مَقلب، لا غير. يحدث للكثيرين؛ لا يخلو من روح الدعابة. غير أنَّ للظاهراتيين موقف أوسع، شبيه بما تفعله الحياة معنا. فنحن نتوه هائمين بوهم خدر طراوة الدنيا، ثم بغتةً يدفع القدر كفّاً مختلسة تجرجر صفو الأحلام وتطيح بهيبة بهاء الهيام. ذلك أنَّ مَن جاءت تطرح سؤال طلباتنا كانت مغربية خلاسية الملامح.. قال مبارك: هذه بشرى؛ تدير جناح حديقة الفندق.

لم تكن بشرى ممَّن لا تكترث بالزبائن. ولم تكن أيضاً وزّة تعلك بعجيزتها دلالة الغنَج ولفت الانتباه.. وجهها مرآة عاكسة لدواخل هادئة، ومتزنة، ووديعة.... هذا التوصيف سيقودني يوما إلى اكتشاف أنها ما كانت نادلة تلبّي الرغبات، ولا فتاة تشتغل لتعيش؛ ولا رقماً يمكن أن يُضاف لأرقام التهميش... الأيام سترمي أمام طاولة نردي كياناً ثقافياً. كتلة حيّة من المشاعر، وكتاباً لا ينتهي؛ بأسطر من طاقة معرفية متأججّة؛ وأفكار تمتح شمس التحرر والانطلاق من ربقة القيود في

عالم عربي مأزوم جرّته أنظمة التخلف المتهرئة والنظريات الثورية البائسة ليغدو في حضيض المجتمعات البشرية، وعاراً لا يُمحى في عِداد المدّ الحضاري الإنساني.

يومياً صرتُ أخرجُ من دكنة أزقة طرابلس القديمة بعدما تقول لي عقارب الوقت: هيّا؛ انهض. أُترك كتاباً ترحل على صفحاته أو ورقةً وقف على مائها قلمك ينتظر فكرةً تنشر طرف شالها على صدر رغبتك في اصطيادها، أو كلمة استعصى حضورها لتزيِّن سطراً غزته الموسيقى ولم يكتمل تآلفها إلاّ بانبثاقها.

يحدث وأنا أخترق شارع " المقريف " أن أدخل بناية البريد لأفتح صندوقي علَّ رسالةً تحمل روحاً يبوح؛ مع علمي أنَّ الأيام لمّا تزل قليلة لم تتعدَّ الشهر، وليس من المعقول أن تذهب رسالتي ويأتي ردّها خاطفاً بهكذا زمنٍ قياسي.. وإذْ أفتح الباب الصغير ويخاطبني الفراغ بهواء ليس إلاّ أُعلل النفس بالرضا وامنحها صك القناعة بصبر الانتظار.

لا وقتَ للقلق..

ثمَّةَ متَّسَع للتطلّع..

ما صرتُ أعتمد على مبارك في الخروج وحضوري للمقهى.. ما صار فضولي يعتمد على أسئلة انثرها بوجهه كي يأخذني كدليل سياحي يلف بي الدروب ويشرح لي تاريخ الأماكن. صار تحركي من عداد التحري الذاتي، واكتشاف ما هو جديد لم تصله شباك نظري.. صرتُ أجوبُ تجوالاً مترجّلاً، أو اصعد حافلةً حتى نهاية مسارها ثم أعود بنفس الحافلة إلى محطة انطلاقها، أو أنزل عند موقف مررتُ به

من قبل. ثم أعود نهاية المطاف إلى المقهى أجد مبارك ينتظرني أو يلتحق بي بعد وقت.

ذلك اليوم لم أجلس عند الطاولة التي اعتدت الجلوس خلفها. لا أدري لماذا اخترتُ طاولةً تأخذ زاويةً تحجبني عن معظم الجلاس لكنها تطلع الجالس على واجهة المقهى الزجاجية، ومن ورائها حركة العاملات ونشاطهنَّ في إعداد الطلبات.. قليلاً وأبصرتُ زبوناً يرفع يداً كأنّه ينادي على أحدٍ ينتظره. فإذا ببشرى تخترق مدخل الحديقة المحاط بأشجار ألآس والشبّو، حاملةً صينية عليها أقداح ماء، وضعَت أحدها على منضدة المنادي تلقّت طلباته؛ ثم استدارت فأبصرتني أجلس في انزوائي.

تقدّمت.. وبغير لهجتها الرسمية، بل بنبرة تقطر دعابة لا عهدَ لي بها قالت:

- بدأتَ تستبدل المواقع!.. أهذه بداية الضجر من المقهى؟

التعليقُ والسؤال هجما بكل احراجهما على خطوط غفلتي. فتحا أمامي - ولو بعد صمت - باب الرد الذي لا بدَّ أن أجعله أكثر تأثيراً في نفسها، وأشد وقعاً على ذائقتها:

- لستُ من محبّي تغيير المواقع. لكنّي من عُشاق الفُسحات.

ردّت كأنها اعتادت من مثل هكذا سؤال ورد من زبائن توالى حضورُهم إلى المكان.

- وهل أنتَ ممَّن يرتأون الاختلاء هروباً من البشر؟

- لا.. المقهى حضور اجتماعي؛ ومن يتوق إلى الاختلاء عليه بالبحر.. الشواطىء وسيعة؛ والبحر مشتاق.

- إذاً انزواؤك هنا عابر.. سأحسبه هكذا.

ما الذي جعل هذه الفتاة تقتحم عالمي، وتُربك هنيهة حاولتُ سرقتها من ساعات توحدي:!.. وكيف اندفعت تكلّمني كأنَّ لها باعاً طويلاً من المعرفة بي؟!

- لكِ ما تحسبين!.. المهم إن لا تظنينني ممّن يضجرون سريعاً. بالعكس أحببتُ المكان. المكان لدي صنو الذاكرة؛ وأنا ليس ممّن يتخلون عن ذاكرتهم.

ولكي أُطمئِنها وأجذبها إلى صفّ الود، أكملت:

- ووجودك يدفعني للحضور يومياً والبقاء لأطول وقت.

نظرتها الخاطفة قالت: شكراً.. غمّازتاها الضاحكتان على ربيع خدّيها أفشت بالانشراح.. استدارت لتأتي بعد قليل بقهوتي العربية التي لم أحيد عن ارتشافها يومياً.

رأيتها بعد هذا الحوار القصير تزداد حيويةً وترتع في مرابع جذل عميم، كما لو كانت غزالة ترحب بالمطر وترقص على مرأى من فيوض الماء وغدران الزرع اليانع أو فراشة رهيفة تطير من طاولة لأخرى.. من ميسمٍ لميسم؛ تكلّم هذا وترد على ذاك ... لا أدري من قال " إذا طابت النفوس غنَّت ".. وها هي بشرى تغنّي على أنغام نشوةٍ اصطادتها من بحر جهدها اليومي، ونشاطها بين جُلاّس تتفاوت مشاربهم وأذواقهم.. بعضهم لا يأبه لتحركاتها وتنقلها؛ وبعض ألمحهم يتابع خطو قدميها وهما يطآن عُشب الحديقة البهي بالتنّورة البنية الطويلة والقميص الحليبي الداكن، الملتصق على نصفها العلوي كَمن يبغي عرض فتنةً لا يجب بقاؤها متوارية تغتال امتلاء النهدين

ونفورهما، ونحافة البطن وضمورها، وانتصاب الكتفين وزهوهما.

لمحتها كلّما حانت فرصةٌ غب تلبية طلبات الجلاّس تتجه صوبي. تمر من أمام نظراتي كما لو كانت تحاورني بالحركة؛ تناظرني بالاقتراب.. ومن ما وراء واجهة المقهى الزجاجية حيث نشاطها والعاملات أبصرها تستدير تبعث بنظراتها إلى المكان الذي أجلس، والذي استحال صومعةً أثيرةً لها ومحراب وثير تهيل حنينها في انحنائه وحنوّه، وتسكب نظرات خشوعها على غبار توهّجه.

تلك الليلة عدتُ إلى البيت على توالي استرجاع المشاهد. استعيدُها من لحظة جلوسي وتوجّه بشرى إليَّ، حتى تحيّتي الوداعية لها والتفاتتي النهائية عند مدخل المقهى لالتقاط خفّتها الراكضة على درجات السلّم الثلاث نحو باب الصالة الزجاجي... استعيد بريق عينيها وتراكمات جذل يحتشد في الحدقتين.. مبتهجٌ أنا؛ واللحظة تحكي بوح سرور أشعر به لأول مرّة منذ وصولي طرابلس. لقد اختطفتني هذه المخلوقة من براثن الشقاء لتمنحني قدحَ الثمَل على اطمئنان الوله ولو للحظات.

وعدتني بنظرات لا تخلو من إعجاب...

رمت عليَّ ضباباً من خَدر...

أعادت لي قولَ مبارك وهو يستحضر الرد السحري على الرفض المتوقَّع:" سنزور مقهى تبحث عنها ".

لأولَ مرّةٍ أجد نفسي نائياً عن ذكرى الأهل، واستحضار صورة الحبيبة.

لأول مرّةٍ أشعر أنني منسلخ عن غمامةِ هموم؛ وداخل حلبة مفاجآت.

(٣)

ذلك الضحى الخرافي،الجميل.. وتلك النسمةُ السَّكرى، الهاربة من أعطاف البحر.. وهاتيك النافذة المشرعة وهي تنقل منبّهات السيارات رنَّ الهاتف في غرفة مكتبي الذي يجاورني به موظفٌ خمسيني لم يحن وصوله بعد. نهضتُ أرد وأنا الذي اعتدت تحاشي الرد خشية عدم فهم لهجتي من قبل المتكلم. رفعت السماعةً ليأتيني صوت مبارك يدعوني إلى لقائه في الفندق حيث يحتفظ لي بمفاجأة قد لا أتوقعها مطلقاً. اعتذرت متعللاً بعدم وجود مَن ينيب عنّي، خصوصاً وزميلي في العمل غير موجود ولن يوجد حتى بعد ساعة إذ كان بالاسم موظفاً وبالعمل هباء.

إصرارُ مبارك دفعني إلى ترك الغرفة وإخبار الموظفة الوحيدة في الغرفة المجاورة والتي تحضر مثلي وسط فراغ كرسي الموظف الذي يقابلها ولا يحضر، شأنه شأن زميلي المتواري بالخروج... خرجت!

ماذا يريد هذا المُصر بكل رجائه على ضرورة حضوري وأنا في ساعات عملي الرسمي؟!.. لماذا كان إلحاحه ثقيلاً لدرجة قوله إن لم تحضر تخسر ما تندم عليه عمراً؟!.. هل صدقاً سأندم عليه ما لم أحضر لأجله، أم مزاحٌ يريد أن يرشقني به؟!.. لكنني لم أعتد المزاح منه. الليبيون أقل مزاحاً من أقرانهم العرب. إنهم صارمون ظاهريّاً وإن هم طيبوا القلب داخلياً.

كان مبارك أول ما واجهني وأنا أدخل عبر الباب الدائري للفندق. وسط الصالة المزدحمة بمن جاءوا يسجلون أسماءهم نزلاءَ جدد، وآخرون انشغلوا يُعلِمون الموظف المسجِّل برغبة مغادرتهم، وآخرون

يرتدون الصداري الزرقاء والطاقيات الحمراء الداكنة كبدلاتٍ خاصة تميزهم كأحد تأثيثات البهرجة في فندق وسيع له روادُه وزبائنه الكثرُ.

كانت ابتسامته كافية لتبديد فحوى أسئلة ولدت في جعبة استفهاماتي من أول قدم أضعها على عتبة مبارحتي الدائرة حتى أول قدم أرسمها على عتبة باب الفندق. ومع هذا اندفعت أطلق عليه رصاص أسئلتي الخاطفة: ماذا؟.. لماذا؟.. مَن؟!

ردُّهُ كانَ ابتسامةً فقط؛ ظلت تتراقص على شفتيه وبريق يزداد في عينيه تفجّراً..

قادني من بين الحركة الدائبة صوب جناح المقهى.

ثمة الروّاد قليلون...

وهناك..............!!!

نهضَتْ كساحرةٍ من بين شرانق الخيال..

انبثقَتْ كزهرةِ لوتس تتباهى بانتصابها..

حقّاً كانت مفاجأة.. فعلاً كان إصراراً بمكانه.

ليست كما اعتدت مشاهدتها بذلك القميص الحليبي الداكن والتنورة البنيّة. ليست بتلك النظرة الجادة المحفورة على تقاسيم الوجه الساكن... بدت فتاةً تصلح لأن تكون موديلاً في الغلاف الأول لمشاهير المجلاّت.. تجلَّت حوريّةً يتمنّاها أعفُّ الأتقياء خليلةً له في جنة الخلد.. تمثّلت مخلوقةً تعبت على تكوينها آلهة الجمال كيما تصنعها إلهةً تركع عند قدميها جموع الخلق.. هل بالغثُ، وتطرفتُ في الوصف؟!.. كفّها التي صافحتني، وسلمتني لدانة شمعية، وفوران دم، وارتعاشة هاربة من تخوم التمالك زرعت في الأعماق يقين أني لم

أبالغ.

- مَن يخدمُكِ.. أنا أم مبارك؟

- لا، اعذراني! قالها مبارك.. أنسحبُ أنا. ما زالت بعض الغرف لم أكمل إعدادها.

إذاً ترككما مبارك لتكونا وجهاً لوجه مع اللحظة والمفاجأة.. رتّب لكما هذا اللقاء الذي يخفي أسراراً لا بدَّ لك من اكتشافها والدخول إلى غورها. كيف حصل ذلك؟ وما هذا السيناريو المحبوك بذكاء كأنه مشهد تمثيلي أُعدَّ له بإتقانٍ منقطع التخيُّل لينال وسام نجاحه... بشرى تبتسم فقط. فقدت بواعث النطق. مؤكداً أنها مثلكَ غير مصدقة عنف اللحظة، وتأثير البغتة. أو أنها تعوم في خدر نشوة مائية تعادل تحقق اللقاء؛ تماماً مثلما تشعر أنتَ الآن.

شكراً للنادل الذي قطع صمتنا، وسحقاً لمبارك الذي تركنا دون أن يجلس هنيهةً حتى يذوب جدار الصمت الشمعي المتبرزخ بيننا.. سألنا عن رغبتينا فاتجهت عينا بشرى تسألني... طلبتُ عصيراً.

- لماذا لا تشرب القهوة العربية كعادتك؟

هل كان سؤالاً استفزازياً يبغي طفح الأعماق أم استفهاماً بريئاً انسكب من غيمة الشغَف؟

- لا استطعِمُها إلاّ بيد مَن تقدمها لي في مقهى الصفاء. تلك القهوة تشفيني من فايروسات الغربة، وتعللني بالصبر. كأنَّ كفّاً ساحرةٍ تمرر تميمة الدعاء على بخارها المتصاعد.. كلما ارتشفتها أحسستُ باستقرار دفين واطمئنان عارم.

ضحِكَت!

ضحِكت بانتشاء خجول ؛ فأنتجت الضحكةُ طأطأةَ الرأس قليلاً ثم رفعه بنظرة امتنان ترتسم على ربوع الوجه.

– ألديك ما يتطلب بقاءنا هنا.

– لا..

فهمتُ أنّها رغبة بشرى في اللقاء؛ وشوقها للحديث.. فهمت أنها ميّزتني من بين حشد الجلاس واختارتني صديقاً قرأت لي أول نصٍّ ظهر قبل يومين في صحيفة "الجماهيرية". أعلمها به مبارك.. لم تحدثني عنه لكنَّ اهتمامها بي بعد قراءته في ما يبدو ازداد.

لم نتّجه أماماً بعد ما غادرنا الفندق صوب البحر الذي لا ينأى سوى عدّة محاولات نعبر بها الشوارع المتوازية بحركة السيارات المسرعة لنكون نحن والبحر على مبعدة لهفات؛ بل قادتني بالدرب الفرعي يساراً، ولم أسألها. حتى إذا قطعنا الدرب وأدركنا نهايته توقفنا عند باب خشبي حُفرت عليه نقوشُ عربية، إسلامية، وعلى الجانبين معارض مزججة تعرض كتباً بعناوين متفاوتة..

قالت: انظر!..

.. ونظرت!!

– عندك "المركز الثقافي التونسي – الليبي". يعجُّ بالنشاط الثقافي على مدار العام. سيكون حضورُك إليه كثيراً.

ونحن نقف وننظر إلى الداخل عبر المدخل الطويل أثارت شهيتي القرائية رفوفُ الكتب المتعالية، السكونُ الباعث على الإغراء، العيون التي تخرج من ثنايا المؤلفات تترصد حضوري الغريب وتدعوني بالنداء إلى الانضمام.. أهمُّ بالدخول وتقديم رغبتي فتسحبني بشرى بكف

صوتها المنغّم: سنزوره يوماً؛ أدري أنك شغِفٌ وملهوف.

نعبر الطريق، فيأخذنا فيء الجسر الهوائي العائم، ونتيه بخثرة هوائه المعبأ بنسيم بحر ساعات السَحَر وفسحة الفجر. ثم نقف عند أول طريق تتخاطف فيه المركبات المسرعة، ويتطلب عبوره انتباه حذر... ومثل أمٍّ تخشى على ولدِها من الخطر أمسكت بشرى بكفّي وسحبتني في لحظة اطمئنانها للعبور، تلك الكف التي سرّبت حرارتها ودمها وارتعاشها إلى دمي فألهبتني بنيران جسدها الذي أنا الآخر أحدثت فيَّ حرارةً وارتعاشةً وإغماء نسيتُ خلالها أنَّ ثمةَ خطراً يترصدنا ويمكن أن يَحدث بومضةٍ ترمينا تحت عجلات مركبة مجنونة فتقتل سعادة اللقاء الذي لم يبدأ النُّطق.

عند السور الحجري توقفنا. أمامنا الزرقة الشذرية؛ والموج الذي يبغي الانفلات من هواء دفعهُ ضباب بعيد محتشد كجيوش من الغموض المثير لفضول السؤال يتهافت فينتحر عند جدار السور، أسفل قدمينا...

استدارت بشرى، مسحت وجهي المنبهر من هذا الماثل بكل سحره وجبروته، وعيناي اللتين تبثّان سؤال كيف تقف هذه الحورية بكل رغبتها وانتشائه بنظرة فيها بوح الغارقين في حلم سحيق، ثم سمحت لمرفقيها الاتكاء على حافة السور والتطلع إلى جوف الضباب البعيد :

- أتدري أنني أهرب من البحر، لكني لأجلكَ جئت إلى هنا.. أنّه يذكرني بأبي المتألم والحدث الذي تركه العمر بطوله يئن حسرةً حتى اختطفه الموت ليرحمه.

- I am sorry .. قلتها بألم.. أمات أبوكِ غرقاً في البحر؟

– في بحر الهموم.. أما هذا البحر فيذكره ويذكّرني بهروب أختي الكبرى عائشة هربت مع عشيق لها؛ كانَ يعمل بحّاراً في سفينة يونانية تجوب البحار وليس لها مستقر. عاندت رفضَ أبي وتجاوزت نصائحه. لم يكن يريد لعلاقةً كهذه أن تقود إلى تشتت اسري وعقوق والدين.. كان يحبّها كثيراً ويعتبرها نسخةً إنسانية لأمّه التي كان يعبدها. لم تَجدِ محاولات أمي في ثنيها عن رأيها فهربت من مثل هكذا موقع في ميناء كازبلانكا في المغرب. صعدت مع عشيقها اليوناني باخرةً كان يعمل بها ولم نعرف عنها شيئاً. حدث ذلك منذ خمسة عشر عاماً. كنت يومها في العاشرة، وما زلت أتذكر جموحها وعنفوانها ورغبتها في امتلاك أمرها دون وصاية من أحد. لم تكن تولي بالاً للعادات والأعراف.. هروبها ولّدَ صدمةً قاتلة لأبي...

هجمت عليَّ أمواج الدهش، والأفق البعيد تكاثف ضبابه.. ماذا تقول هذه المخلوقة الصريحة؟ ولماذا انهالت بدواخلها بلا خشية تعرض عليَّ أسرارها من أول لقاء..

الكلام أعاد لي جيمس جويس:

– قصتها تذكّرني بقصة لكاتب ايرلندي؟

– اسمه جيمس جويس.. والقصة اسمها ايفلين ؛ في مجموعة تحمل عنوان "أهالي دبلن" أليس كذلك؟

العجب أفحمني بغرابة تشبه سماع خبر ملفّق.. من أين لبشرى كل هذا الكلام.. من أين لها هذه المعرفة التفصيلية في الأدب، هي العاملة التي لا تتعدّى مهنتها تلبية طلبات جلّاس مقهى يرومون شراباً ليس غير؟

- والعشيق يدّعى جاك!.. قلت.

- لكن ايفلين لم تلبِّ رجاءات جاك. استثنت اللحاق به في اللحظة الأخيرة، بعد مراجعة ذكية لقرارها ووعدها. أمّا عائشة فسارت قدماً ولم تتوقف لإرضاء أبي وتأجيل جموحها العاطفي على الأقل.

- وكيف عرفتِ قصة ايفلين بكل تفاصيلها؟

رأيتها تطلق لسان حسرة نارية كأنها تنفث لهباً:

- كان أبي ممّن يحبون الأدب. بل كان أديباً مغرماً بالقص والسرد. كان يملك مكتبة ضخمة في بيتنا. وكان ممّن يعشق أدب جويس ويحسب روايته " يوليسيس " من أفضل ما كُتب من أدب القرن العشرين وينظر إلى روايته الأخرى " صورة الفنان في شبابه " على أن الكثير من تفاصيلها تشبه بعضاً من تفاصيل حياته. أما كتاب "أهالي دبلن" فلم يكن يفارق منضدة مكتبه.

في الحقيقة كان كتاباً قرأه يوما ما ثم رصفه مع جموع الكتب المتكئة على الرفوف. وعندما هربت عائشة رأيناه يستلُّه ويُغرِق وجهَه فيه؛ حتى إذا رفعه أبصرنا عينيه تطفحان دمعاً. قليلاً ويدخل في هستيريا تقربه من الجنون، صارخاً بلوم المفجوعين: " هذه ايفلين لم تفعل فعلتك، يا عائشة.. لم ترتكب حماقتك الصانعة عاراً لا يُمحى من على جبيني. ".. من هي ايفلين؟ وما سرُّ هذا الكتاب؟!... رحنا أنا وأمي نتحين فرصة خروجه فنقلب الصفحات بحثاً عن ايفلين وقراءةً لما لها صلة بعائشة... الغريب أنَّ الكتاب لم يفارق منضدته سنيناً ثقيلة حتى أراحه الموت... فأعدناه إلى الرفوف.

- I am sorry!.. رددّتها مرةً أخرى.. لو كنت أعلم أنَّ البحر

يهشم سعادة لقائنا لما أتيت معك... لنترك المكان.. هيّا!

- لا.. لا... المكان جميل؛ وهذا الصباح أيضاً.. أنا متأسفة لأني رميت عليك ثقل ذكرياتي. لم أكن لأبوح لولا أنني عرفت عنك الكثير من مبارك.

جاء ذكر مبارك الآن ليجعلني أنقل الحديث، وأنأى به عن هذا اللقاء الملغّم بالحسرات:

- أمعرفتك قديمة به؟

- كنت أعمل وإياه في فندق قصر ليبيا قبل أن أنتقل إلى مقهى الصفاء.. كانَ شاباً دمثاً ونقياً. يحب الأدب ومتابعاً له. هو الذي أوصاني بالاهتمام بك..

ابتسمت، فأكملت:

- وأنا الذي طلبتُ منه ترتيب هذا اللقاء.

كانَ تحركنا وتجوالنا قريباً من المتحف الوطني ودخولاً في شارع عمر المختار حتى منتهاه كافياً ليكون لقاءَ تعارفٍ ودود. ولم يكن لقاءَ عشّاق بُني على السباب والمصادمة كما حدث يوماً بين بثينة وجميل فأرّخه هذا الأخير بـ: " وأولُ ما قاد المودّةَ بيننا / بوادي بغيضٍ يا بثينُ سِبابُ ".. كان لقاءً كُتِبَ عليه أن يتناسل لقاءات أخرى، وسنواتٍ سبع متواصلة ، أكتشفُ فيها بشرى فتاةً خرجت من بيتٍ مغربي أصيل، وأسرة متواضعة تحب العلم وتقدّس الثقافة فأراها شحنة من معرفةٍ. فتاة تتابع كلَّ ما يُستجد في رحلة الأدب والثقافة. ما أن أفتح حديثاً عن كاتب أو فنان حتى تندفع مكمّلة كل ما يتعلّق به.

حدّثتني عن أبيها الذي كان يعمل محرر عقود في محكمة طنجة،

وأمّها مدرّسةً اللغة الفرنسية في مدرسة إعدادية للبنات. حدّثتني عن عائشة التي هربت مخلِّفةً ثلاثة أعوام من قسم المسرح التخصصي في دراستها الجامعية؛ وعن أخٍ يصغرها بعامين تركته مع أمّها المتقاعدة حالياً، قالت: تميّزَ أبي بولعه بالرحلات والسفر الدائم. يقتنص أية فرصة تسنح فينسلُّ؛ مرةً يُعلمنا ومرات لا؛ ما يجعل العراك يندلع بينه وبين أمّي .. جاب الوطن المغربي ومدنه ؛ ثم انتقل سائحاً في عديد الدول الشمالية. زار أسبانيا وايطاليا وفرنسا وجميع دول اسكندنافيا . ومرةً وصل إلى الصين فجاءنا من هناك بصورٍ له يخطو على سور كأحد عجائب الدنيا السبع.. هذه العدوى سرت إلى عمّي الأصغر كذلك. فرحل مهاجراً إلى فرنسا؛ وهو الآن يعيش هناك منذ عشرة أعوام... إنَّ فايروسات الرحيل والغربة تسري في دمنا. لكأننا خلقنا لنصبح جوّابي آفاق.

في اليوم التالي التقيتُ مبارك.. أبديتُ تقديراً له، واحتراماً لبشرى. حدّثني عنها.. عن دماثة خلقها وثقافتها الوسيعة. قال عرّفتها على أسرتي، وأنها تزورنا باستمرار. صارت أختي الثالثة تخرج مع أختّي للتسوّق وشراء المتطلبات. بعد لقاءاتنا الأولى حدّثتها عنكَ ؛ وعندما أبدت إعجاباً بك قلت سأجعلكما تلتقيان. أنتما صنوان في الثقافة. يمكنك أن تثق بها مثلما تثق بكَ الآن.

صرنا نلتقي أسبوعيا، أو قد يمتد زمن اللقاء لأكثر من ذلك.. أرى فيها المخلوقة التي تستوعب بوحي وتتقبّله فتعطيني إجابات لاستفهامات متهافتة ؛ وهي تنظر إليَّ نصيراً لغربتها؛ تتعامل معها بصك الثقافة ولسان الاعتداد. تقول لي ما لا تريد قوله للآخرين؛

وتستقبل مني ما لا تبغي إعلانه. سبع سنوات كان الود كتابنا الذي نقرأ به ونتصافح بالقول السديد والصراحة الفائقة.. عرفَتَ عني كل حيثيات حياتي فاعتدَّت بما أفشيت لها من خبايا واعتبرته كنزاً لن تفرّط به.. كلّمتها عن أمِي وأختِي فتشرّفت بمعرفتهما؛ وحدثتُها عن نجاة، وحبّاً أتباهى به وأحافظ عليه فلم تجزع، ولم تُبدِ نأمةَ غيرةٍ نسائية. بل قالت: الحب هو ما يجب الحفاظ عليه؛ والحبيبة هي مَن ينبغي الإخلاص لها. فأنزهُ حبٍّ وأسمى هو ذلك الذي يتنامى كلّما بعُدت المسافات. لا يخبو ولا يضمر مهما اتسعت البرازخ.

تلك الأعوام كان لي على الأرض الليبية ثلاثةُ صحابٍ: مبارك، وبشرى، والشِّعر.. وهنالك في البعد النائي كانت الأمُّ، ونجاةُ؛ والذكرى... هؤلاء جميعاً يذوبون في الذاكرة التي تتأجج، ويخرجون في النصوص التي تكتب.

(٤)

بين ما بعثْتَهُ خلال أشهر تدنو من العام من رسائل إلى العراق وما جاءِ من ردود على لسانِ نجاة المتألمة أو أمّي المُتعَبة اندلعت حرب الخليج الأولى.

اندلعت بعدما كانت تردنا أخبار تحرّك عريان شمالاً وجنوبا يزور المدن والقرى؛ يغدق المالَ الوفير والعطايا السخية ليُظهر صلةً حميمية مع الناس.

اندلعت بعدما كنّا نشاهد رؤساء الدول البائسة والمُعدمة يأتون في زيارات متوالية ومتتالية يقدّم لهم عريان خلالها عطايا من أموال الشعب

المنهوب...

اندلعت بعدما بتنا نسمع عن اعتقالات تتابعية لرجالات الوطن وقاماته العالية، وإعدامات تطال مثقفي الأحزاب العريقة والتيّارات الاجتماعية الفاعلة سرّاً.

يبدو أنَّ عريان كان مصمماً على الاندفاع إلى الحرب بحماقةِ المستهترين وجناياتِ العصابات المارقة، وجنونِ فاقدي التقديرات.. دخلها ليرمي بالوطنِ المتعب منذ عشرة أعوام إلى أتون أفران تشوي الأجساد وتطيح بما لدى الناس من فسحةٍ للأمل في العيش المؤمَّل. ذلك الزمنُ المتمخضُ من رحمِ الأسى والآلام زرعَ العراقيين شواخصَ للويلات، وجعل منهم حكايات تراجيدية للذاكرة القادمة.

اندلعت الحربُ تاركةً لأكف الموت اغتراف الفلذّات وقبر الأرواح التي لم تنل حصّتها من الشباب... انطفأت شموس الأحلام، وأُهدِرَت نجوم كان مُقدَّراً لها أن تنير سماء الوطن الكالحة لتقلِّل من همودّية الأزل في الفناء، ولتُضئِّلَ عبثَ الوجود في سحق كائن بشري يجيءُ فرِحاً بما حوله فيواجه غب زمنٍ خاطفٍ بطلسمية الماثل، وانبثاق الأسئلة الهائلة

تزداد العتمة، ويولَد الأنين؛ تفضحهُ اللافتات السود المالئة واجهات البيوت معلنةً خبرَ موت، أو استشهاد، أو قتل: تعبيرٌ واحد لمفردة فناء بتجنَّ مقصود، وتصرّف أخرق.

صارت الرسائل تنبثق كلمات ملغَّمة بالمفاجآت الساحقة لدفاعات الجَلَد. في ثنايا ورودها تنفلق الأخبار الحزينة والأحلام المريرة .. تنفجر بوجه خشيتي أنباء قريبٍ قُتل أو صديق أُعتُقِل. بيوت هُدِّمت،

وأحيـاء عُبِـثَ بتضـاريس أهلهـا... الخـراب، والانحطـاط، والانكفـاء، والتآمر المُبرمج، وانكسار ألق السحر، وجموحات الليل العتيم تطال كل شيء: النفوس والرؤوس والنوايا، وسماحات كانت لافتات فخر مرفوعة على جدران القلوب. العراق الذي جُبِلَ على الوداعة والطُهر؛ الأرض الفاتحـة أبوابهـا للقـادمين البـاحثين عـن ضـيعة أمـانٍ وراحـةٍ ورفـاه. والعراقيـون الطيبـون، الأنيسـون، الـدمثون، الرائقـون، العـذبون؛ الأتقيـاء، الأوفيـاء، الأبريـاء، الأنبيـاء، الأحبـاء؛ المعجونـةُ مهجُهم بعسلِ النقـاء، المغموسـةُ أيـديهم بمـاءِ وردِ الترحـاب. العراقيـون؛ الأهـل اقتيـدوا مثـل سجناء مقموعين نحو زنزانات الغياهب وسوح الدم المسفوك جهاراً أمام أنظـار عـالمٍ سادٍ ودول نفعيـة لا تبغـي سـوى تحقيـق ارتقائهـا ولـو علـى جراح وآهات الموجوعين؛ وسياسات خُططٌ لها في أزقة الجريمة وخفايا المؤامرات بأيدي مافيات لا تعرف إلاّ القتل الجماعي لشعوب تتطلّع إلى النأي عن الانسحاق.

دولُ الخليج دفعت أموالَها ليستمر دولابُ الحرب.

العراقُ دفعَ شبابه لتستمر المحرقة.

أمّـا إيـران الطـرف الثـاني لمعادلـة الحـرب فتحتّمَ عليهـا دفـعَ فـاتورة الاثنين: المال، والبنين.

الأخبـار نتلقفهـا مـن وسـائل الأعـلام ترسـم بانورامـا القتـل الجمعـي بلوحة سريالية غير منتهية الأبعاد. ألوانها الدماء، والنار، والصرخات، والتأوّهــات. الشــجاعة الغبيــة، والجــبن العقــيم. البيانــات الكاذبــة، والانتصارات الزائفة... كثرت نسور الفطائس، ونمت جرذان الجحور.. شبعت الزواحف، وامتلأت بطون الديدان... الجنون يرفع بيارق أيامه،

وعزرائيل في حمّى انتشائه؛ بينما منكر ونكير أصابهما الوهن وصارا يختصران أسئلة التحقيق... يُعلِمني كمال برسالة مقتضبة ستكون رسالة الانقطاع لأربعة أعوام بأنّه على مشارف معركة دائمة لأرضٍ يسكنها البارود والأشباح، اسمها "ديزفول" . جندي سيقَ مع مَن رِكلوا من خلفهم بأعقاب بنادق القتلة ليكونَ هو والجميع وقوداً دائمة كي ما يظهر عريان من الشاشات يُعلن انتصاره كقائدٍ عسكري هُمام؛ هو الذي لم يدخل مضمار العسكرية يوماً واحداً في حياته؛ هو الذي قضى شبابَه فارّاً، هارباً تتعقّبه فقرات قانون خدمة العلم، وتلاحقه مفارز " الانضباط العسكري "... وتوافيني رسالة من نجاة؛ حبرُها قلقٌ، وكلماتها لافتات تعلن أنين الثكالى وكمد الأرامل واغتيال جنان الآمال لأطفال قالت لهم الحرب العابثة / العبثية / اللاهية / اللعوب هيّا اكبروا، وترعرعوا فعهدي بكم وقود المستقبل، لأنَّ نهايتي لا أفق لها، والمتصارعان لا يأبهان. أبناؤهم وأحفادهم في جحافل الأمان. لا يعرفون للنار ملمس، ولا للفقدِ حرقة، وحدهم المسحوقون الوقود الجاهز لتفعيل دولاب الطحن المستديم... وأنا هنا! ما أن أجلس في جمعٍ ويعرف بعض أفراده أنني عراقي حتى تواجهني الأفواه تبثُّ جملة الآراء المتناقضة؛ بينَ مَن يرى في الحرب عودة الكبرياء العربي المنتَهَك في زمننا المعاصر ليسترد عافيته بمعركة أطلقوا عليها اسم معركة الدفاع عن البوابة الشرقية للوطن العربي، وبين مَن يجافيه باحتساب هذه الحرب لطخة سوداء وعار على جبين نصاعة الإسلام والعروبة، استناداً على أنها حربٌ بالنيابة. فليس عريان سوى أداة لتدمير ثورة جاءت لتعيد للإسلام هيبته وعظمته، وصوت لمخابرات دولية جهنمية؛

ربّتهُ وهيأته أعواماً لهكذا مهمة لا يجرؤ على تأديتها أعتى الخونة ولا ينفّذها جِهاراً أخسُّ بائع ضمير.

البعد والنأي والفراق المتراكم يجعلنا نفقد بوصلة الأمان ونفتقد نسائم استقرار تمنحنا فسحة من طمأنينة هاربة... داهمتني شتى الصور الكابوسية أيام كانت وكالات الأنباء تنقل ضراوة المعارك واضطرام النيران على حدود تتجاوز الألف كيلومتر؛ مع تسلل طائرات واختراق صواريخ تضرب مدننا المستكينة لقدرها العتيم.

تنبري صورُ الصحافة تعرض أجساداً ممزّقة، وجثثاً متفحمة، ونيراناً تلتهم أحياءً برمّتها. وفي المقابل نرى صورةً لأحد قادة عريان، آمر أحد الجحافل العسكرية برتبةٍ كولنيالية يشرب " الكوكا كولا " أمام جثث بشرية ممزقة جمعت القتلى العراقيين والإيرانيين على السواء، عارضاً ابتسامةَ انتشاء أمام عدسة الكاميرا كما لو أنه ينتصب بين حقل زهور لتؤخَذ له لقطةً تذكارية باحتفالية واحتفائية مزدوجة بينه وبين ازدهاء الطبيعة.

الرسائلُ تأتي متعاقبةً.. مرةً من أمّي وهي تبث آهاتِ أخبارِها عن سلامتها وسلامة أختي وزوجها وأولادها والأقرباء؛ وأخرى من نجاة تحوي أوراقاً عديدة تتأرجح بين الشوق واللوعة، وتفاصيل صغيرة تدوّنها كما لو كانت صبية تلعب مع ألعابها فتبثّها ما يدور في منعطفات الذهن بلا اتساق ولا تجمّع فكري مترابط.. أتذكّر صفاء ذهنها يوم وداعنا وافتراقنا.. أتذكر تعلقها بي ووعدها بالوفاء.. وأتذكر....!! آ؛ يا إلهي!!!.. أهرع إلى حقيبتي. أمدُّ يدي إلى محتوياتها. تصطدم أصابعي بشيءٍ أحدثّ صوتاً كأنّه انقصاف ورق. أجعل الأصابع

تسحبه؛ فإذا هو مظروفٌ يقول أنا نجاة. اعترتني رعشة رهبة وتردّد، فاندفعتُ أبحثُ عن ناصحٍ يدلني على لحظات صادقة وواثقة لما سأفعل.

هكذا عندما تدلهم غيوم التوفزات ويغور الأفق في عتمات اللاوضوح.. عندما تواجهك علامات الاستفهام منطلقة باتجاه حسم الحيرة المتوالية كأنها رصاص الغيب المُقلِق أو سحب الأحداث التي تريد التحققّ على قرطاس التدوين التاريخي.. عندما تقف كأنك بانتظار نتيجة امتحان لا بدَّ من البحث عن سوَرٍ وآيات تفتح مغاليق الاستقرار لتتسلَّم بيدك على الأقل تميمةً شجاعة وجَلَد لتتلقّى المكتوب حتى وإن كان محفوراً منذ دهر.. عندما كل ذلك يتبدّى؛ ليس لك بعدُ سوى التقبّل والمواجهة لفكِّ شيفرة المبهم... خصلةُ شعرٍ تدلَّت من انطباق السبّابة والإبهام فاحتضنتها الأصابع وراحة الكف. خصلة طويلة، قهوية، جعِدة ولامعة كأنها قُصّت للتو. فيها رائحة نجاة... من بين صفيفها فاحت أنفاسي؛ ذكّرتني بلحظات دفن وجهي في غزيره، وأعادت لي كلمات همسي فتناثرت أمامي تأوهات قلتها؛ مِن مثل:" نجاة!.. أنتِ معبدي الذي لا تكتمل طقوسي إلاّ بين جدرانه، ولا يُقبَل وضوئي بغير ماء فضائه!".. "نجاة!.. أنا عابدُ إله يُمجِّد بهاءَ المرأة ويركع عند قدمي كبريائها.. طفلٌ يجدُ فيك أُمّاً وسماءً.. أيضاً؛ أيضاً أنتِ أبي الذي ظلمني بموته فتركني على قارعة انتظارك أعواماً أحسبها سحيقةً قضَمت من غيوم بهجتي الكثير! "..: آه، نجاة.. ما هذا؟!".. قصاصة هتفت من بين ثناياها كلمات: هيا أطلقني.. فأفردتها لأستحم بفيضها... آآآ.. يا الهي؛ ما هذا؟!!.. ما الذي فعلته نجاة؟... الورقة

مُلِئت بكلمةٍ واحدةٍ لا غير: أحبُّكَ.. أحبكَ.. أحبك.. أحبك.. أحبك.. أحـ..... سيل من الحب. شلاّل من بوح تدفَّق جامحاً.. إنّه روح نجاة يتمزّق / يتشظّى / ينهال / يُهرَق / يتفجَّر / يندلق / يذوب / ينهصر / ينصـهر / يسـيل / يكتـوي / يتلظّـى / يبكـي / تـدمع عينـاه / تتسـفح عصارته.. يقف ليحكي / ينحني ليخشع.. يقول ليقول كلَّ الفحوى؛ ليُفرغ كاملَ المكنونات.. أحبك.. أحبك.. أحبك.. أحبك ".. خشخشة سلبتني من إحصـاء كلمـة أحبك؛ فأين الخشخشـة؟!... منـديل ورقـي أزرق شفّاف بلون بطن المظروف ينام في العمق. افتضاضه الوئيد عرّى وردة لوتس بيضاء، بكأسٍ ينتظر الامتلاء... تميمةُ نجاة وردة: قلبها أبيض؛ وفمُ الكأس فمٌ ظمآن تأملتُ افتغاره فتذكّرتُها تطعمني شهد الوفاء وتطالبني بأن أكونَ باني هرم إخلاصٍ شامخ... يخوض الرجل في مخاضة تأزمه وسط لهفات حبيبة انهالت عليه بالشغف، تحتّم عليه بالوفاء. الرجل غارق في نثار التوق لارتياد حلبة بهاءِ الشمس تهمي فقاقيعها الدافئة على سطح بحيرة نهاراته المدارية المُبهمة؛؛ ومحاط بنفس الوقت بعهودٍ ، تتناسل المطبات والبرازخ والتابوات لمنع تحققّها... والحـرب!!.. آه! الحـرب.. هـا هـي تغـرز مخالبهـا فـي جسـد الـوطن العليل. فإلى أي اتجاه تنحو بوصلة مسؤولياتكَ ومهمّاتك المتراكمة العصبية؟.. أين سيتّجه شِعرُك في التصوير والتوثيق؛ وأينَ تتمرّس مفرداتك لتتسفح في مهمة تسديد ديون الوفاء... هل ستقف تردد تحدّياً قول الجواهري: "باقٍ، وأعمارُ الطغاة قِصارُ" أم ستتلقّف إعلانَ شوقي في اللامبالاة واعتراف متع الذات الآنية فتردد وقوفاً معه: "رمضانُ ولّى، هاتِها يا ساقي".

تقلق!!..

تلتجئ إلى مبارك، وتلوذ ببشرى. تفرش أمام طاولات استقبالهما ما يساورك من تطيّرات على الوطن والأهل.. على نجاة وخوفك من ضياعها في بريّة الهواجس والجنون. ذلكَ أنكَ لم تعهدها كتبت لك يوماً بتشتت ذهني كما رسائلها الأخيرة، ولم تكن يوماً ممّن توحي بالضياع.

تغمر يراع أعماقك في حبر الأسى فتكتب رسائل تبعثها إليهم ونصوصاً شعرية توجهها إلى عديد الصحف العربية فلا ردٌّ الأهل والأحبة يأتيك، ولا النصوص تجد حظّها في النشر.. تخلق عذراً للأهل بناءً على ظروفٍ قاهرة قد تعيق كتابتهم إليك؛ ولكن كيف تعذر من يقطع نشر إبداعك لأسباب تدخل من باب مصارحة وقحة.. ما يُراد من قصائد ومقالات لا بدَّ أن تعرض بطولةَ أمّةٍ تنتصر، ورجلاً يهندس المعجزات، وجيشاً يفتح نافذة نور على أمّة ملّت الظلام. يُطلب منك كتابة قصائد فرح، قصائد هتاف. صور تفجر في قلوب القراء براكين حماسٍ وشعور بازدهاء. إذا كان هذا هو السائد على صفحات المُراء، والمطلوب في دنيا النفاق كيفَ إذاً تتخطّى كمائن المبتهجين بوجعِكَ؛ المنتظرين هلاكك ليقولوا انتصارهم الكاذب؟ كيفَ تتعامل مع أولئك المرتزقة المنشرحين لمشاهدة بؤر النور العراقية تُطفأ أو تنفرط في أصقاع العالم تحتويها مدنٌ نائية تسقيها الغربة وتطعمها اللوعة؟.. كيفَ تبني صوتَك الشريف وتهندس رؤيتَك النقية وأنتَ تخاطب جدراناً لا تمنحك الاتكاء المستقِر وتمنعكَ الكتابة على سطوحها؟.. جدران لا ترتضي إعلان ما لديك من صوت يشكو حالَ شعبٍ يُنتَهك ووطن تعبث على ثراه أقدام السفّاحين؟.. شكواكَ تغدو معفّرة بوحل الارتداد،

فثُلام من الكثيرين على أنكَ تمرر فرشاة سوداء على لوحةٍ محتواها لا يشي بالتطيّر...

تأتيكَ النصائح قائلة:

* لا يجب رفع عقيرتك..

* تمهَّل واستتر..

* اصمت..

* عش ليومِك ودع الوطنَ يخرج بنفسه من رداء الألم...

تمنعك النصائح.. وقد تهددك. فتروح منتفضاً تردد ما قاله أحد قادة نابليون عندما منعه الأخير من استلام ولاية عهد مملكة السويد:

- "لقد خُلقتَ لتكونَ آمراً، لكنني لم أُخلَق لأكونَ مُطيعاً.".

(٥)

وتستمرُّ المحرقةُ.. وتتهافت الأعوام. يصير القتلُ عبثاً ؛ والأخبار تتّجه لبؤرٍ ساخنة أخرى من العالم.. تنسى البشريةُ أنَّ ثمَّة آهات تتفجر نادهة، مستنجدة بمن ينبري ليحيلها أنفاس ارتياح. ينسى المجتمع الإنساني بمنظماته وجمعياته ومؤتمراته وشعاراته حمّى طاحونة الدمار. تركوا حال المتحاربين يخوضان في وحلِ غبائهما الثقيل وعنجهيتهما الزائفة، وانتصاراتهما الكاذبة، وولجوا من بوابة نسيان الأمر.

حتى الأهل في الداخل انكفأوا تحت لامبالاة الحياة، أو أنهم استكانوا لمحصّلة مجريات الأحداث.. الأخبارُ انقطعت، والجميع سكتوا. لكأنَّ الوطنَ مات وأبناءه في الغربة استحالوا طيفَ ذكرى. ما لكَ إذاً غير أن ترتّل بأسى القلب وحرقة الفؤاد قول الجواهري وهو في

قمّةِ ألمه وجرحهِ المفغور: "لي عتابٌ على بلادي شديدُ". أنتَ الذي لم ترضَ قولَ ذلك الطعين "قررتُ يا وطني اغتيالَك بالسفر".

تنقطع رسائل نجاة نهائياً بعد ما تلكأ قدومها بين أشهر متباعدة، ورسائلي العديدة لها طفقت تغرق في يمٍّ بحرٍ صميت. شتى الهواجس تهاجمني؛ تطيح بي مختلف التهجّسات. لا أفقه هكذا انقطاع ؛ لا أجد مبرراً له سوى أنها أرسلت مرةً تقول: " قد تغدو أشواقنا المتبادلة عن بعُد، وآراؤنا المرسلة بين الأشهر محض كلمات. قد نغدو من عِداد أولئك الذين قالوا سنلتقي وهم في دروبهم يفترقون، غير موقنين بحتمية اللقاء.. هل سنلتقي؟!"

لفرط تنامي توجساتي وتعاظم الخشية أيقنت أن مكروهاً حصل لها أو أمراً ما دفعَها لخلقِ هوّةٍ بيننا، توسّعها أيامُ البعاد المتهاطلة، أو ربما الشعور باليأس من اللقاء لاسيما وهي تعرف أسباب خروجي. وربما أيضاً خشيتها من أن تُكتشف رسائلها فتتجه كلاب عريان للإضرار بها أو بأبيها؛ وحتى بأمي وأفراد أسرتي.

وأتذكر رسائل أمّي وإفصاحها عن عظم المعاناة التي تتراكم أمامها: "يا ولدي منذ سفرك ونحنُ نعاني من أفعال شيطانية يفعلها الجن الموبوء بالحسد والحقد.. لقد عملتُ أحجبةً وبخرت البيت بكامل غرفه وزواياه لطردهم ولكن لا جدوى.. إننا مبتلون. والبلوى لا تنتهي.. أنا الآن أسكنُ مع أختِك هروباً من المنغِّصات.".

أدرك أنها ليست أفعال الجن، إنّما أفعالُ كلابِ عريان تسعى لتعكير حياة أهلي فهذا ديدنهم الخبيث مع مَن يبرح الوطن باتجاه فضاء الحرية.

أُصاب بالحمى جرّاء التفكير؛ فأبقى في البيت حسيراً. انقطعُ عن الخروج وارتياد المقهى فأُفاجأ إحدى الليالي بالباب تُطرق طرقاً خفيفاً!
وكانت بشرى!!

... يا إلهي؛ لا أصدّق! خلتُ ذلك أمراً عجيباً في طرابلس، وفي حيٍّ محافظٍ لن يغفر لحدوث مثل هكذا أمر لو أُكتشف.. خلته تصرّفاً مجنوناً منها، ومخاطرة كانت ستكلّف الكثير من الحساب والسمعة. قالت أنها جاءت متخفية بين أردية الظلمة التي تغلف الزقاق، مصممة على الوقوف على حالتي وتقديم رعايتها لي.

لم أُظهر لوماً؛ فأبديتُ شكراً.

لم أُعبّر عن تطيّرٍ؛ بل أفصحتُ عن امتنان.

أخبرتني أنها افتقدتني لأيام فاستفسرَت من مبارك. هو مَن أطلعها على تدهور صحتي ووصف لها مكان سكني. مصممّةً على زيارتي توجهت؛ ومتحملة كل التبِعات قررت. كنت قد تلفنتُ لمبارك وأخبرته أنني في هيجان وعكة تأتي بنيران الكون فتبثها في جسدي.

جاء مسرعاً!

ومسرعاً خرج، يأتي لي بأدوية تقللُّ جنون الحمى وتضئِّل خطورة فايروسات بث الهستيريا في عقلي المشوَّش. صرف جلَّ وقته إلى جانبي وانهمك في محاولة جعلي أكثر قدرةً على مواجهة المرض... وها هي بشرى تنهمك في ترتيب أشياءٍ لا يعيرها اهتماماً كل مَن كان مثلي عازباً وحيداً لا يتوقّع أن تقتحمه امرأة فيسقط في براثن نظرتها الناقدة. جمعت ملابسي المتّسخة؛؛ ساعةً وأكملت غسلها ونشرها. ثم إلى المطبخ اتجهت تعدُّ حساءً مغربياً فتأتي به ساخناً. ترسم ابتسامةً

هي مزيج من دعابة وألم لِما يحصل لي:

- باش ما تموت خوذ هذا الكشيك؛ يشفيك. باش بكره تجيني صحيح كيف الحصان.

- يعيشِك..

تملأ الملعقةَ حساءً. تدفعها إلى فمي كما لو كنتُ طفلاً.. كما لو كانت أُمّاً... ولأولِ مرّة أحسُّ إعصار حميمية فائقة يضرب جوانب روحي فأُقدِّر حسنَ صنيع يسرى وتفانيها. أقدِّر عُظم المخاطرة التي سلكتها لأجلي فجاءت للمواساة والطمأنة. وتقدّر هي هول وضعي وضخامة معاناتي.

تستدير يساراً لتتصالب عيناها على منضدة الكتابة. تلمح أوراقاً وقصاصات؛ تلمح كتباً. تنهض بشغف من تفاقم الفضول في أعماقه كرغاوي الغيوم الدافقة.. ترفع حزمة أوراق لنصٍّ انتهيتُ من كتابته حديثاً. تزرع نظراتها على أسطر الصفحات. تلتهمها التهاماً:

- مآلُكَ قِشّة!... أهذه قصيدة؟ سألتني باندهاش..

وقبل أن أرد اندفعت تقرأ بلغةٍ سليمةٍ وصوتٍ تمثيلي حسدتها عليه:

على ماء الكتاب تكتوي أصابع قلبي

وطلاء الروح يأتي متعكّراً من غراء

لهاثي.

سقوف الضلوع أبجديةٌ للّظى.

نعم.. أنا القائل:

خطى المسارات مبعث للتلاقي.

وكلّ مساماتي حروفٌ للأهلّة.

كذلك أنا القائل: أحبُّكِ.

وأدري أنَّ ماء الكتاب يناهضني

بالسرابات المتنافسة..

يساجلني بالخيبات، واستبدال

ترجمات أصابعنا المتشابكة بتموّجات

الفقد. تلغي صدى قبلاتنا المزغردة بحشرجات

الضياع.

- لا أصدق. لا..! هذا ليس شعراً فقط. هذا حفرٌ على جدار القلب.أبدت انبهاراً بعينين اتسعتا؛ واندفعت تكمل بنبرةٍ مسرحية:

آ.. أتذكرين؟!

عند أزقّة كفّيكِ خبأتُ لثمي.

وعلى سهوبِ عنقِك أودعتُ أنفاسي.

أتذكرين؟!

مستعيناً بخفقةِ صدرك

جابهتُ الرحيل.. ضممتهُ في ثنايا معطف

الصبر.

آ...

رحلتِ وفي كفَّيَّ قَسَمٌ من فمِ عينيك

بحتميةِ احمرار الورد، وشفاء الوطن.

أتدرين بغيابكِ تناسلَ عسسُ السلطان،

وتوالدت جحافلُ المستحيل.

صارت الشوارعُ متاريسَ

والبيوتُ دروعاً..

ومدافعَ!

ودبابات!

وأجهزةَ إنصات..

نقّالاتٍ، ومكائدَ محمولة.

صار قلبي جبهةً بمواجهة غابات الهلع،

ونوايا الرماد،

ولافتات تبشّر بدم سُيراق،

وخوفُ أمي عليَّ

وتخاذل أخي الساخر من صلابتي،

وحزن الأصدقاء،

وكيد الأصدقاء،

وعواء الكلب البعيد، خالق بانوراما الدسائس

المهولة لتدمير سدّنا المنيع

وتهشيم نواصي الشِّعر الذي بنيناه

بآجرات الألم،

وعرق العذاب،

وحزن الحيارى،

وشوق المعذولين.

صار قلبي، يا مشطَ حنيني وعطر اختلاجاتي

وكريات شوقي الراعف مدىً.

مدىً صار مستديما.

لا ضير – بعدها – إنْ تكدَّست جحافلُ الأنياب

واستطالت ألسنةُ السكاكين.

لا بأس تراكمُ طوابيرِ العَسس

فمآلُ السلطانِ قشّةٌ، يطمرها تُرابُ

نعليكِ

بلا اكتراث.

– نصٌّ مشحون. أستطيع تسميته نصَّ الألم والتحدي!.. قالت بلسان ناقدة.. في النصِّ قطبان: قطب المظلوم تمثله امرأة، والظالم قطبٌ يمثله الحاكم. وما بينهما أرى الشاعرَ يصف، ويسرد، ويؤرخ... العنوان يعرض بؤرة النص وكثافته. والاستهلال ينصب فخاخ الغور في النص ويؤجج الفضول للوصول إلى المنتهى. والمرأة التي وجودها واضحٌة هنا. هي الحبيبة التي لا تفارق عهدك لها بالوصل؛ ووعدها لك بالثبات. مؤكداً أنها نجاة.. أو هي ترميز لأرضٍ تركتها مُجبَراً.

أعجبتني قراءتها السريعة للنص؛ لكن لا طاقة لي لإبداء إعجابي. منهكاً كنتُ، لدرجة أن ليس لي قدرة على رفع ذراعي أو تحريك أصابعي لفتح المذياع وسماع سيمفونية الحرب والدمار.. كنتَ أريد أن أقول لها قراءَتُكِ صادقة وتأويلُكِ صحيح. نجاةُ هي الأرض؛ والأرضُ نجاة، ولقد بحتَ لكِ بتعلقي بها وانشدادي إليها.

كانت الحمى قد هاجمتني قبل أيام عندما توالت الأخبار تنقل صدى الدخول الأهوج في أتون جهنم. لقد قرأت الكثير عن الحربين العالميتين الأولى والثانية. قرأت عن الملايين الذين رُموا وقوداً لمعارك خططٌ لها الطامعون المستهترون، ونفّذها المرائون المنافقون. وراح

ضحاياها المكافحون البائسون. يتنامى حقدي على مشعلي الحروب وتراودني أمنية أن أستلَّهم من أحشاء قبورهم جميعاً، وعلى مرأى من المعذّبين أُضرم فيهم نار الشماتة والتشفّي ، وانده بالمعذبين أن يذروا رمادهم في عصف الريح لينقلها إلى مراتع العفن.

تبصر بشرى احتداماً داخلي تفضحه عيناي. تتحسسّ ارتفاع حرارة أعضائي فتقترح المبيت معي والسهر على راحتي بغية الاطمئنان. غير أن توجساتي وخيفتي من أنّ يكتشفها أحد فيظنُّ بنا الظنون دفعني للمانعة.

تلك الليلة انصرفت ساعاتها بإحساس هو مزيجٌ من ارتياح لموقفها الإنساني، ومعاناة من حمّى قاهرة.

أعرف بشرى..

عرفتها. فتاة امتلكت الرهافة الأنثوية والإقدام البطولي معاً.. في قلبها امتزجت العاطفة الأمومية والجَلَد الرجولي؛ الرقّة والصرامة؛ براءة تصل حد احتسابها طفلةً تحبو، و فراسة تصل يقين بأن لا أحد يفوقها ذكاءً. تابعتني كثيراً.. تتابعني؛ وتسأل عنّي كأمٍّ، وأختٍ، وحبيبة؛ وحين أغبطُها على ذلك وأُظهر امتناني تروح ضاحكة:

– أتعرف ما قالته عشتار بحقِّ نفسِها؟

– ما تقوله كلُّ امرأة عاشقة على ما أظن!.. ماذا قالت؟

تقهقه انتشاءً وتعرض صفاءَ ذاكرة :

– تقول (أنا الأول، وأنا الآخر. أنا البغيُ، وأنا القديسة. أنا الزوجة، وأنا العذراء؛ أنا الأمُّ، وأنا الابنة؛ أنا العاقر، وكثرهم أبنائي. أنا في عرسٍ كبير ولم أتخذ زوجاً؛ أنا القابلة ولم أنجب أحداً. أنا سلوةُ أتعاب

حملي؛ أنا العروس، وأنا العريس وزوجي من أنجبني. أنا أمُّ أبي وأخت زوجي، وهو من نسلي.).

– هذه امرأةٌ صلبة.. واثقة، وصادقة، المرأةُ كلُّ شيء.. مُكمّلة قُدّاس الآلهة،. من أين حفظتِ كل هذا؟

– من عشقي للحضارة السومرية في وادي الرافدين. لقد درسنا الكثير عنها في مناهجنا الدراسية المغربية؛ وزاد من عشقي لها ما كنتُ أجده من اهتمام أبي بالقراءة عنها وعدد الكتب التي تحويها مكتبته. قرأت عن جلجامش ورحلته في البحث عن عشبة الخلود. قرأت عن صديقه أنكيدو قاتل خمبابا الوحش.. قرأتُ عن أوروك مدينته التي سوّرها بناءً على نصيحة.....

توقفَت لتتذكّر، فأكملتُ أنا:

– سيدوري ساقية الحانة ؛ ومُعدّة شراب الإله أنليل!

– حقّاً! هتفَت.. أنتَ تعرف ذلك!

– أعرف! .. أوروك لا تبعد عن السماوة ، مدينتي سوى بضعة كيلومترات.. كل يوم نسمع سنابك الخيل، وقرقعات الرماح، وأزيز السهام الموجهة نحو الصدور. نسمع صرخات المصروعين وأنين الجرحى؛ نصغي لتراتيل النصر آتية من زقورات أوروك... كانت أوروك، يا بشرى مدينةَ أجدادنا؛ وكان الفرات يخترقها فينعم عليها بمائه وطراوته ونسائمه.وعندما غيّر النهر مجراه ولِدت السماوة على تلاشي أنفاس المدينة الأم، وعلى وفاء أهلها للبقاء قريباً من ذاكرتهم وإرثهم.

ويستمر حديثنا..

ويستغرق وقتاً أحصد فيه سعادةً تطفح بها عيناها. أجمع اهتمامها

بـي، ورغبتها فـي العيش معـي كمخلـوقين ارتضـيا أن يجمعهمـا عـش الفضـيلة.. تواسـيني فـي ألمـي؛ وتقـف إلـى جـانبي فـي صـراعي مـع غربتـي... وعنـدما تسـمع أخبـاراً تعـرض دمـار العـراق يعتصـر قلبهـا. تستغلُّ أيّما فرصة يقلُّ بها الرواد وتخلو المقهى. فتتقدم نحوي؛ تسحب كرسياً.تجلس قبالتي تستفسر وتستفهم. ثم تشدُّ على يد صبري، قائلة:

- معلاش يا مبدر. اصبر، واستعن بالله.

في اليوم التـالي نهضـتُ علـى نبوءتها قويـاً، سليماً، مُعـافى. لكنـي حملـتُ سـؤال دهشـتي إليهـا، فأُطلقتـه بمـا حمـل مـن عتـاب دفـين، واستغراب يصل حدَّ اللوم:

- كيف ارتكبتِ فعل حضورك، ولم تأبهي بنفسكِ، وبي؟!

تبتسم.. ثم تروح مقهقهة:

- أتريد أن أعيد عليكَ ما قالته عشتار؟

أشاركها القهقهة.. أرسي نظرات لهفتي على مرافئ عينيها.

* * *

أتذكر أنَّ أولُ رسالةٍ وردتني من نجاة عكست حالتين: حالة الفرحة في الوصول والاستقرار وحيازة العمل؛ وحالة تشي بحزنٍ وخشيةٍ على الحال عندهم. الخشيةُ من المجهول يكرِّس هاجساً يطيح بهيبة آمالها؛ وأنا الرجل المأزوم بين أبعاد الغياب والنفي والطرق في صدأ المجهول أتعثّر في مطبّات اللاتوازن.. بيد أنَّ الإصرار على ضرورة التواصل واستمرارية فيض الود لم يفارق قلبها. ذلك ما تعطّرت به أسطر الرسالة:

"حبيبـي بهـاء: سـأبقى أنتظـرك. وكـل عصـر خمـيس سـأذهب إلـى بيـتكم. أفـتح غرفتَـكَ، أغمرهـا بـالهواء. ومـن النافـذة التـي وقفنـا عنـدها متلاصقين سأصرف الدقائق منتصبةً، أتطلّع إلى زوال الغَمام المتكلّس هناك مثل لطخات تعكّر جبين الصفاء.... أنتظركَ أنا وفاء. "

وأعرف أن نجاة ترتأي تغيير اسمينا خشيةَ اكتشافنا. حسبتها مبادرة ذكية، هي ابنة الرجل الضليع في ممارسات الحزب وأنشطته المخابراتية الجهنميـة. فكانت رسائلي تُبعث تحت اسم "بهـاء" ورسائلها تحمل اسم "وفـاء". كنتُ مبتهجاً لأنَّ وفاءً تعلن تواصلها وترفض الانقطاع. كنت مطمئنـاً علـى وصـول أخبـار تنقل حيثيات العيش. تخبرنـي عـن أمّـي وكيـف تسـتقبلها بـود وبلهفـة أموميـة متعاليـة؛ قائلـة: "أشم فيـكِ رائحتـه، وأراه حين تطلين عليَّ. " لكنها تقول متحسّرة: " مَن يقرأ قصائدكِ بعد غيابه ". وتسالني برجاءِ الرد إنْ كانت أمّي بريئةً في كلامها أم تقولها بمقاصد دفينة. فأردُّ بكلمات الطمأنـة: " لا تظنّي بها الظنون، يا وفاء. أمّي تحمل براءة طفلة تتكاثف في سماء قلبها حشود النقاء والألق.. أنا متأكد أنها تحبك بقدر حبّها لي."

كان كل هذا الاطمئنان يحدث.. أفوه لمبارك به وأبوح لبشرى.. أقول أننـي محظـوظ لأنَّ أغلـب متعلقـات رغبتـي ومـرادي تتحقّـق. تحققـت بتواصل نجاة وأمي معي، وتواصلت بتوادّكما واهتمامكما بي.

إيه مبدر!

الحـرب اللعينـة قلبـت أطبـاقَ هدوئِكَ وحطّمـت منضـدةَ الاسـتقرار.. جاءت لتأكل أعوامَك وترميك مخلوقاً منتظِراً لخبر يأتي وهمسة ترد.. جاءت لتقطع حبل الوصل وتجعلك فائضاً في لجّة الحياة.. ماذا كنتُ

ستفعل لولا مبارك وبشرى؟ كيف كنتُ ستتوازن بغير طلّتهما شبه اليومية؟... تتعلم من مبارك قوانين الصداقة التي تقول: "ربَّ أخٍ لم تلدهُ لكَ أمّك "؛ ومن بشرى نقاء العلاقة المنتفية من الشوائب؛ حتى وهي تتطوَّر لتستحيل عِشقاً يعوّضك حبَّ نجاة الذي ظلَّ منقطعاً ومبهماً لأعوام ستطول وتطول... ويوم جاءك مبارك ليخبرك بأنه حصلَ على عمل في شركة " زويتينة " النفطية لأنّه يبغي تحسين حياته المالية، وأن الشركة تدفع له ثلاثة أضعاف مرتبه في الفندق رغم قساوة العمل في صحراء ستبعد ثمانمائة كيلو متر عن طرابلس توقفت عجلة الاطمئنان لديك. ساورك شعور أنك تفقد جداراً صلباً كنت تستعين به في مواجهة عواصف القلق. اكتشفتَ ذلك عندما سافر إلى عمله وغاب لثلاثة أشهر. استحالت بشرى ملاذَك الأخير. في وداده تدفن وجهَ شوقِك؛ وعلى رهافة عُشبِهِ يُهفهفُ قلبَكَ الخفيق. من طراوتها وحسن التقائها تؤثث أحلامَ يومِكَ؛ تستقيها من رغبةٍ تطرّز فضاءات مساراتِك الولهى بفراشات حفاوتها. تطعن الإثمَ بخناجر براءتِك. ترسمُ فحوى قلبِكَ زارعاً إيّاه كركراتٍ على يافطة ورقكِ الثلجي.

تقول: أنتِ المراسيم الكونية وظاهرة تاريخي المُجتبى بالمنعطفات. لولاكِ كان سِفر المدى غماماتٍ من عواصفَ القهر، وأحزان المجون. فأطيلي ابتسامتك، وأطلّي بلسماً يشفي جراحي المتناسلة.

تنتعش لإفضائك. معتبرةً ذلك شهادةً أزلية لتعلُّقك بها . قالت بجرأة الواثق:

- مبدر.. بدأتُ أحبّك!

عبارة ترجمتَها لعاطفة تنأى عن الترجمات السابقة... منذ ذلك اليوم

وعلاقتُك ببشرى استبدلت رداءَها. صار لقاؤكما شوقاً يتفاقم ومواعيدَ يتلظّى القلبُ احتراقاً حتى يدركها. صارت هي كلبوةٍ جريحة تحنَّ للمسةِ يدك؛ كوردةٍ تنتظر أصابعَك الحانية ترفعها لتشمَّ أنفاسَكَ. باتت تنتظر الصباح لتهفو لمنضدة لقاءكما في مقهى " الورد " المواجه للبحر. تجدها سبقتك في الانتظار بعدما اعتدتُ أنتَ انتظارها... غدت ما أن تطلّ حتى تنجلي سحابةٌ داكنة كانت تعكّر صفاءَ وجهها النضر.

رجوتها مرةً أن لا تقلق بشأنك:

– سأجيئُكِ حتى لو هبّت أعاصير فلوريدا، وماجت فيضانات بنغلاديش... بشرى! عهدي بكِ صلبةً، جَلِدة . فلماذا أراك مرتعشة وجِلة؟

طأطأت رأسها خجلاً:

– خلقتُ ثوبَ اصطبارٍ كان يسترني // وبان كذبُ ادعائي أنني جلِدُ ... قالها يوماً شاعرٌ محترق. أنا أنثى يا مبدر؛ فلا تظننّي مخلوقةً من حجر. كتمتُ عنكَ حبّاً كانَ يترعرع في سهوب قلبي لئلا أبدو أمامك وضيعةً هامشية كمثلِ مَّن يصاحبن الرجال لمشيئةٍ مبتذلة.

أعادت الطأطأة.. ثم بدمع دفيق تفجّرت عيناها:

– منذ رأيتُكَ في المقهى وأنا أقول مع نفسي هذا هو الرجل الذي خلقته فارساً لأحلامي... كنتَ فارسي وإنْ لم تدرِ. فتى أحلامي دون أن أبوح لك.

اتّخذت علاقتي ببشرى منحاً اعتبرتُه خطيراً، ومنعطفاً أقرب إلى مسك الجمر في لحظة غياب وعي. أنا الذي كانت نجاة بوصلتي التي أتحرك على اتجاه عاطفتها، وهاجسي الذي لا أريد له أن يزول...

أصبح لقائي ببشرى شبه يومي. دائماً ومتصلاً. أختطفُ زمناً من عملي صباحاً، وتوظِّف هي وقت فراغها للقاء.

نخرج على وتيرة ضحىً جميل، ونهار رائق. نجوب الطرقات ابتهاجاً ونمرُّ على الأحياء جذَلاً. وإنْ كلّت أقدام أُنسِنا وطئنا عتبة مقهى... نجلس متقابلين على منضدة تكملة حوار الوله. هي تبثّني شوقها، ومفردات لهفتها، وبوح عشقها فيما أنا أردُّ عليها بترنيمةٍ هارمونية تنسجم ونغمة القلب المغتبط.... مراراً ما نتّخذ مصطبةً في حديقةٍ عامّة أو رصيف شارع مجلساً. نتابع حركة المارة وتوالي العربات. وقد نصعِّد أنظارنا إلى الطوابق العليا من العمارات السكنية علّنا نبصر عاشقين؛ أو زوجين أو طفلين يطلاّن على رياض مجلسنا؛ نتهامس عن جلستنا العشقية، وتلاصقنا المثير للنظر في مدينة طرابلس حيثُ اللقاءات العلنية لحبيبين تكاد تكون طارئة.

في حوارات لقاءاتنا المطرية العذبة وجذلنا المتقطِّر عسلاً تحاول بشرى تنغيصي بدافع من مقولتنا العراقية " من حبّك لاشاك "، خصوصاً عندما أرفض أمراً تصرُّ هي على تحقيقه فتطلق تهديدها في وجهي:

– راني جايتك اليوم للحوش.

لحظتها أصرخ بصوتي العراقي الجهوري الملفت لانتباه المارّة:

– لا.. لا؛ بشرى أرجوك لا تسوّيها صدك. إذا سويتيها ما تشوفيني بعد!

تضربُ كفّاً بكف؛ تاركةً لشفتيها السارقتين حمرة ورد الرمّان تنفرجان لتسمحا لضحكةٍ من عِداد الجلجلة:

- انتصرت عليكَ. يعجبني فيك أنّك تُظهر جبنكَ بلا كبرياء. وتكشف عورة أحاسيس الشعراء المترجرجة لأيّ ما موقف؛ حتى لو جاء من باب المزاح أو النكتة الطائرة.

- أخشاكِ.. أخشاكنَّ يا بنات حوّاء. إذا عزمتنَّ على أمرٍّ كان عزمكنَّ كالفيضان الهادر، لا تقدر سدود العالم على أيقاف جموحه.

تضحك كمن صار الدهاء مفخرةً، والمكر شجاعة:

- إذاً ستكونون يا قوم الرجال أرضنا الواطئة، وهدفنا السهل اليسير.. شكراً لاعترافك.

هل أمررٌّ مقلبها وتصرفها المثير لغيظي؟ هل اتركها تمارس التهديد المنتهي بالضحك من جبني؟.. أيعقل أن أجعلها تحصد كامل البهجة لتسرق منّي قسطاً من الانشراح؟!... " لا!.. انتظريني شلون راح أضحك عليك!"

ذلك اليوم.. ونحن بمواجهة " المتحف الوطني" بعدما وقفنا قليلاً عند السور المحاذي للبحيرة المجاورة نراقب صبيةً يقذفون بأجسامهم الصغيرة إلى عمق الماء ويتنافسون في أفضل قفزةٍ وأفضل غوص وجدتها فرصة لاغاظتها. هي التي تكره الماضي وتبغضه بدافع أنّه زمنٌ انتهى فلا داعي من أن نسحق اهتماماتنا وولعنا بتفاصيله. هي التي كلّما حدثتها عن الماضي تفجرت رفضاً؛ مؤكدةً على استلهام الحاضر واغتراف عطاياه. هي التي لا تخجل من إعلان قول تشرشل:" لو قايضت الماضي بالحاضر لفقدتَ المستقبل " تردده إزائي شعاراً لها ومسلكاً في مختبر الحياة. اقترحتُ أن ندخل المتحف نصرف وقتاً، ونتيه انبهاراً في دروب التاريخ. نرى مسلسل الحضارات الراكزة

هيمنتها وسطوتها وفنّها على ألأراضي الليبية. كيف كان الإنسان؛ وكيف تطوّر؛ وأينَ أصبح. قلت: دعينا نحاور الخلق الذي يُرينا كبرياءِ الإنسان في نحتهِ. لنتملّى الجمال المتقطّر عِطراً من انسجام ذوقي وهبته ذائقة النحاتين المبدعين فأرخت وجود البشرية، وأرست سفنها الإبداعية عند مرافيء تتابعات الزمن.

عباراتي الفنيّة العالية المستوى جعلت بشرى توافق على مضض:

- لا تجعل دخولنا وبقاؤنا يطول.. أرجوك.

ندخل بهيبة التحري.. ونتحرى بعين الفضول. أُحاور الهياكل المزدهية بانتصابها، وأقرأ الهواء النائم باسترخاء على الخدود الناعمة.. أوقظُهُ من خدره، فأقول: دعيني أُلامس بشرةً كأنها جفّت بالأمس!. أدنو من روحٍ تحوم حولي باثّةً أرائج الخلود؛ وأنفاس تقول: أنتَ صنوي فاستلهمني بمفردات الشعر، وقصّني حكايةً للأجيال. تحدّث عن نزوع الفنان للبحث عن الجمال؛ وقل ما لا يقلُه البشري العادي. تكلّم عن الإلهام الذي يغذينا بفاكهة الآلهة فيمنحنا صكَّ الإلوهية؛ ولا تتوانى عن الإفصاح بمكنونات دواخلنا الضجيجة بالخلق، المنطلقة كالسهم لنجازة خلود الإنسان. ازرع شعرَك عزماً على البقاء نقيضاً لمعادلة الفناء. قل أنا أنحت، أو أكتب، أو أرسم إذاً أنا خالد... وداعاً.

تتابعني بشرى: هائماً، عائماً. قريباً وبعيداً. نخرج من صالة لندخل أخرى. أقف عند تمثالٍ ينطق، وأتجمّد بمواجهة صخرٍ محفور يكتنز... أتحسس أصابع بشرى المتشابكة بأصابعي تضغط فتسلخني من رائحة الرحيل:

- صمتُكَ يخيفني!.. هل جئنا لنتحاور بالصمت أم لنندهش

بالحوار؟!

أجيبها وسط ثمَل هيبة المكان:

- آ.. بشرى! أهيمُ في دنيا المتاحف. هذه الأماكن تؤسرني. هذه المنحوتات، والمسكوكات، والألبسة، والصور حياةٌ مصغّرة. نرتكب في ميدانها خطيئة التلصص على حيوات الآخرين عبر الأزمنة؛ لكنها خطيئةٌ نقيّة كالكذبة البيضاء.. المتحف دفترٌ حيوي وصفحات مصغّرة لمجتمعات كانت هنا.

نحنُ هؤلاء قبل آلاف أو مئات أو عشرات الأعوام. مقذوفون من بؤرة وجودهم السحيق. هم جذورنا ونحن الأغصان.

- دعك من الفلسفة. أرجوك! إنْ أردت التطلّع فاغرق في ما تبغي؛ لكن لا تصمت. تكلّم ونحنُ نمشي. الصمت يخيفني؛ والمتحف يذكّرني بالموت ويقرّبني إليه.

لم تكن تبالغ؛ ولم تختلق الأعذار؛ فقد وجدتها بعد ذاك الرجاء ترتعش. كفّها النائمة في كفّي تزداد سخونة. لذلك ، ومداراةً لمشاعرها تظاهرتُ بالملل من المشاهدة فاندفعنا خارجين.

منذ ذلك اليوم صرتُ كلّما عاندتني في شيء هدّدتُها بدخول المتحف؛ فتضحك بوجنتين محمرّتين:

- باش تبصّر عليَّ تقولّي على مكان خشّيتله برشه.

* * *

أعواماً صرفناها في هذا المضمار أبعدتني بشرى ولو بقدرٍ عن هيجان وموار فصول الحرب القذرة. تلك التي لا تجلب سوى أخبار

القتل الملحمي، والحريق المتواصل، والصفحات السوداء القاتمة .

أعواماً أصرفُ في أيامها والشهور على رمال الانشغال في العمل الوظيفي والجلوس في المقهى أراقب بشرى في تثنياتها؛ أحصي ابتساماتها المقتضبة مع الجلاس وانفتاحها الطفولي البريء معي، وأعد المرات التي تمد كفّاً لاستلام أو تسليم عملة تتراقص على ثرى باطن كفّيها اللدنين.

أعواماً والصمت يتنامى داخلي كهواءٍ يملأ بالوناً ينتظر لحظات مبارحته أرض التشبّث ليطير إلى فضاء الانطلاق.

أعوامٌ تجتمع في طرقاتها القصائد وتحتشد لتشكّل خمسة مجاميع تتآمر ساعات الغضب وبنات اليأس وساحرات الغثيان على إطعامها لأحشاء نار جائعة، فأحرق حقيبةً وأدوس على مشاعرَ فلا أجمع سوى رماداً خلق لي أيامَ ندمٍ على فعلٍ، وبكاءَ ألم على فقدٍ.. لقاءاتنُا تستحيل قصائدَ عشقٍ؛ والكلمات تغدو سرداً لقصّةٍ ستُكتَب في نسيج رواية يلتقي على أديم أحداثها شاعرٌ تسوقه الأقدار إلى حيثُ لا يحسَب. يجد نفسَه في جزيرةٍ ما ظنَّ يوماً أنْ سترسو سفينةُ أيامه على شاطئ استقبالها ليلتقي بمن تنتظرهُ على سحابةِ الغيب النائي والمجهول العميم.

واستمرت علاقتي ببشرى تحملُ صفةَ المودّة، تقتات على أحاديث يعطِّرها حسنُ الحوار وأرائج منبثقة من رياض الروح . نلتقي لنستعيد ذكرى أماكن غادرناها قَسراً أو هجرناها إرغاماً. ففيما أذكر لها أزقةَ السماوة وبيوتَها الحسيرة الصغيرة المتلاصقة تذكر لي هي زنقات طنجة ودروب أحيائها القديمة وحركة الناس بلباسهم الشعبي الذي يتصف المغاربة كهويةٍ تميزهم. وبينما أحكي لها عن انسياب الفرات وهناءً

يوزّعه علينا ونحن صغاراً فيدعوناً لوجبة سباحة نزقة وعبث رائق؛ وأردد شعراً حفظناه من أفواه أمهاتنا يقول: " يا مسعدة البيتك على الشط / وقبال بيتك يلعب البط / ومذين ما ملتِ غرفتِ " ، كانت هي تحكي عن البحر وهياجه وجنونه ثم نسائمه واهبة دعوة فتح الصدور لاغتراف أعمق شهيق وأوسع مدى من هوائه الرطيب العليل. أحكي لها عن سوق السماوة المسقف بمحتوياته من الدكاكين جامعة السلع وملبية طلبات جل الراغبين؛ وهي تحكي لي عن جملة أماكن تستقطب السائحين على حدٍّ سواء مع أهالي طنجة، فيثير فيهم متعة التشهي للنظر بإمعان وتفحص واندهاش إلى الأشياء المعمولة بأيدٍ مغربية محلية تمثل الذوق الرفيع ، الرهيف لأناس أحبوا وجودهم على أرضهم وفي مدينتهم رغم بيارق العوز الملوّحة فوق رؤوسهم يومياً؛ يجابهونها بإهمال، وينظرون إليها بلا اكتراث.

تحدثتُ إليها وتحدثت إلي.. صارت ذاكرتها بديلةً لذاكرتي؛ وذاكرتي انتقلت إلى أرض ذاكرتها. نعشق ما نتفق عليه ونهمل ما لا نرى فيه داعماً للمودة .. إنّه الود الذي نما وترعرع على أرض أيامٍ كانت تتسع بتقادم الزمن، حتى صار حبّاً لا نقوى على تجنبه؛ لا نستطيع تلافيه.

وكان إن بلغ ذروته يوم اتخذتُ مكاني في المقهى وكانت بوادر لحظات العصر تفرض وجودها على أشياء والغروب بعيد عندما قدمت نادلةٌ اعتدتُ مشاهدتها تعمل خلف مصطبة إعداد الطلبات . تقدّمت إليّ، وأمام طاولتي توقفت لتفوه بصوت خفيض:

- بشرى تسلّم عليك. هي في غرفتها الآن متوعكة. تهيأ لملاقاتها سأوصلك أنا بعد قليل عندما أعطيك أشارة من خلف زجاج النافذة التي

خلفي الآن. ستنهض وتتبعني؛ ولكن بحذر.

بشيءٍ من الشدهِ وعدم التصديق قلت:

- كيف؟!.. أهي طلبت هذا؟

- ليس وقت الاستفهامات، أرجوك.. هي مغامرة حقّقها لنجاة.

حقّاً كانت مغامرة. طبعاً كان أمراً محذوراً. نادلات المقاهي وعاملات الفنادق دوماً محط شبهات حتى لو حملن عفاف مريم وشرف فاطمة الزهراء. اختلطت سوءات البعض القليل بنزاهة الكم الكثير فأنتجت شعوراً بالتطيّر والتهجس والريبة. أفعال يمارسنها القلّة في الأماكن التي يترجل على أرضها الرجال خصوصاً المخادع والزوايا والممرات، ناهيك عن المقاهي والمطاعم والساحات حيث التماس والتواجه. أذكر أن القس "سوريل" في رواية الأحمر والأسود لستندال كان يتحين فرص اقتناص خلو الشارع وموت خطوات المارة ليتسلل إلى عشيقته فيتسلق شرفتها ويدخل غرفتها صارفاً ساعات عشق شبقية، راحلاً على ذبذبات سيمفونية الجسد الجائع. يغترف وينهل ويأكل مخلّفاً وراءه طهارة المسيح وتعاليم الإنجيل وقَسَم إبقاء الجسد طاهراً حتى ملاقاة الرب. يعيش حفاوة اللحظة، ويهنأ بكأس الشهوة المترعة دهاقاً وارتواء.. وها أنا أتسلل، ولكن ليس وحدي بل على إشارة ومضات عينين تبثّها وتبعثها النادلة بحذر سارقٍ يتجنب بكل دهاء الصنعة إيقاظ مالكي هدف سرقته.

أجتاز ممرّاً يحاذي صالة أرى فيها نزلاء أجانب يجلسون على أرائك متجاورة يتحاورون؛ وبعضاً يطالع زخرفاً مغربياً يجمّل حوافَّ السقف المتعالي للمكان، وبعضاً ينتظر شيئاً لا أدريه . وآن أرفع نظري أتلمس

خطو النادلة يرتقي سلّماً وأبصرها تستدير لترسم إشارةً خفية كدعوة للمتابعة؛ تكمل بحركتها ارتقاء سلّمٍ ينحرف قليلاً وصولاً لممرٍّ توزعت على جداريه أبواب غرف متجاورة.

إلى أين تقودني هذه التي لا يحدوها إلا التفاني لزميلةٍ لا بدَّ أنها ترجّتها فاندفعت تخاطر بما لا تحمد نهايته؟.. إلى أين أنا سائرٌ في هذا الموقف الذي إن كُبح وألجم وأكتُشِف أُقذَفُ بتأثير نكران الجميل لوطنٍ فتح أبوابه بكل اغتراف، وأُرمى إلى أين! لا أدري.. أنا القادم من اقيانوسات الجراح وكلّي أمرُ أن أهجع في مرفأ يقيني العيون الكلبية والنوايا الذئبية التي وزّعها عريان في كل مكان تفوح منه رائحة مواطن عراقي حمل صليب نقائه وشرفه عن منبت العفن. كيف ارتضيت الانصياع لرأي هذه التي تتوقف الآن أمام بابٍ تنقره نقرات يبدو أنها على اتفاق وتلقّي التي في الداخل؟!

بحذرٍ وهدوء أمسك أكرة الباب ؛ أديرها فتتوارب. تقبل دخولي. ومن الخلف ينغلق فيتوارى خيال الدليل وأجد نفسي أمام بشرى بلحمها وشحمها وسرورها الطفولي وكذبتها البيضاء وهي ترسيني على أرض لا أكتشف أي إشارة للتوغّل.

غرفة تتباهى بسريرها المنسَّق وفراشها الوثير يغلفه قماش يتباهى ببياضه. عند الوسادة أو على يمينها، فوق رف بجارور ساجي بنّي انتصبت صورةٌ لامرأة أربعينية تجاور فتاةً تبتسم لي من عمق حدود الإطار تهمس لي: أنا بشرى. أكثر نحافةٍ من بشرى الآن، ولكن أوسع ابتسامة؛ أقل تأملاً للحياة. رفعتها لأطالع ملامح الأم التي سرقت بشرى منها الكثير. سرقت سواد العينين وكثافة الحاجبين. اختطفت دقّة

الأنف وانتصاب الرقبة. استحوذت على نظرةٍ تجمع ألقاً يتشظّى من حدقتين نافذتين كأنهما تبثان دعوةً لاستقبال ودٍّ وتلقّي رواء حميمية متراغية.

أردتُ التعليق عندما استبقتني بسحب يدي.

– سأعطيك الصورة. خذها لبيتك واشبع منها. أجلس. لا وقت عندنا.

حين تلتقي واللحظة المباغتة بلا توقّع ولا احتساب تهرب من بين أصابع سيطرتك حبّات اتخاذ القرار. تعوم ولو وهلةٍ على طوفان من حيرة غامرة.. حين تلفي نفسك أمام امرأةٍ جندت عواطفها لتفرشها على منضدة هيمنتك تفتقد لحظتها حلاً خاطفاً مشروطاً بالنجاح.

مرتبكاً، حائراً أقف تطوّقني الخشية ويحاصرني القلق من حصول موقف قد ينبثق بلا توقّع. ماذا لو فُتح الباب واندفع حزمة رجال يتقدّمهم مدير إدارة الفندق أو مسؤول أمنه؟ ماذا لو طُرقت وجاء صوت عاملةً لا تحمل ودّاً لبشرى؟ سنصبح حكايةً تتسلى بها الألسن وقصة تفوح منها رائحة الدعابة والتهكم تنتقل من جوقٍ ثرثار لجوقٍ آخر أكثر ثرثرة.

– أعلمتني صديقتك بوعكةٍ تلازمك فأتيت! بشرى؛ أخشى أن...

– علاش؟ خيرك. أنا بخير وتعللت بالمرض باش نلتقي.

– ولكنها مخاطرة!

– متديرش بال.

دنت منّي!

التصقت بي.. ثوبها القطني الشفاف يحمل لون السماء، وحاشية

الدانتيل اللميعة تقدّم صفحةَ صدرٍ نقيّة تعلوها رقبة ممتلئة كانت شفتاي أشد هفواً للثمها من عيني.

وقفتُ أتملّى الوجه النضر فأرى العينين تبثّان تضرّعاً لأن أكون رحيماً وعطوفاً. وأتحسس أصابعَها تتسللُّ لكفي فتحتضنه؛ ووجدتني أتلقّى بشرى بجيوش براءتها المستسلمة وهدير شوقها المتهالك . رأيتها أضعف من أن تتكلم وتواصل الكلام. بدت مرتبكة، مهزوزة، راعشة.

- مبدر!.. أحـ .. آآآ.

ابتدأ حوار الشفاه؛ وانطلقت سيمفونية الغرق، وإغماض العيون، وانقباض الجفون، وعظم هياج اللهفة. تسللت الدموع سيّالةً من عينيها. ماج صدرها بعبرةٍ اختزنتها في صندوق الصدر اللاهث ؛ ما لبث أن فجّرها شهقةَ بكاءٍ لم تسيطر على جموحها.

- أحبـ... ك؛ مبدر!

أرفع أصابعي تمسح السيلين الدافقين؛ وأترك فمي يلثم شغف وجهها بحنان ويفوه بكلمات حبٍ متبادل، متعهداً على أن أكون لها بينما هي تعبّر عن خشيتها في هجري لها أو انفصالي عنها بوشايةٍ من القدر أو غدرٍ من الأيام...

فجأةً طُرقت الباب بنقرات أفزعتني، ولم تثر بشرى؛ بل لم تعرها همّاً. ومن بين رغبتها في بقائنا واستمرار لقائنا نطقت.

- هذه حليمة التي أوصلتك. اتفقنا على هكذا نقرات.

خطت بجزع.. وفتحت بجوى.

ملامح حليمة تشي بمفردات نصح وخشية صداقة. دعتها إلى إنهاء سيناريو اللقاء لئلا يحصل مالا تُحمَد نهايته. ومن وراء قامة بشرى

التي ما زالت بمواجهة حليمة رأيت نظراتها ترجو خروجي وتدعوني أن لا استسلم لعاطفة صديقتها في البقاء. فتحركت أمسك ببشرى وأجعلها تستدير؛ ثم أرسم قبلةً على جبهتها وسط طأطأة رأس حليمة ودمع ترقرق في عينين لم تشبعا ارتواءً من هيئتي.

وأخرج....

* * *

اللقاء كان تحولاً..

الأيام كانت محكّاً للعلاقة التي ينظر إليها الطرفان نظرةً متفاوتة لأنَّ خطاب بشرى معي تغير جذرياً. صرنا ما أن نلتقي حتى يتسيَّد الحديث موضوع ترك ليبيا والهجرة شمالاً؛ وتحديداً فرنساً، البلد الأثير لديها. الأرض التي على ثرى واقعها كلُّ ما يتيح لنا حسب رأيها العيش السهل والمتيسر اعتماداً على عمٍّ لها يمتلك متجراً هناك في "نيس"؛ بإمكانه خلق ما يتلاءم وقبولنا على البقاء والانطلاق في بناء واقعٍ جديد يختلف يقيناً عن واقعنا العربي المريض.

صارت بشرى أشد تعلّقاً بي؛ أقلَّ مقدرة على الافتراق. نصرف ساعات النهار معاً؛ وفي المقهى لا تترك نظرةً منفلتة من طوق العمل إلاّ وتبعثها إليَّ كما لو كنتُ طفلاً ينتظر حناناً أو كما لو كانت أمّاً تخشى من تسرب طفلها عن مقعدٍ أوصته أن لا يبرحه. استحالت أضعف تصرفاً على الإمساك بعاطفتها وأقل تحكماً بسلوكها. هوسُ فقدي يتداخل ويتماهى مع شوق الهجرة المتفاقم بشكلٍ جنوني.. آ.. مبدر! لن يتغير شيءٌ هنا. واقعنا بائس وجامد وعتيم.. تتمتم بمرارة

وجزع. لا تدع أيامَنا تتسفح على جلمود الرتابة. أرجوك! لا تجعل الإرث الزائف والأقوال المتجردة من الأفعال تهيمن على إرادتك . دعنا نذهب!.. فيكَ، يا مبدر أرى الرجل المجبول على النقاء. لا أُبصر مراءً، ولا أتلمّس خديعة... تروح تهمس كما لو كانت تبوح لقرينة تستمع اليها.. مبدر يتمثل إزائي أنموذجاً تستطيع أية فتاة أن تقلّب أوراقه وترفل على صفحات كتاب سلوكياته فتخرج بتأويل الإعجاب. شاب الأناقة هو، والقوام الممشوق. شاب الصدق والصراحة المُقنعة. لكنه أيضاً رجل الانشداد إلى الماضي. ترسبات الأعماق متراكمة، وشوق الروح يشدّه إلى التشبث بما هو عليه وما كان به.. آ.. مبدر! ما بعد البحر ستتوارب أمام تطلعاتك أبواب الآفاق الرحبة. ستستقبلكَ سوح البوح والقول الصريح؛ ستكتب الشعر بلا تلفُّت، بلا تلصص في مسارب الأعماق.. ولكنني، يا بشرى سأفقد رصد الواقع الحقيقي لأني سأكون بعيداً عن بيئتي. سأخسر المشاعر المترسخة في دفين وجداني. لا أقدر العيش بعيداً عن صرخات الثكالى وأنين الموجوعين. سأكون مستمعاً لمآسي شعبي من بعيد وعندها لن يأتي الشعر صادقاً، ولن تشتعل الكلمات لتنتج لوعة المواساة مع آلامهم. المحنة أنثرها على طاولة تقديرك، وقدّري عندها عظم وهول المأساة.

الأيام تمر.. ومعها تغوص بشرى في غياهب الضياع، تتعثر بمطبّات اليأس فلا تحوز غير الانطواء وصمت يستلب ساعات لقاءاتنا التي أخذت تتآكل إلى مسافات وقتية حسيرة. أداريها بالتطمين وأرجوها بالتفكّر. فالقرارات الموسومة بالعاطفة والتصرف الأعمى يقودان إلى النتائج القاتلة حيث لا تراجع أمين، ولا انسحاب مؤقت؛ وإن حصل

التراجع أو تكرس الانسحاب سيكون حتماً تقهقراً قاتلاً..

ولكن هل كانت بشرى تستمع لما أقول بالعقل الرصين أم بالنفور المتراغي؟ هل جلست في لحظات اختلاء تترجم رجاءاتي أم قضت تعلن نفوراً دفيناً لكل ما تشفّعت بها وتمنيت منها؟.. نجلس في مكاننا المعهود في الكازينو أمام البحر فألمح رحيلاً يلفُّها وانفصاماً يبعدها، ما تلبث اللحظات الهاربة أن تنحسر فتعود تبتسم كأنها لم تصرف الوقت نائيةً عني؛ كأنّي لم ألحظ هروبها فوق كتف غمامة تترك على سحنتها غضون الألم. يوماً ما التقينا بلا موعدٍ ونحتنا على صوان الأيام اللاحقة حبّاً حسبناه لن تزيحه رياح القدر مهما جمعت جنون الكون. بشرى! ارتأيتُكَ مخلوقةً تهب الطمأنينة وإلهة تمنح السلام. وجدتكِ الحنان المُفتقَد، والأفق المُرتجى، والقلب الذي يُقطِّع أوصاله لينثرها مجسات تمنع الضرر من دروب عثرتي. اكتشفتكِ غابةً من أنوارٍ ترشقُ عيونَ الظلام فلا تمنح الليل فسحةً لنشر العتمات.آآآآ.. بشرى! .. آآآآآآ؛ مبدر كفى! كفى.. انتفضت هائجة مائجة ما رأيت فيها ثورة كهذه التي تنتفض بها اللحظة: أنتَ مشدود لصخرة الأعراف وثقافتك مصطنعة. لن تنال الشهرة والمجد؛ ستخسر كلَّ شيء.

* * *

لقاؤنا ألأخير كان لقاءَ توترٍ وانشداد واتخاذ قرار قاطع من جانبها.. وأنا أجلس في كرسيِّ المعتاد وأرى من بعيد خلل الواجهة الزجاجية حركة العاملات والعمال في تهيئة طلبات الجلاس لفت انتباهي غياب بشرى. سيل من نيازك لاهبة تساقطت على رأسي.

بـروق متقاطعـة ومتشـظية تتهاطـل أمـام عينــي. هـاجس انفجـر بغتـة يجاهر بالانتصاب والإعلان: بشرى سحابة تبددَّت ولن تراها.

العاملـة التـي اعتـادت تقديم خدماتها فـي الصـالة الداخليـة هـي مَن جاءت تحمل صينية كانت تحملها بشرى لتلبية طلب الزبائن.

في لحظة تطير وانكفاء أسألها استدراجاً:

– لا بـدَّ أن بشـرى ملَّـت عملهـا هنـا. ملّـت عمـلاً فـي هـذه الجُنينـة فوهبتها لكِ؛ أم أنكما تبادلتما الأدوار؟

اهتزاز الرأس وتعبير جمود السحنة خلقا جوابَ خطأ تنبؤي:

– أمتعبة؟

جاء الرد بمرارة، واخترق الرأس كالصاعقة.:

– لا!.. بشرى غيمة تبددت؛ تركتنا ولن تعود.

– كيف؟

– أخـذت مسـتحقّاتها مـن إدارة الفنـدق. ودَّعتنــا! حملـت حقيبتهـا وغابت. يبدو أنها كانت مصممة منذ وقت على قرار تركها العمل.

آآآآ.. الآن أشعر أنني خسرتُ بشرى. فقدت فتاةً هاجمتني بوعود لا تعـرف المهادنـة. انتصـرت علـيَّ بإرادتهـا وتركـت لـي إرثـاً مـن شـعور بتقصير سلوك وخطأ تصرف. لم تكن كمعظم بنات جيلها ترتضـي واقـع الحال وتستكين لعاديات الأيام، بل كانت مصـممة مخططـة غير آبهة بالمعيقات ولا متهالكة إزاء المطبّات.

ألتقي رفيقتها بعد مناورةٍ كنتُ فيها كلصٍّ يتخفى من أعين الرقبـاء ويتسـتر بالأحجبـة المموَّهـة؛ إذْ ارتقيـت فـي اليوم التـالي درجـات السلم الـذي وطئتُـه يومـاً باتجـاه اللقـاء الأول والأخيـر، ذلـك الـذي لامسـتُ

بلحظاتـه المسـروقة مـن غفلـة الـزمن الرقيـب جسدَ بشـرى وامتصَّـت أعضـائي سـخونته. صـعدت إلـى حيث سـأغترف أنفاسـها النائمـة علـى الشراشف والستائر والأثاث المحظوظ الذي مؤكداً كان يتشهى عطرها ويسـتقبل بارتيـاح أحلامها الطـائرة. لـم أحسـب حسـاب اعتراضـي مـن عاملٍ قد يوقفني بعدما تريبه هيئتي اللصوصية.

أمام الباب أقف، وبنقرات خافتة كالتي نقرت بها رفيقتها ذلك اليوم أنقر.. وأنتظر!.. أنقر، وأنتظر!.. لا صـوت يسـتفهم سـوى أنَّ البـاب فتح بهدوءٍ فجأةً فإذا بها هي! رفيقتها العاملة التـي قادتني مرةً وتركتنـي تحت رحمة المجهول. ما ردّت نطقاً على السؤال إنّما استعارت الدمع ينساب على وجنتين آثرتا الشحوب دلالة ألم فراق الرفقة.

وأمام الإلحاح التهالكي والبؤس الهضيم نطقَت:

– لم تقل أية وجهةٍ ستتَّجه؛ فقط قالت أنها راحلة غداً بعدما أكملت إجراءات إنهائها العمل.

– كنتِ لها أختاً؛ كيف لم تُخبرك؟

– فـي الأيـام الأخيـرة كانـت متأزمـة؛ وحتـى طباعهـا تغيّـرت. لا ألومها، ولن أعتب عليها، وتركها العمل قد يكون تجاوزاً لمحنة كبيرة كانت تطوّقها وتسحقها. قد تكون أنتَ السبب.

غيابُ بشرى كان كالصاعقة الحارقة لبقايا يناعة أرضٍ زحفَ على جُلّ ثراها الجدبُ، ووطئ كثيف متعرجاتها اليباب. غيابها قايض بالفقد حرقـةً لـن تقـدر لا النهـارات ولا الليليـات الزاحفـة بأرجل متلعثمـة علـى تحجيم فعلها. طرابلس صـارت مدينـةً شـمعية؛ سماؤها جامدة وأبنيتها تضـاجع أعمدة الصقيع . الـدروب والمنعطفات اسـتبدلت جغرافيـة البَلَدِ

والعته. العمل في الدائرة؛ العودة إلى البيت؛ الخروج على إيقاع الفراغ استحال طقساً كابوسياً يجترح أسفاراً من الألم كثيراً ما قاد إلى البكاء بلا وجل. تأتيك تهافتات الأحداث؛ وتهجم عليك غيلان البؤس المتراكمة التي خلفتها يوماً وأنتَ على يقين أن ستعود أكثف قتامة وأعتى تأثير. يطرق أبوابَ دواخلك ذلك الذي سقط أرضاً مترعاً بألم الحب لحظة مدَّ يداً يسلّم نقوداً لبائعة الورد. بشرى: أيتها النجمة التي لها لون القلب الظامئ. يا سمائي الملبدة بالمجاهيل، المغشّاة بالشفق الدموي؛ إنّي أزرع لحظاتك البنفسجة في يباب غفوتي لأخرج بفيضانِ همٍّ يجتاحني فيدميني.الغيابُ مفردةُ الفراغ الذي يلوِّحُ بها القدر لاجتثاث منابت الطمأنينة.

غابت بشرى فحضر الكمد، وانطوت صفحةً من وجه الحبور. إنّي أتمزّق وأحترق، ثم أنطفئ كقنديلٍ بائس.

يحدث أن تتراخى كلاّبات الحزن وتتراجع قوابض الكمد فتتسلل عبر فسحٍ في بوابات الروح الموصدة حزمةُ أملٍ تُحي فيكَ شعور أنَّ بشرى قد تتراجع فتعود راكضة هفواً من براري الندم أو اقيانوسات اللهفة؛ تضمك بشوق مَن فقدَ تميمة سعادته وبحث عنها في أدغال خيبةِ الاكتشاف ثم فجأة انبثقت له وهو غير مصدقٍ. تقدّم اعتذاراتها وتستميح عفوك؛ أو على الأقل تناجيك بالنسيان وتدعوك لمحوِ العتب بلا فتحٍ للملفات. تتراجع مفاجئةً إيّاك بكلمات تنث فراشاتٍ زرقٍ من إعادة الأمل وترجمة فعل التواصل.

الأيام لا تحملُ غيرَ قرار اتَّخذته بشرى ونفَّذته:" قد نفترق! وفراقٌ ننتهي إليه يعني القطيعة التي لا تطبيع فيها. "قالتها يوماً وهي لاهثة

على لسان شرود يهرب ناءٍ عبرَ الاجتياح الشذري الممتد من شاطئ طرابلس الذي نراه تلك اللحظة يجاهد في امتصاص صفاء النهار حتى السفينة الغائمة عند الأفق والتي تبدو مثل دمية نائمة طفواً.

أقضي الأيام بانتظار حضور مبارك بإجازةٍ لأطلعهُ وأرمي على بساط تلقيه زارات خيبتي وحزني وفشلي ووجعي وتعثري ونجواي وانكفائي؛ انطفائي الخذيل، ووهجي الشاحب، وهامتي الذاوية، وزرعي الهشيم. ومبارك يشبعني لوماً غب حضورهِ، ويعنفني تأنيباً. يعيب عليَّ تدميري لمخلوقةٍ كان قلبها بلّوراً كريستالياً ناصعاً ألِقاً وروحها موئل صفاء وعذوبة.

– أحبَّتكَ جاهدةً سعياً على جمر الصدق ولهيب البقاء وصولاً لرياض حلُمت كثيراً أن تطآن عُشبهُ الندي وتأكلان فاكهتهُ المشتهاة المنتقاة من فيض اليناعة والامتلاء. خسرتها فخسرت نفسك، وضيّعتها فضعت. مَن يصدّق أنكَ بالذات الذي يدفعها إلى غياهب الجحيم، ويرمي بها إلى أتون الفقد.

– أيُّ فقدٍ؟! مبارك، أفهمني. متأرجِحٌ أنا بين وطنٍ يدعوني ألا أغفلَ عن بحر محنته وامرأةٍ تريدني أن أحرق السفن فلا ألتفت إلى الوراء.

بغيوم هَزءٍ يجمعها من سماء التعنيف يساجلُ تبريري:

– لا.. لا.. أنت تحترف جلد الذات. فلا أنتَ عائدٌ لتحارب قاتلي شعبك ولا قافز فوق الجراح صوب مرافئ النسيان. اعذر لومي لك، واغفر قسوتي عليك.

بشرى إذاً نيزكٌ مرَّ في سماء روحكَ خطفاً ثم انطفأ. لكأنَّ الأيام

ترينا غوايتها تجسيداً على صحائف العمر. لكأنَّ الغواية تُثبتُ نُدباً على بشرة الذاكرة فتعطب صفاء ارتعاشتها النقية. لكأنَّ القلبَ فقدَ حسَّ العاطفة البهية فتفرط من أمام ناظريه عقدُ لآلي الهناء المحتوم.

غابت بشرى!

وبالغياب أُغلِقَ كتابُ حبٍّ كان حلماً:

نهض فانتشى..

تمايس فانكسر..

بزُغَ فانطفأ..

مرَّ وانتهى.

(٦)

حربٌ بعد حرب. وجحيمٌ يليه جحيم؛ وأنتَ الصاغر للامبالاة الأيام وعبثِها الذي بمرور الأوقات زرقتكَ بيقين أنْ لا تغييراً دراماتيكياً سيحدث في الوطن ؛ وأنَّ الآفاق التي تطلّعت إليها بشغفٍ وتوسّلٍ وخنوع وترجيتها أنْ تمنحكَ أملَ انتهاء عهود الظلام غُمرت هي بالظلام؛ ولم تَعُد تُبصر غيرَ عريان يزداد جبروتاً، ويتحرك خيلاءً. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لا تدري هل اعتبرته مِنّةً من السماء أم هفوة فلتت من عِقال السيطرة؟.. جاء ذلك اليوم الذي هزَّ المشاعر فانقسمَ العربُ فيه بين مؤيدٍ للفعل ومستنكرٍ يرى القادمات من الأيام حُبلى بالمجاهيل الخطرة. لقد أضاف عريان لحماقاتِه حماقةً لم يحسب حسابَ ردِّ تأثيرِها.

دخل الأخرقُ الكويتَ الفخَّ.

ولجَ الجرذي إلى المصيدة.

أدخل الكلبُ خطمهُ في عُلبة معلّباتٍ اسطوانيةٍ فكيف سيخرجه؟

هاجَ العالم وماج.. نهض الإعصار فثار. البراكين استيقظت معلنةً نفورها ومتوعِّدة بالثبور. ووطنك وجد نفسه وسط حلبة وقود سيشعله أولُ عود ثقاب يندلع. الأخبارُ تنقل اندفاع الناس صوب المحلات تُفرغها شراءً من المحتويات كي تختزنها لأيامٍ عصيبة دهماء تلوح ذؤاباتها النارية من بعيد. العالم ينظر باندهاش لهكذا فعلٍ أخرق سيسوق العراق نحو هوةِ الخراب أو باتجاه وادي الانمحاء، وسيترك للكويتيين جراحاً لا تمحوها السماحات..

هبّت السعلاة المُنتظِرة هذا المروق؛ وحشدت جيوشَ الغيلان لتحقيق نجازة التدمير.

أشهرَ ليس إلا! كان فيها الرجاء؛ التهديد؛ التوسل؛ الوعيد. كان فيها العودة عمّا حصل ، والانسحاب عمّا فُعِل. وعريان لا يأبه. والسعلاة تتحين تحقيق الخراب.

وكان أن دُمِّر العراق؛ وخُرِّبت الكويت بينما تُرِكَ عريان طليقاً. لكأن السعلاةَ وغيلانَها سعت لمكافأتهُ عن انجازٍ قُدِمَ إليها على طبقٍ من يسرٍ واسترسال. بل ومنحته هِبة البغض الأكبر والتدمير الأشمل لمّا تبقى من جسد الوطن، فانطلق يعيثُ خراباً ويزدادُ إطاحةً بما لدى الأرض من هيبةٍ ناضحة. نفّذَ خطّةَ حصارٍ مقيت؛ واستبسل في تطبيق مقولة "جوّع كلبك يتبعك" ظنّاً منه أنْ ستمنحه صكَّ البقاء. هرَّب الأموال التي استبسل في طرقِ سرقتها من الناس؛ والأخرى المسلوبة من عائدات نفط البلاد الذي تفنن في تهريبه وبأقذر الوسائل والخدع.

وكانت الرسائل الشحيحة من هنا وهناك يبعثها لكَ صديقٌ تذكرّك أو أديبٌ تبادلت وإيّاه رسائلَ الحوار في نصٍّ كتبه أو فكرةً سعى لتجسيدها صورةً على الورق.

لكنَّ العام ١٩٩٣ شهدَ تغيّراً أطبقت سُحبُه الدخانية على الفضاء الحسير لأيامك الرتيبة وغمرت طيوفُ الدَهش أجواءَك المنسية. حدث ذلك يوم عرّجتَ على ميدان الجزائر فساجلكَ هاجسٌ؛ طردته فعاد. ألغيته فانبثق. قادك بعدما استسلمت لهيمنته إلى دائرة البريد. تدخل في غمار العتمة للقاعة الوسيعة، غير آبه لطابور من رجال وقفوا يبتاعون طوابع لرسائل يحملونها ولم يُثر اهتمامَك جوقٌ من نساءٍ فلبينيات جلسنَ عند طاولةٍ كتابة يلصقنَ طوابع على مظاريف مكدَّسة تكدّس أشواقهنَّ للبعيدين من الأهل والأحبة. فقط كان الهاجس يدفعك إلى صندوق البريد خاصتك. تفتحه: أوه! يا إلهي لا أصدق! مظاريف حملت طوابع عراقية وأخرى أردنية. رسالة من أمِّك؛ رسالة من كمال، رسالة من جميل ابن خالتك (كيف تذكَّركَ؟)، رسائل من أشخاص لا تعرفهم أو لعلّها الأعوام شوَّهت ملامحَ تذكرِهم. وأخيراً رسالة من نجاة؛ هممتَ بافتضاض الظرف والانهيال على الأسطر لالتهامها.. آه، نجاة. ها أنتِ تعودين تتذكّرينني. آه نجاة؛ تمزَّقَ القلب وتفتت. سرقته منكِ بشرى، الذي سرقها منّي الزمن.

محظوظٌ ومنتشٍ. سعيدٌ ومبتهج وأنتَ ترى نفسك محاطاً بهالةِ اهتمام مفاجئ، واستذكار يقود إلى شعور أنكَ ما زلتَ حيّاً في ذاكرة الآخرين، غير منسي، وأنَّ الأعوامَ تراجعت متهالكةً عن حَجبِ أشواقهم عنك، وصورتكَ عنهم.

ما كانت تدوينات شوق، ولا سؤال عن حال. ما كانت رغبة في معرفة مآل ولا "يا دار كم فعلت بكِ الأيامُ". كانت رسائلَ استنجاد وطلبات لا بدَّ أن تُستجاب. هو الحزن يتكئ على شرفات النفوس ويُدلي بهامته النازفة أسىً. هي المصيبة الراجزة على نواصي القلوب تصنع تأريخها الحفري الدامي. هو الخنجر المغروز غوراً في خاصرة المقموعين بلا ذنبٍ فعلوا ولا خطيئة مارسوا. هي السيوف ترسم طعناتها النافذة في خواء الصدور العليلة وقد أطعَمَت حقدها في دواخل المأسورين بحماقات الجُهّال والمنحلين والقتلة.

رسالة أمّي مشحونة بالبكاء! نهرٌ دافق بالشكوى من وضعٍ تتفشّى فيه الفاقةُ كانتشارِ السرطان في جسدٍ خاوٍ. صفحة من التوصيف الذي يهرش القلب ويفجّر الدماغ، فيخلق صداعاً في الرأس ومغصاً في الأمعاء. وفي الأخير تطالبني بإرسال مالٍ كيما يسد الرمق ويخفي صورة "عزيز قومٍ ذل".

رسالة أمّي خطابٌ أزليٌّ للتقوى؛ وحديثٌ صادقٌ عن الأحوال:

"يا ولدي: نحن في أشد الظروف فقراً، وأتعسها مقدرةً. المال؛ العملة عندنا لا قيمة لها فهي تنضب سريعاً كالدخان. الحصار استنزف المدخّرات وأطاح بالماثل من الأشياء: أثاثاً وعفشاً وعقارات. الناس باتوا يبيعون أثمن ما يملكون؛ وانتهوا إلى قلع أبواب غرفهم وشبابيكها فيبيعونها سعياً لشراء ما يسد الرمق، ولو لأيام. الأولاد تركوا مدارسهم. العوائل تفككّت؛ والكثيرات من البنات اليافعات انجررنَ إلى دروب الخطيئة لا لشيء إلاّ للتواصل في حياةٍ أكثر ما يتمنّينَ فيها أكلَ لقمةٍ تُطيل الحياة ليومٍ آخر... ابعث لنا ما تقدر عليه من مال؛ فنحنُ

ننهار."

رسالة ابن الخالة تحمل تحيات وعبارات تقارب عبارات أمي؛ وأيضاً، أيضاً شكوى الحال، ثم تؤول إلى طلب المال. ولا غرابة أن أفتح رسائل الذين ظننتُ أنّي لا أعرفهم فأجدها من أصدقاء حارتي ومن بعض الذين كنت ألتقيهم في المقاهي والدروب وتشكّلوا أصدقاء لي عبر اللقاءات. كلهم يحيّوني وينظرون لي المعين لهم في محنهم؛ يكتبون لي عناوينهم أو أسماء مكاتب تتولّى إيصال الأموال المرسلة من خارج الوطن إليهم. المحنة كبيرة إذاً؛ والواقع رديء. وأنا الذي ضحّى بحبّهِ وأبعد شموع ذاته لأجل موقفٍ كهذا أقف على المحك لأتخذ القرار.

وإلى رسالة نجاة يتوجّه روحيَ الخائف. عيناي تطيحان بهيبة اتزان حاولت اختلاقها. أصابعي تُبتَلى بارتعاش فلا أملك هيمنةً على إيقافها. خطٌّ نجاة بكلماتها التي تساجلني يعابثني بالقلق؛ وأنفاسها أحسّها تتسلل من بين مسامات المظروف باثّةً أريج خدر يقرب أياماً صرفناها على أتون حبٍّ كاسح وبركان قلق يموج فائراً، ثائراً تضيق دائرة الهرب من جبروته البغيض. المظروف يحمل طابعاً يعلوه اسم المملكة الأردنية.. إنها مرسلة من عمّان.

الخوف من المحتوى الذي سيصرّح بما في نجاة من ألم وجوى وربّما شكاوى وعتاب هو ما جعلني أتهيّب من فض المظروف فأتلكأ. أهمُّ وأتراجع. أتقدّم وأنكفئ متقهقراً.. وأخيراً تهجم عليَّ الكلمات. تنهال أمامي الجمل:

الحبيب الذي أصنع من بسمته لوحةً للبهجة؛ ومن رضاب شفتيه نهراً من العسل.. بهاء.

أيها النائي الداني؛ الخارج الداخل. يا حبيباً جمع سحابات الألق بكفِّه وأغدقها على روحي اللهيفة.

أنت يا مَن تركتني على هدى وأمنية اللقاء يوماً.. هل تراه سيأتي اليوم؟!.. أشك في ذلك. وأدري أن الحلم له محدوديته المتضائلة وزمنه الخاطف؛ بعدها ينطفئ فلا يترك غير حسرة الانقضاء الحارقة ورجاء العودة المستحيل. نهاراتي لا تمر كما أشتهي (أنا) ، ولילياتي لا تتحرك كما ترى (أنت). ثمّة دخان كثيف يعكّر صفاء سهوبنا السادرة في البراءة، فيطيح بهيبة أشواقنا التي نجمعها للحظة اللقاء... بهاء! كم أشتاق لدفء كفّك الحانية وصدرك فراشي الوثير.. ولكن!!

رسالتي هذه أبعثها من وراء أستار التخفّي. أخشى أن لا تقع بيد معذبينا. لذا ارتأيت تسليمها إلى صديقك كمال ليبعثها إليك من عمّان؛ حتماً ستصل إليك.

وفاء لا تحمل رسالة نجاة عنواناً أقدر من خلاله إرسال الرد؛ ولم تطالبني هي بالجواب. ابتغتها إذاً رسالة إخبار ليس غير. كلمات تفصح أمرين: الأول أن ذكراي لا يغيب عن ذاكرتها؛ والثاني تعرض حالاً هي في خضمه لا يختلف عن أحوال الجميع تحت الخيمة القسرية للألم.

وأفتح رسالةَ كمال التي جاءت رديفةَ رسالة نجاة بعثهما من عمّان حملهما مسافرٌ عراقي يعمّل في العاصمة التي باتت ممرّاً قسرياً للخارجين من عنق الألم.

"صديقي مبدر:

الاشتياق يتَّسع كالبحر. ولكنَّ الجراح أيضاً تكبر كالمحيطات. قلوبنا غدت منعطفات للشموس المنطفئة والأقمار العمياء. الأمل بالتغيير كان معجزةً لا تتحقق. أمّا الآن فغابةُ الظلام آخذة بالتفكك؛ ولكنها غابة كثيفة من العتمة الكالحة وممتدة لمسافات لا تُحد؛ ونحن في حاجة فقط إلى الوقت لاحتراقها وصولاً إلى ربوع الضياء ونيل فتاة الحرية. ما يلزمنا هو الصبر وتحمل ثقل مسؤوليات العيش اليومي الذي غدا عسيراً ومرهقاً ليس باليسر تجاوزه. أنتظر رسالةً منك."

آآآآه.. صديقي كمال يئن رغم الأمل الكبير النامي في قلبه. لا يريد أن يكون ضعيفاً أمامي تطيح به المادة فيعلن احتياجه لها. كمال في أشدِّ عوزه؛ أنا أفهمه. وما طرحه يكشف أنّه في أشد الحاجة للمال. مالٌ يسد الرمق، ومال لا بدَّ من جعله يواصل إبداعه الفنّي بإنتاجٍ مستمر لا ينبغي أن يتوقّف.

أهرع إلى البيت؛ وإلى غرفتي؛ وإلى ما تحت السرير. أستلُّ حقيبةً جلدية جعلتها حافظة لما أجمعه من بقايا الراتب الشهري ورزمة أوراق لم أطّلع عليها منذ أعوام.. وفي اليوم التالي أروح أبحث عمّن يوصل. وبعد شهرين يجيء الرد بالوصول، فأحصد تعابير ارتياح فيها شكر لفعل جاء من باب الإنقاذ. هل أوفيتُ بما عليَّ من واجبٍ؟ هل أغلقتُ أبواب الحرمان التي كانت مشرعة على أهلي وأحبتي؟ هل زال بعضٌ من غمامةٍ كانت ستكبر فتطيح بهيبة كبريائهم؟ هل هُم الآن في رضا عنّي، وفي عيشٍ يقرب من الاستقرار ذلك أنني بعثت بكل ما أفي حقَّ أناسٍ هم أعز ما لديَّ في دنياي. وصرت أجمع لأبعث؛ ذلك أنَّ رسائل

الطلبات والرجاءات استمرت. بل وجدَت منفذاً لتجاوز الأزمات من خلالي.

يحدث أن يتفاقم إيقاع الرماد وتتكسر مرايا الصباحات وتتثلّم الأعشاش الغالية في اغماض زمن يوم تأتي المفاجأة القدرية فتطيح بجملة الأحلام؛ لكن العزاء يصبح من باب عدم المقدرة على إيقاف قانون هذا القدر فنلوذ بالقناعة القائلة عليكم بالصبر.. يحدث أن يتعالى السمو بمواجهة وضاعة الحضيض؛ ويتم النهوض على هيبة الجراح وإن كانت الخسائر باهظة. ولكن أن يتمادى ذلك الحضيض وينهمك من أجل الارتفاع علوّا ليُلوّث البهاء فهذا ما لا يستحق الصمت. ما جُبل العراقيون على المذلة وإن كان العراق محط إغراء، ومثار طمع، ومُسيل لعاب. وليس من حق الأيام أن تجعل منهم لافتة للدم المراق والكرامة الممزقة بفعلِ شراذمَ انبثقت من أغوار الوهم، وغياهب الظلام ، ومسالك التيه، ودنيا العبث، ومنابت الأدغال ، وكهوف الضياع، ووحول الجهل، وجحور العَماء.

تفرَّق العراقيون!

وكانت الأخبار تنقل عن تفككهم وضياعهم. خروجهم من العراق الذبيح وانتشارهم بصورةٍ دراماتيكية مؤلمة. صرنا نسمع حالات هياجهم كالنحل المذعور وهروبهم من خناجر السلطة تنزل بصدورهم وقلوبهم فتكاً. صارت " طريبيل " النقطة الحدودية الوحيدة لمهربهم تدفع بهم إلى الأردن. وهناك في المدن المأسورة طفقوا يبيعون ما يمتلكون من مقتنيات، وما يحتفظون من أشياء تتماهى وذكرياتهم . لكأنهم يبيعون الذكرى نفسها فيتخلّون عن هوية إرث أيامهم السالفة. ولثقلِ ما سمّي

بالحصار الجائر اندفعوا يخلعون أبواب الغرف والشبابيك لتغدو في الأسوق لا تساوي جزء الثمن الذي عملت به. ما الذي فعله أولئك العراقيون حتى يضاموا بهذا الحيف الصارخ والعذاب الثقيل؟! ولماذا لم يثب العالم إلى رشده فيعاقِب الجاني الذي تسبب بهذه المأساة الكونية؛ ويصرخ بالظالم الذي تغاضى عن هذا الظلم فأبقى عليه وكأنهم يكافئونه أيّما مكافأة؟! ما هذا التمادي العربي الجاني والمتجني يبقى صامتاً فلا ينطق بكلمة حق فيطالب بالفتك بسائق هذا الوطن إلى أتون الدمار والانمحاق؟!..

وجاءت الأخبار تقول أنَّ عمّان الذي كان مواطنها يحلم أن يشاهد عراقياً غدت مليئة بهم، تضجَّ بوجودهم، تتلقّف آهاتهم وحاجيات يأتون بها لتسد رمق أيامٍ سيقضونها بحثاً عن عملٍ أو اكتشاف دربٍ للنأي عن مكمن الجراح الوافر، والألم الخرافي الزاخر.

واستيقظ الوطن الليبي يستقبل بواكير مجيء عراقي ذبيح. توالى قدوم الوجوه العراقية الشاحبة الممصوصة؛ وانهالت الآهات تتفرغ من الصدور. سمع الليبيون بانوراما القتل المنظم ولم يصدقوا. شاهدوا الألم العراقي والسلاسل المقيدة للسان العراقي، المطوقة لقلبه فانبروا شكّاً بما يرون. كان عريان لهم أنموذج الفارس العربي الذي سبقته شجاعته الخارقة قبل سماع كلماته النارية. بطل خرافي كان لهم؛ ومنقذ أمة متهالكة يعيث بها الظلام وتفتك بجسدها الخاوي مخالب ذئاب تربَّت على تمزيق طراوة قلوب الانقياء من الأبناء وجهدت على تنفيذ مآرب حكام جيء بهم من مراتع العفن ليكونوا ملوكاً ورؤساء، قيل لهم أنكم صنّاع تاريخ، ومغيّرو حُقب، ورجال أفذاذ؛ فصدّقوا ببلاهة البلداء ما

قيل. وبدلاً من أن يقفوا مع صفوف الماء والبهاء والصدق الرقراق والعيش مع الصفوف الخضراء اليانعة التي تهبهم الأفواه الهاتفة بالوفاء، اندفعوا يطيحون بهيبة كل مَن يبغي إنارتهم ويقول بصدق القول ما هم فيه؛ حتى غدت الأوطان معلقات أسى، وتواريخ سجون.

الذين قدموا فراراً من الأذى، وسعياً للعيش الكريم فاهو بما شهدوا، وقالوا ولم يكذبوا؛ لكنَّ الآذان المرهفة والعيون المتشوقة للسمع والرؤية باتت في شكٍّ مما تسمع. فالذي تنقله الإذاعات وتبثّه الشاشات لا يقول هذه المشاهد، ولا ينطق بهذا الأسى العميم. وكان العراقيون البعيدون؛ في البلدان المتنورة ذات الإعلام الصادق يصرخون بأعلى ما يستطيعون أن وطنهم ومنذ ثلاثين عاماً يحترق، ويُخنق، ويدمَّر، وتنتهك براءته، ويسحق كيانه، ويمرغ رأسه بالخراء، ويُطاح بهيبة تاريخه. تُفتض بكارة النساء، وتمزق كرامة الرجال. الأرامل تُساق إلى الفعل المشين؛ والكبار يُصنع منهم عيوناً تشاهد على مضض اغتصاب البنات ولواط الأولاد . الأطفال يُساقون لرؤية محافل الإعدامات اليومية في الساحات العامة، وأمام واجهات المدارس بسادية غريبة تقرب من انبعاثات الكوابيس الملازمة لسجناء مصفَّدين بأعتى السلاسل وأصداها.

الذين قدموا شرحوا المعاناة التي لاقوها من الذين ظنّوهم أخوةً فتجلّوا أعداء يمتصون دماء القلوب ويقايضونها بالجفاء ونكران الفضل. بلدٌ أخٌ أغلقَ الأبواب نهائياً عن كل عراقي؛ وبلدٌ آخر لا يمنح فسحةَ الدخول للعراقي إلا غب مرورِ شهرٍ يكون قد استفسر من دائرة مخابرات عريان عن حسن سلوكه العرياني. وبلد يعللُّ الغلق بأن

ظروفه لا تسمح بدخول الآخرين. وبلد آخر يطردهم بالكلام البدوي النكير، قائلاً: روّحوا لسيدكم الذي فك حبلكم! وبلد....! وبلد... !. فسُدَّت الأبواب وأوصدت بأقفال الجحود؛ وأضحى العراقيون نبذاً منبوذا. فتلقفتهم زوارق إندونيسيا، ومواخير ماليزيا؛ ومافيات هنغاريا ومفارق رومانيا؛ وجاء جواب الاستفسار عن دخول جزر الهاواي: قبول كلِّ قادمٍ except the Iraqis .

صاح صوتٌ داخلكَ.. هتف هاتفٌ فيك:

هنيئاً لكم أيها العرب الاقحاح!

ومرحى لإذاعاتنا وفضائياتنا العربية غير العربية.

* * *

وأنا أعيشُ رغبة الوفاء وإرسال ما يتيسر لدي فأستلم رسائل عديدة ومتواصلة يجود بها صندوق البريد حصل ما اعتبرته استهلالاً لبانوراما القلق واستنهاض الوساوس النائمة، فقد انهالت عليَّ رسائل تبعثها نجاة، تشي بمخاطر كالرصاص المنهال على أناس أبرياء من رشاش يحمله مسلحٌ مجنون.

"المصباح الذي أريد له أن يفتح فوهةً في بطن العتمة يتنبأ بالضآلة الآن.. أوشكَ أنً يخبو أمام أنظار عيون الظلمة الهازئة؛ وأنا أفقد ألقي."

"وفاء"

"تكسّرت مرايا النور الذي أمِلنا. غدا عبثا النظر إلى الشمس. أنتَ وأنا في بدء افتراق لا ينقضه البعد المتكرّس بيننا. كمَن يتنادى بين

ضفتي نهر لجوج يغدو اللقاءُ محضَ كذبة؛ والوعودُ أكوامَ قشٍّ في فوضى أعاصير. ما زلت أحبك؛ ولكن!!!!

"وفاء"

غب ظهيرة هوجاء عاصفة.. في ساعة منفلتة من أصقاع الهدوء قادتني قدماي إلى دائرة البريد. مُخدراً كنت بأكسير هاجس لحوح أو نداء آسر، أو نزوة عابرة دفعتني إلى فتح الصندوق لأرى رسالةً وحيدةً خمّنت دون هدى أنها تحمل بواكير أعاصير . صرخت في براري دواخلي أصوات تحذرني أن لا ألامس جسد المظروف فهو ملغم بمطيحات الاستقرار وموبوء بفايروسات بعث القلق، فيما أصوات أخرى تناهضها، باثّةً بوجهي أريجَ غوايةٍ تدعوني إلى الافتضاض السريع.

الخط يترجم فعل أصابع نجاة؛ والطابع البريدي يكشف بعث الرسالة من عمّان. أما الورقة التي فككتُ لغزَ انطباقها فكشفت لي خلاصة رؤية جمعتها نجاة وحزمتها بخيط استحال لحظة القراءة حبلاً يخنقني؛ يحز رقبتي حتى ليكاد يقطعها. الكلمات بدت كما لو أن نجاة كانت تبغي تمزيق الورقة آن كتابتها؛ كما لو كانت تحفر بحافة القلم في صدر الورقة لتمزق فيها نصاعتها.

"يتوارى لهاثنا الجميل يا مبدر؛ والأيام التي سفحنا شذاها على صخرة لقاءاتنا البهية ترمَّدت. ما عدت أطلق زغرودة الفرح الذي حلمتُ كثيراً أنه قادم، وعلى مسار حفنة من الصبر. أشعر أن ينبوع الأمل شرع يتوارى. ولحظة قدومك الغيبي وختم أول قدمٍ على أرضك الحالم بالتمرغ في تراب ثراها لن يكون لها تلك البهجة المرسومة على حيطان قلبينا. أنا متضائلة وأنتَ بعيد.. محترقة وأنت لا تقيس فراسخ

الضياع. كل ما ابغيه هو سماع أخبار نشوتك وهي تتسع كالمطر المداري؛ وأنسك وهو يتناسل في رغاوي من الجذل. تتضام والأيام التي أتمناها حانيةً عليك فأنت قلبي الذي ضاع، وعمري السابق بكل خزائن الذكرى النديّة.. أنا أعيش تفاصيل الفقد فعش أنت جزئيات الألق. ولا تسأل عني. أرجوك!

نجاة"

يا إلهي!.. ما هذا الطعن القاتل؟ ما هذه البلوى الهوجاء؟

لأولِ مرة تخاطبني نجاة بذكر اسمي صريحاً! ولأول مرة تدون اسمها بلا خوف! هل تشرذم رجالات المستعمرة السوداء وانطفأت عيون عريان؟! هل غلبت على إرادة نجاة الشجاعة فلم تبتئس لكشف أسماء ستطيح بقامتها البهية وتؤدي بأبيها إلى مسالك التهميش وربما الإقصاء، وقد يصل إلى الإلغاء من الوجود؟! كيف تراني أفسّر هذا التحول في لغة الخطاب التي بدت في هذه الرسالة حادةً جداً كشفرة تحز القلب وتمزقه؟!.. أنتَ منذ اللحظة مبتلى بالبحث عن إجابةٍ لهكذا أسئلة؛ وأسئلةٍ تليها ستنبثق متوالدة من رحم الحيرة. وآن تجلس أو تنهض أو تبحر في لجّة العمل ستتراءى نجاة علامة استفهام تبحث عن ردٍّ لا تقدّره الظنون المبتسرة ولا تقبض عليه الخواطر الشاردة. علامة تتماوج في أثير الروح الحائر، وبوصلة تعجز عن الإمساك بالاتجاه السائر نحو مرافئ القناعة.

الكلمات تقطر دماً.. التفاؤل؛ السماحة؛ الابتسام؛ حب القادم من الزمن؛ ليل المسرات الآتي على جناح فراشة نزقة؛ الصباح، الحلم، الشهد؛ البهاء الذي كنت أحسد نجاة على تخزينه في طرقات قلبها يبدو

الآن كما الزئبق اعجز عن الإمساك بـه؟ لا وجود لـه علـى وجـه الورقـة! أين تبدد؟! آآآآآآه!

هذه رسالة انتهاء! كلمات فقد! أمل مضرَّج بدم نجيعي فائر... نجاة ضائعة؛ أنا أتهشم.

تلك الليلـة غرقتُ فـي حمّـى الجسد. والنـار شرعت تنشر أشرعتها علـى بقايـا صـمود اختزنتـه. مـا كانـت المرافـئ حانيـة فتسـتقبل سـفنَي الخاويـة لتعيد لهـا وجودهـا الحيـي. مـا كانـت السماء تعبّـر عـن شـفقةٍ تغدقها علـى روحٍ كسير أطاحت بـه سيوفُ الأيـام. غرقتُ فـي جنـون هذيان أطبق علـى شواطئ وعيي؛ وخنـقَ ترنيمـة شمس أردتهـا مشـعّة تسقي زروع وعودٍ نحتُّها علـى رخامـة تصميمي علـى النقاء. تلك الليلـة لـم يكن مبـارك قريباً فيأتيني بالـدواء الصـاد لجيوش المرض؛ ولم تكن ثمّة بشرى تقتحم بيتي بلامبالاة لِعَينٍ خاطفة قد تلمحها فتصنع بانوراما فضيحة قاتلـة. كنتُ وحيداً أعوم فـي لُجج بحـار دهمـاء؛ تخرج إلـيَّ من بين تلاطم أمواجها غيلانٌ تفح وسعالى تتحين الغفلة لتختطفنـي فتعيث بأعضائي أكلاً وتمزيقاً كوليمةٍ غير محسوبة لذبيح غير قدير.

نجاة! ما الذي فعلناه لنحاكَم أمامً قضاةِ زمنٍ وسخٍ وقمـيء؟ ما الذي دها السماء حتـى تتركنـا، هي التـي وعدتنا برحمةٍ لا تحد، وناشدتنا بأن لا نيأس؟ لماذا تناسانا الله حتى لكأننا آتون من شقوقِ العدم، ومرميون في غياهب النفي القسري؟ وما هذا الحيف الجبروتي الجامع لكل جبال الأرض ليجثم علـى صدورنا فنسمع قهقهاتـه السادية تـدوي فـي أجـواء محيطنا العليل؟!آآآآآآآه!

رأسـي مرجـل ينضـح بخـاراً يتطـاير؛ وعينـاي زائغتـان بينمـا الشـفتان

يابستان متقشرتان واللسان خشبة. أصرخ في برية الهذيان فلا يخرج صوتي عن أسار الحنجرة الواهية.. أحاول رفع اليد لأزيح الغطاء من وجهي كي أسرق قبضةَ هواءٍ وأندس من جديد تحته لئلا تهاجمني القشعريرة القاتلة.. جسدي أراه هويةُ خواءٍ لا أتباهى بالانتماء إليه.

في لحظات الرحيل الذي اسمه نوماً أو كرىً أو فقدان وعي أجد نفسي غير الذي أعرفها. حبيبة عليلة هدّها الجوى لفقيدٍ عزيز، وأنهكها طول الانتظار لقدومِ هلالٍ لا يأتي.. تدور لائبةً في دروبٍ أجدها تحتشد بالوجوه: وجوه أعرفها؛ ووجوه أتساءل أين التقيتها؛ ووجوه تنظر إليها بشغف وتسمعها تتساءل: مَن هذه الفتاة التي كأنها ليست غريبة علينا؟؛ ووجوه تستعير ملامح الأشباح فلا تترك هويةً يُستدل عليها؛ ووجوه كأنها ليست من عالمنا؛ ووجوه بلا ملامح، من هواء فقط.. وجوه تظهر وتختفي، تاركةً لوعة وآهات، وصرخات استغاثة أو إحساس بألم ممض... أقول: تعالوا! أفردوا الأذرع لأخذي، فلا ردّاً أسمع ولا فاهاً يجيب. أنثر مفردات تشفّعٍ ورجاء؛ خشوع وخنوع؛ أمل واحتضان، أهتف بآياتٍ، حفظتها إبان طفولتي، تدعو للمودة، وحِكَمٍ تجاهر للوفاء لبني الجِلدة سمعتها من خطباء يعتلون المنابر، وأمناء يقفون خلف المنصات. فلا رأفة تنبثق، ولا وجه يستبدل مساحيق السحنات الباردة. كل ما فعلوا هو أنهم تقدموا فسحبوني بحذر كأنّني موبوء يتجنبون مرافقته. جرّوني إلى قِدرٍ واسع يملأه ماءٌ فائر يتباهى بغليانه وسخونته الشائعة في الأرجاء. رفعوني! وبلا بسملة ألقوا بي في حضن البركان الراهز وأتون العاصفة المائية، وبخار كان يتعالى ضباباً.. وبومضةٍ أقرب إلى انبثاق برق أو أسرع من انقضاض باشقٍ شقّ أستارَ غشاوةِ

الضباب قوامُ نجاة بذلك الامتلاء الذي تركته يوم توادعنا؛ بتلك النظرة الخليطة من سعادة سلامة أمِلتها لي وخشيةٍ قلق من مصير مجهول يقف على أعتاب انتظاري.. دنت وبلهفة تشبه لهفة أم رؤوم تخشى على ولدها من المجهول انتشلتني من حضن القِدر وقهقهات الغليان فشرعت السخونة تنسل من مسالك وتشعبّات غابتي الجسدية. وقبل أن أنطق أمامها وأحكي لها سفر الهول الذي أنا فيه غابت؛ وغاب المكان إلا من فراش اكتشفته يضمّني وقد غرقتُ ببللِ عرقٍ تبيّنت في ما بعد أنَّ أياماً ثلاثة انقضت كانت ترحل بي بعيداً عن موانئ الوعي؛ وأنَّ العالم كان نائياً عني ولا أدري إن كانت الباب قد طُرقت أم أنَّ لا أحد افتقدني وسأل عني. لم تكن نجاة معي؛ ولم أقبض على نفَسٍ من أنفاسها . لأول مرّةٍ أحسُّ بها بعيدةً بشكلٍ لا يطاق. خُيِّل إليَّ أنها تنده بي حقّاً، وأنَّ رسائلها الأخيرة ما هي إلا استنجاد لطلب عودة، وبلا تأخير وإلا سيحصل الضياع وستغدو حلماً من الاستحالة استعادته.

❋ ❋ ❋

كانت دقائق ضحى ذلك النهار من شهر نيسان والعام ٢٠٠٠ يمتص من البحر أنفاسه التي هي نسائم فتنفثها على وجهي صانعةً رغوة انتعاش تسري في أوصالي، ومد سحري يخلق لديَّ شعور أن الحمى باتت طارئة.

أدهشتني قدرة نهوضي وتركي السرير، وأعجبني أنّني أمتلك قوةً قادرة على التحرك والخروج بعد ذلك الخواء الذي أطاح بجسدٍ كان يتباهى بقدرة تحمله. والقرار الذي فجّرته أمام زملائي العاملين معي في

دائرة السياحة جاء من باب رغبة العودة مهما كانت العواقب. فنجاة تستدعيني، وليس من الإنصاف أن أبقى أنانياً أو جباناً أنأى عنها وهي في أشد حالات القهر والتدمير. كذلك الرسالة الأخيرة التي وردتني من كمال أعلمني فحواها أنَّ عريان بات ضعيفاً فصار يرخي قبضة طغيانه ويقلل من إعدامات كان لا يشفي غليله إلا تحقيقها يومياً بقلمٍ وتوقيعٍ يحدِّد فيه العدد المرغوب شطبه من قائمة الحياة.

طرابلس تستحيل بطاقة وداع أكتب على صفحة مبانيها البيضاء نظراتي الأخيرة. ورغم أنني أحببت فيها أهلها والبحر والطرقات والهدوء إلا أن حبَّ نجاة لا يضاهيه حب؛ والقلب يتذكّر الحبيبَ الأولي لاسيما وأنّه في أشدِّ حالاتِ حاجة اللقاء.

أقضي أياماً أُتم إجراءات إنهاء عقدي وأجمع في غرف الذاكرة ما استطيع جمعه من صورٍ لبهاء طرابلس وألقها وغنجها الحيي وهدوئها الملفت لانتباه كل قادمٍ جديد.

طرابلسّ أيتها الزهرة المحفورة على شغاف قلب الأرض؛ يا راعشةً تلوذ خجلاً من جمالها العطري. أغادركِ على مضض؛ فأرسم على جبينك البهي أغنيةَ الوفاء ، وأتغنى غداً بوجهكِ المتقطر براءةً. أهمس قرباً من خدكِ الممتلئ الطري أو أهتف بعيداً عن قوامك الرهيف: مُجبرٌ مَن غادركِ، وملهوفٌ قطعاً مَن سيأتي إليك؟

.....

.....

..... وأنا أودعُك!!!

* * *

عمّان.. للمرّة الأولى

كأنها صحائفُ نشر الألم أو مرايا عرض الحال!

كأنّهم قوامات مخدّرة بترياق الضياع أو منحوتات شمعية سيرتها آلة نفوذ قاهرة!

لكأنَّهم مرضى جاءوا من خواء ممالك التشظّي.. وكأنّي خارج من طوق الشده داخلاً حومة الذهول!

هكذا بدا الأمر من مبتدأه.. ولا أدري أين سأدرك المنتهى؟.. حائرٌ أنا ! أتساءل عن هذه الزحام الهائل من الوجوه العراقية كيف وصلت إلى عمّان بهذه الكثافة المثيرة للامتعاض، هي التي كان كل عربي يتمنى أن يكحل عينيه بمسحاتها الجميلة الوديعة الهادئة، ويرهف سمعه لأيما مفردة يفوه بها نافعةً نافذةً تسقيه نغم معرفةٍ لم تصله من قبل؟ لماذا هي بهذا التهالك مسحوبةً من فيوض السلام ومرميةً في براري الشقاء.. الشوارع لافتات صارخة بخطاهم الوفيرة المتزاحمة؛ تسمع حواراتهم بلهجاتٍ متفاوتة فتقول هؤلاء بغداديون وأولئك من البصرة.. تلك المجموعة لا بدّ أن أعضاءها ريفيون من يشاميغهم والعقل المتهدلة على رؤوسهم؛ برحوا أرضهم وزرعهم وانكفأوا عن ارثهم الحميم مخلفيه للجفاف واليباب والملوحة المنقضة على كل شيءٍ يينع. أحدهم نظر في وجهي، تطلع بي وأنا أنزل من سيارة الأجرة المقِلّة لي من دوّار العبدلي بعدما لفضنا الباص القادم من مطار عالية هناك.. قرأ حيرتي وتملّى اندهاشي. وحين خرج من فمي سؤال القلق وقلت: "ماذا يحدث؟!" نطَّ كأنه استبشر لرؤيتي:

- أنتَ عراقي!

– ومنذ سبع عشر سنة بعيدٌ عنه.. ماذا يحدث؟!

– أتحتاج لشيء؟

– الفندق ما أحتاج الآن؟

وراح يطوف بي معدّداً فنادق من الدرجة الأولى لكني فضّلت فندقاً بسيطاً شعبياً نزلاؤه من العراقيين.. وسط البلد زاخر بالفنادق البسيطة الملأى بمن أريد ومن النوع الذي يأتيها النزلاء ليقضوا أياماً ويتركونها على سفر؛ إمّا لمدنٍ نائية نادت عليهم أو أنهم حصلوا على أماكن سكنٍ ليقللوا من وطأة ثقلِ أجور إن طال البقاء.

وكان فندق زهران الملاذ. فيه أبصرتُ القادمين توّاً من العراق وقد جلبوا معهم ما استطاعوا إخراجه من حاجيات ثمينة ليبيعوها في عمّان بأتفه الأسعار؛ يتصيدهم المنتظرون الذين عرَفَتهم الضائقات يعيشون على آلام وجراح ومعاناة الغير.. أبصرتُ بعضهم يُخرج علب دخان استطاع تمريرها من نقطة الحدود العراقية الأردنية؛ يحملها خفية. يخرج. قليلاً ويعود، وقد علت وجهه فرحة بريئة لأنّه ربح ما يستطيع دفع أجر منامه ليومين .

الغرفة التي أنزل فيها تضم أربعة أسرّة لا أرى نزلاءها إلا ليلاً؛ يرمون بأجسادهم التعبى وينامون. وقد ألمح بعضهم يدخل وينشغل بسحب حقائبه من تحت السرير باحثاً عن شيء يحتفظ به؛ ثم يخرج مسرعاً. لا وقت لديه للحديث؛ لا بِشر على وجه يشجعني على سؤاله والدخول في حوار معه سوى تحيةً مقتضبة انتزعها من شفاهه التي يبدو أنها تعبت من كثرة حديثٍ يعادل الثرثرة أو أنَّ مرارة الحال قيّدت شفاهه فأعجزته حتى عن قولٍ يدنو من المجاملة الحوارية. لا لومَ

عليهم؛ ولا عتاب يُرمى في وجوههم، فالذي جمعتُهُ عنهم طيلة سنوات القهر والحصار وما وصلني من أخبار تصف حال العيش تُمزّق أعتى حجاباتٍ للصبر. صامدون يا عراقيون! يا أطياف الرقّة المبتلات بغدر الزمن وجحود المنتفعين. يا ضحكات السماء المغتالة بأكف تجنّي القتلة. أبكيكم وأنتم بهكذا حال، وأمزّق قلبي وأنا بهكذا التقاط.

على هدي أحد النزلاء من وطني، ومرافقة آخر للتجوال؛ وآخر دلني على مقهى مناسبة، وآخر احتفى بي عن براءةٍ ونقاء عراقي حميم استطعت الاتصال بأمّي هاتفياً، مثلما وقفت عند مكتب سفريات أحجز مقعداً يقلني لمعانقة العراق في اليوم التالي.

وفي اليوم التالي؛ عصراً انطلقت بنا الحافلة. ومعها انطلقت حمّى الأفكار تقودها سفن القلق تتلاطم كلّما دنا العراق واقتربت حواف حدوده. كان الشك ديدني وأنا أسمع التطمينات من أنَّ شرطة الحدود ومخابرات عريان باتت تمنح هوية الدخول بيسرٍ وبلا ويلات. فهي لا تخاف الداخلين إنّما تتطيّر من الخارجين؛ ذلك أن الداخل إليها إنما يلجُ إلى قفصها أمّا الخارج فهو منفلت يهرب من قبضة القفص لذلك تنصب له مختلف العراقيل، وتوضع أمامه عشرات الشِّراك...

في طريبيل رأيت الوجوه الذئبية أكثر شراسةً لكنها تتخفّى بملامح أحمال وديعة. سألني أحدهم برويّةٍ وهو يتأملني بعين تحاول إخفاء يقظتها وتوجساتها عن عدد السنوات التي قضيتها في الخارج. كما استفسر عن عملٍ كنت صرفت فيه أعوامي الطويلة، وعن مدينتي العراقية التي أنتمي إليها. وللحق لم أجد ما ينغص دواخلي إلا الشعور بأنَّ ما أراه ليس إلا مشهداً لا يمكن تصديقه. كيف أنني لم أساق

معتقلاً، أو أجبر على مراجعة دائرة أمنية؟! كيف أنهم بدوا أكثر حيادية مما هو متوقع ومحسوب؟ وحتى تفتيش الحقائب جاء من باب عدم التفحّص الدقيق سوى أنَّ المفتشين كانوا يفوهون بكلمات تقطر صمتاً وعيونهم تتابع قناني عطور ابتعتها هدايا لأمي ونجاة وأختي، وقمصان خمنت إهداءها لكمال وابن خالتي ومن يزورني من المعارف. وكانت إن امتدت أكفّهم تختلس وبطرقٍ لا تخلو من المجاملة واحداً من الأنواع المرزومة وسط بهت عينيَّ وانبثاق دهشتي؛ لكني قلت لا بأس فهم من شريحة الذين داستهم أقدام الحصار.

* * *

الاحتفاء كان كبيراً؛ والقدوم لرؤيتي كان معادلاً موضوعياً لحاجة الآخرين لي..

كان أكثر المطر الهاطل من سماء الابتهاج قد حدث على يباب ارض أمي التي وجدتها كبرت كثيراً؛ وفقدت جراء لهاث الأيام وثقلها ذلك البهاء والألق فظهرت عجوزاً فاتها قطار العيش الهانئ، وغربت عنها شموس التطلعات. رأيت أختي تستبدل صورةَ أمي يوم فارقتها، فبدت أربعينية تهددها أعوامُ الخمسين بالقدوم الهاجم، المقتحم. التقيت كمالاً أعكرَ مزاجاً، وأقلَّ كلاماً، وأبأسَ حالا. أبصرتُ الناس كيوم الحشر كلٌّ مبتلٍ بروحه. يسعى لنفسه وليس غير نفسه ما يروم. ولكن أين نجاة؟!.. لماذا لم أرها، وأيامٍ ثلاث قد مرّت؟.. أين تكون؟ وما هذا التجني الذي ترتكبه أمّي فلا ترد على سؤالي، محاولةً التهرب من الرد بذكر أمورٍ تستهلك الوقت لئلا يعود سؤالي يرمي بلهفته على مسمعها

الركيك؟ ولماذا ينأى كمال عن فكرة الرد فيستعيض عنها بأستفهامي عن الأعوام الماضية كيف عشتها، وصرفتها، وعن إشعار كتبتها ونشرتها؛ ولم يرد أسم نجاة على مسار أحاديثه؛ إلا عندما صرختُ به منفعلاً وثائراً كالمجنون عن هذا التغاضي المتعمد ، فجاء قوله يقص الحكاية:

– نجاة لم تعد تلك النجاة التي تركتها قبلاً. ولم تكن نجاة التي كانت تلتقيني لأعوام عديدة بعد غيابك لتبثك الشوق الدائم من خلالي. للحق أقول: كانت تراك أنتَ في شخصي أنا فيساورها الارتياح، وتتغذى بشهد أمل أن ستلتقيك يوماً. ولكن!

صمت.. هربَ بعيداً.. ودَّ قطع الحديث والانتقال لموضوعٍ آخر؛ لكنَّ نفاذ الصبر الذي يبدو أنّه جمع شباكه من نظراتي العاتبة دفعته لأن يتحسر نافثاً زفيراً طويلاً:

– في الأعوام الأخيرة انقطعت عن زيارتي، يا مبدر. بل نأت. لعلَّ سني الحصار ما دفعتها إلى ذلك. ما عدت أراها. قيل أن عربة من النوع الذي يستقلّها المسؤولون الكبار كانت تأتي فتأخذها إلى العاصمة، وتغيب ولم يعد أحد يبصرها. الشك نما إلى داخلي فجعلني أعتقد أنها خسرتك، أو أنك خسرتها. لقد انتظرَتكَ طويلاً ومن المحتمل أن ظنها خاب في مسألة عودتك؛ ظنّتها مستحيلة لن تتحقق. ومع هذا لا تجعلها تضيع؛؛ ابحث عنها. ليس لنجاة من بديل.

– وشهاب؛ أبوها.. كيف حاله.. أما زال يخدم في حزبه المدمّر؟

– عليلاً.. أرهقه السكر والضغط. نحّاه الحزب بعدما سلبه صحته وكرامته.. هو الآن يعيش في بيته وحيداً بعدما ماتت الزوجة واستشهد الابن؛ أما نجاة فلا يشاهدها إلاّ بالأمنيات. حتى هو صارت بالنسبة

إليه خنجراً يحزُّ خاصرته ويمزّق أحشاءه.

أُخبره عن رسائلها الأخيرة التي وصلتني إلى طرابلس فتطفو الدهشة على وجهه، ويأسره الشَّده أيّما أسر. يعجب ويروح يتساءل عن مكان تواجدها، مؤكداً افتقادها منذ زمن فتهاجمني الحيرة، ويتفجر السؤال الذاهل: أين تكون إذاً؟!

ولم تقتصر الدهشة على ملامح كمال بل طفحت على وجه شهاب؛ أبيها يوم زرته لأقّدم شكري وعرفاني – وإن كانا متأخرين – على ذلك الصنيع الذي أنقذني من غياهب المعتقل وصنوف العذاب التي كانت مرسومةً لي؛ وفي الوقت نفسه أستشف أخبارَ نجاة، وأحصل على معلومةٍ ثمينة تعرفني بمكانها، وتقودني للحظة لقائها.

وجدته يجهل كلَّ شيء عنها...

وأنا اطرح أسئلتي المتهافتة التي أحاول أنْ اجعلها أقلَّ وطأةً على روحه المتعبة أكتشف أنَّ ثمّة سرّاً لا يبغي البوح به . قرأتُ تهربه من إجابات لا يريد من خلالها التشكيك بابنته وبأخلاقها؛ لكنَّ المرارة كانت أكبر من أن يحاول طمرها فتطفو على الوجه الذابل وتنسكب من العينين الكسيرتين فاضحةً خيبةَ أمله، أو عظم ألمه. وفي لحظة يأس وحزن فائرين شرع يتمتم:

– نجاة تشظّت وضاعت!

– أفصح لي، يا عم.. أعطني رأس الخيط وسأصل إليها.

– لا.. لا.. محال!.. نجاة انتهت. لن تجدها!

– كيف؟!

صار ديدني البحث عن نجاة.. وصرتُ كل يومٍ يمر تستحيل لغزاً

يزدادُ إبهاماً.. يحذرني كمال من التمادي في البحث عنها؛ ويدفعني شهاب إلى عدم الدنو من موضوعها حتى وهو ينهار بكاءً أمامي في كل زيارةٍ أزورهُ فيها. يُدخلني غرفتها ويسلمني مظروفاً حوى أوراقاً ملأتها كتابةً. يعلمني أنّه لم يجرؤ على قراءتها خشية أن يمزق فحواها قلبَهُ ويرميه على قارعة العذاب المستديم.

أمّا أمّي فحدثتني عن وداعةِ ورقّةِ وطيبةِ نجاة.. حدثتني عن دماثة سلوكها وحسن صنيعها. حدثتني عن زياراتها المستمرة بعد سفري وشعورها المتراكم كما لو كنت أمها. أخبرتني كيف كانت تصعد إلى غرفتي فتقضي الساعاتٍ فيها تتملّى حاجياتي، وتتفحص مقتنياتي؛ تصرف الوقت قراءةً في كتاباتي أو تغرق في مطالعة كتبٍ كانت تحتشد داخل غرفتي. لا تبرح المكان إلا وقد نهلت الكثير من أنفاسي السابحة في فضاء الغرفة أو النائمة على نواصي الأثاث.

– آه.. لا أدري ماذا دهاها فابتعدت. نحن لم نفعل ما يسيء لها فيجعلها تتركنا. لا بدَّ أنَّ سبباً قاهراً دفعها لذلك.. نجاة مثل ابنتي فهمتها؛ وأعرف دواخلها نقية وصافية. لقد اكتشفتها في زياراتها الأخيرة تئن موجوعة؛ وعندما تصعد إلى غرفتك كانت تجهش ببكاءٍ كبكاء الثكالى. استفهاماتي وأسئلتي الامومية لها تهالكت على طريق صمتها فلم تبح لي.. نعم! هناك سبب كبير.. سرٌّ تتهرب من إفشائه ؛ تخشى البوح به. كانت تحاول تهدئتي وتقليل عاصفة الألم التي تجتاحني وأنا أتوسل بها أن تفشي ما تخفيه في صدرها.. كانت تقول ما بي لا يقدر قلب رؤوم مثل قلبك أن يبدد كمده..... كانت يائسة، حزينة، وضائعة.

* * *

أشهرَ صرفت.. أتحرى وأبحث.

أمتلئُ حيرةً فأبكي.

كمال يحذرني من تبِعات تحركي.. شهاب ينصحني بنسيان كل ما يمت بها لاسيما وأني أخبرته بقدومي المقصود لأجل الاقتران بها. كلُّ مَن التقاني عاب عليَّ بقائي؛ فالحصار قاتل والسلطة دموية، كل يومٍ تنشئ جهازاً قمعياً ترومه يطيل في عمرها فتنزل فتكاً بالناس. أمسك بعض الخيوط التي تقول أن نجاة خارج الوطن.. وعلى الأكثر في عمّان، فقد شوهدت هناك. وكلُّ مَن التقاها وكلّمها أكتشفها عليلةً، منهكةً، مذهولةً، حتى أنّها كانت تشيح بوجهها لمن تعرفه ويريد أن يكلّمها. يصاحبها أناس لهم ملامح رجالات السلطة وأمنها. وعندما استفهمتُ عن قدرة البحث عنها واكتشافها هناك قيل أن بإمكاني إيجادها إن جنَّدتَ الجهدَ والصبرَ والجَلَد.

.... إذاً إلى عمّان!!

.... إلى نجاة حتماً!!

الفصل السادس

(١)

"ابحث عنها. يجب أن لا تدعها تضيع."

كالرنين كان الرجاء يفعل فعلته في أذنكَ. ومثل نوابض آلية كانت الأحرف تضرب صدغك فتجعلك تشعر بدوامةٍ تلفُّكَ وتطيح باتزانِك. رجاءات كمال الذي وجدته أكثر رهافة وأشد قلقاً تطالبكَ بضرورة إيجادِها بينما يأسُ أبيها في لا جدوى بحثِك وعقم تحريّاتك عنها يرسم هولَ اليأس وفداحة المهمّة.. ما كنتَ موقناً بفقدها إطلاقاً، ولا تسربت إلى مسارب حدسِك فكرةَ أن لا تراها البتّة. كان ظنّكَ أنَّ عارضاً ما يتسبب في انكفائها فيحيلها منكمشةً لا تريد ملاقاة أحد، ولا تسعى لإغاظة أحد. فقط تُحرقُ مضاربَ وجودِها دونَ المساس بمشاعر مَن تودَّهم، أو دون أن تجمع في قلبها ما يترُك انطباعاً بجحودها. أمّا أنْ تغيب وتتلاشى بهذا الاختفاء المُبهم دون أن تراها ! أمّا أن تنسى أن لها حبيباً عاهَدته يوماً أن تبقى له وتنتظره مهما ماجَ البحر وتفجَّرت العواصف فهذا ما زرع في جنبات القلب الدَّهَش، وفجَّر في الرأس أسئلةً لا تنتهي. وأنتَ هنا في عمّان مبتدأُ بحثك والانطلاقة في دروبِ المجهول اعتماداً على أقوالٍ تفوح منها رائحة اليقين أدركتَ أنَّكَ ستجدها لا محال.. نعم؛ ستجدها حتى لو تطلب انصراف ما تبقى لكَ في سلّة الهباء من أعوامٍ، في هذه البانوراما الحياتية التي صرتَ تسمع كمال يسميها "لعبة غبية التصميم" لا بدَّ أن تنتهي بمشهدٍ درامي فعّال أقّله الموت انتحاراً.

ستقضي الأيامَ والأشهرَ بحثاً.. ستزرع أنظارك حواجزَ، تنهمك في التقاطِ أيِّ مارٍّ؛ ستتحرَّى كلَّ دربٍ في عمّان تسألَ كلَّ نسمةٍ أو خفقةٍ علّها مرّت على وجهها فسرقت آهةً يمكن أن تدلُّكَ عن فحوى ألمِها. مَن يظن أنَّ نجاة ستختفي وبهذا المشهد الدراماتيكي والتصرف الغامض؟! مَن يعتقد أنَّ بهجتها بلحظة لقائكما ستنطفئ فلا تحقق تلك الأمنية الحلمية وحياكتها التي تقارب عقَدين من الزمن؟!..

الليل، والسكون، والقلب، والمستحيل، والأنفاس، والآهات، والمصير المبهم، والسحر الجميل، وترانيم الشجن المزروع على أجدر الأنسام .. الفرات والضفاف ودروب طفولتك الأولى، وحمّى الضياعات الراهصة في بناء الأحلام التي بحجم الكفوف الصغيرة، والمبهمات من الأفكار الوالجة دروب التساؤلات البريئة عن حال الدنيا.. حركة الأهل والناس والكواكب التي تملأ لحاف السماء وأنتَ تتطلع بعين الغرابة والإبهام إلى كل ما حولكَ.. نجاة، والألم، والأمل واحتراق أصابع الروح، والسنون المزروعة عشباً ندياً يقطر رهافة ، والعمر المحروث ندباً وطعناً وبقايا جروح لم تلتئم. نجاة وأنت والعالم الذي يلفُّكَ الآن ؛ جميعاً يدفعونكَ إلى حشد جيوش التصميم لإيجادها وإيقافها عند جادَّة كشف الحقيقة التي تخفيها في ثنايا تواريها عن عينيكَ، وتصميمها على أن لا تراك.

عمّان مدينةُ البحثِ ومشوارُها الأولي.

عبد الرحمن غادرها غب شهرٍ من اللقاءات المحفوفة بالاحتدام والمشاريع الكبيرة وتركَ لكَ ذكرى ثقيلة من الأيام المحفوفة باللقاءات اليومية والعيش التفصيلي بكل ما يحمل إرهاصات وتصميمات على المضي في تحقيق ما آمن به. نادت عليه لندن وواجباته الثقافية

ومشاريعه السياسية التي اطلعتَ عليها لاحقاً فأبانت لكَ استمرار قوة شخصيته وصلابة آرائه التي ورثها عن أبيه؛ لبّى النداء. غادر وترككَ في حومة البحث.

اللقاءات بمصطفى العارف واحمد كامل وعلي الزرّوق صارت من عِداد الذكرى. تفرقوا عائدين إلى منافيهم، وعادت معهم آهاتُهم وسبابهم الذي لا ينقطع على سارقي أحلامهم وملاحقيهم أنّى توجّهوا. تفرقوا وخلّفوك في ضيعة البحث.

كمال الذي ودّعكَ في بغداد تركك وسلَّمكَ لكفَّ البحث؛ لكنَّه تركَ هاجسَ الخوف عندكَ عليه.. ترك شعورَ أنه ليس الذي فارقته قبل سبع عشر عاماً. ذهب الطموح مستبدلاً إيّاه باليأس. تلاشى الثبات مستعينا عليه بالقلق؛ تفاقم الشرود. يتحرك معكَ مداراةً لمشاعرك ووفاءً لأيامِ الرفقةِ والصحبة الجميلة. تكتشفُ جزعه وهو يخطو على بلاطات الحديث الذي تلجّانه فتتساءل: ما الذي حدا به إلى القلق على هذا المنوال؟ ما الذي دفعُه إلى جادّة الشرود وبهذا القدر من السوداوية؟.. ويأتيكَ صوتُ الداخلِ يلومكَ على هكذا تساؤلات هي أقرب إلى السذاجة . فالذي حدث للعراقي يُبررُّ جنوناً يَمسُ الشعبَ بأكملِهِ ويتركه يعاني الضياعَ الوراثي: حروبٌ وحصار. عسفٌ وتجنّي. حرقٌ وسحق. سرقةٌ وسلب. استلاب وطعن. ليلٌ طويل وأنين فاجع. وهو الوطن تربّى على براءةِ الطبيعة الحانية وحب الله له بحيث منحه الخيرات مجتمعةً. فقط أخطأ بترك القتلةِ واللقطاء يعيثون فساداً وخراباً وتدميراً ولم يُلجمهم ويضعهم عندَ مرتبةِ استحقاقاتهم.

كنتَ تجرَّ كمال إلى الكلام جرّاً بينما يحاول الهربَ تقهقراً إلى

دواخلـه. كنـت ترجـوه أن يفـوه فيشـرح لـكَ بانوراما المآسي التي شربها العراقيون دهاقاً فيتوارى تسللاً. لا تدري أنَّ هذا التواري الوقتي والهروب إلى مكامن الذات سيقودانه يوماً إلى ما يسحق لديكَ قدرة التوازن في الحياة ويجعلانكَ تهيم في دنيا التلاشي؛ أنتَ الذي وقفتَ على أشبه ما يكون بالحياد من ذلك وهذا الخضم من الويلات حتى وإن أبديتَ تذمراً وأظهرتَ حبّاً، رامياً باللائمة تارةً على الأيام التي قذفت بكَ إلى واقعٍ عربي شأنه شأن بقية الأجواء المتَّسمةِ بالعيون المنتشرة أنّى مشيت والرقباء الذين يحصون عليك خطوِكَ أنّى توقفت، وتارات على نفسِكَ التي كانت وبمرور الأيام تحبُّ نفسَها فلا ترضى ضرراً يحصل لها، ولا تكديراً يمسّها؛ وإلاّ لماذا تركتَ كمالاً يصل إلى هذا الدرك من التقهقر ولم تصر عليه أنْ يخرجَ من عنق الزجاجة طيلة السنوات الماضية؟

تقول: كمال أنتَ ذاكرتي في سِني غيابي فادلق الفحوى وأطلعني.. يهز رأسه مرارةً ويغمض عينيه كأنه يطرد جحافلَ الصور التي ترومُ التحرر والانسكاب. فقط موضوع نجاة كان يُخرجه من دوّامة الشرود، منهالاً عليكَ بالنصائح. يُغذّيكَ بالعزيمةِ ويدفعكَ إلى ضرورةِ إيجادها وإعادتها لربوعِ حياتِكَ ورياضِ حياتها.

- لا يجب أن تضيع.. نجاةُ هويتُك!

(٢)

أخرج صباحاً من الفندق لألفَّ الدروب...

أمشي أولاً في الشوارع أحنُّ لأي قوامٍ نسائي وسحنةٍ عراقية وديعة. في الوجوه ألمحُ تقاسيمَ نجاة، وأترجم فحوى الضياع السالب لرونقٍ كان

شعارَ العراقيات، وبهاءً هو من طبيعتهن الهاتفة بالسماحة، والوداعة، والطيب.

عراقيات بوجوهٍ موحلة أرى. يفترشنَ الأرصفة ويلذنَ من قلقٍ يتوقعن حدوثه أية لحظة. يبعنَ السجائر ويفترشن الورقَ المقوّى؛ ثم يتخذنَ من منعطفات سلالم الفنادق ملاذاً لأجسادهنَّ المُتعبة يرمينها قصد ساعة نوم هادئة وليلٍ ينأً عن الهموم. هل أرى نجاة بينهن؟ مَن يدري؟! ربّما أبصرتني فرفعت بسطةَ سجائرها وهربت لائذة عن عين اكتشافي. ربّما وصلها خبرُ بحثي عنها فتوارت لأيام، خاسرةً فرصَ بيعها وتجميعِ نقودٍ هي من عِداد الربح الذي ينتظر غيرهنَّ حيازته. وربّما أنا على خطأ؛ فنجاة قد لا تحترف هذه الصنعة البائرة وهي الآن تدخل تجارةً أوسع لها سمعتها المهنية وصيتها الوسيع. وعمّان مدينةُ الكلِّ شيء. تضجُّ بالبشر، وتزدحم بالمحلات، والعربات ومكاتب الهاتف ، واللوحات الإعلانية ، ودخان عوادم السيارات، والمطاعم التي تتوازى والبطون الجائعة لأكلٍ يقي جوع الواهبين جهدَهم لسرّاقِ جهدِهم بعبارة " يعطيك العافية " ، واللحى الوفيرة، والأثواب القصار، والمآذن التي تنده بكبر الله وأغلب روادها لا يعرفون الله.. عمّان الجبال المزدحمة بالبيوت المتعالية، والطرقات الأمعائية المتداخلة، والتوسع الحثيث على حساب حزنِ العراقيين المُعدمين، وأحلامهم الموءودة، وقلوبهم التعبى. عمّان الاقتصاد الحر الذي لا يهمّه سوى الربح وتسيير عجلة الآلة التي تجلب الرفاه الصناعي والتجاري والحضاري، وتسمين القطط التي ما حلمت يوماً أنْ ستصبح بهذا الامتلاء.

أوقاتُ الغروب تدفعُ بالعراقيين أفواجاً وجماعات إلى الساحة

الهاشمية، فتراهم يتكتلون مجاميعَ يكشفُهم صوتُهم الجهوري المشهورين بنبرته الصائتة؛ وتعلن وجودهم دشاديش استعاضوا بها عن البنطلون والقميص. ذلك الزي الحضري الذي كان هويتهم أنّى ساروا وأينما حلّوا.

يلتقي القادمون منهم من أصقاع العالم بعدما تشظّوا لسنوات ثم جاءوا على إيقاع تلبية نداء الأمهات والآباء والإخوان والأخوات ليشاهدوهم. فقد طال الفقد وامتدت أعوام الغياب وصارت للقلوب رغبةُ اللقاء قبل الممات. تجهش الأم وهي لا تصدق ولداً خرج بعنفوان شبابه فجاءها وقد غزا رأسه ثلج المشيب؛ ويكتم الأب عبرةً تقاتلت من أجل أنْ تفك أسرَ حبْسِها وتتحرر من الصدر الذي أنهكه دخان الحسرات والألم الكظيم، بينما هم ينظرون إلى إخوانهم وأخواتهم يستقبلونه وقد غدوا كباراً بعدما تركوهم أطفالاً يحبون أو صبية يتراكضون على آجرات أرضية المنازل بجذل طفولي لا يفقهون سر مستقبلٍ سخامي عتيم ينتظرهم. "آه، يا أهلي. لقد مرَّ العمر؛ ولهثت السنوات! مَن يظن أننا سنلتقي وسط الطريق وقد استحلنا مصانع لإنتاج الآهات! مَن يحسب حساب القهر الذي يتراغى فيجثم على تطلعات نفوسٍ بينما الآخرون من أقوام الله والدنيا الوسيعة يرفلون بأنوار الرفاه والجذل الجنائني!.. آآآآه أهلي. قلبي معكم.". هذا هو حال مَن تغّرب وفُرضت عليه قوانين الاغتراب غير المرئية؛ تلك التي تتوجد كبذرة لا يدري إن كانت ستتفلق تحت أديم الغربة لتنمو نبتة غير مصدق أنها ستكبر ويصير لزاماً عليه أن يراها تتعالى مع مرور الأشهر والأعوام؛ وهو يقول بشيء من الثقة والتصميم سأقطعها قريباً وأعود إلى وطني؛ إلى عراقي؛ إلى مدينتي؛ إلى أزقتي ومكامن دفئي؛ إلى حلم أعشاشي وندى

صباي؛ إلى أصحابي وأماكن صداقاتي؛ إلى حبيباتٍ عشتُ وإياهنَّ ساعات نزق وأيام لهفات؛ إلى شجرة سدر هنا وشجرة غَرَب هناك كنتُ وأقراني نستظل بهما من حمأة الصيف، وصهد الظهريات، والريح السموم؛ إلى صحن القيمر والخبز أقضمه كأطيب فطور صباحي أعقبه بقدح شاي ساخن حلو؛ إلى مرق الباميا أدوف فيه الخبز وألتهمه كأشهى غَداء بعد عوم طويل في ماء الفرات أو دجلة أو ماء السواقي الدافقات ؛ إلى قِدر الرز المتبقي من غداء الظهيرة أدفع إلى عمقه كفّي لتطعم فمي عشاءً قبل الانطلاق للصحب الذين ينتظرون في الزُّقاق حضوري لنلعب ألعابَ الصبا ضجيجة الحركة والأصوات المتعالية دون انتباه لانزعاج الأهل وامتعاضهم؛ إلى تجمعات الألفة ليلاً بعد تعبٍ لذيذ لتبدأ على عتبة أحد البيوت حكايات الجن والطناطل والسعالى يفوه بها الشجاع في الحديث والمتمكن في القص؛ إلى أمّي وأنا عائدُ إلى فراش النوم في السطح المكشوف على السماء صيفاً أبصرها تغط في رقادٍ وقد استرخى جسدها التعِب فأتخيلها ميتة وأهمُّ للاندفاع إليها أبكيها وأصرخ: يا أمّي أعذريني قد يكون أتعبتكِ أنا بنزقي ولعبي وشيطنتي؛ إلى أبي الذي يبدأ سيمفونية الشخير حالما يضع رأسه على الوسادة فيطلعني على مرارة كيف أن الأب يتحمل مسؤوليةَ عشرة أولاد يجب أن يُطعمهم يومياً ويكسيهم باستمرار، فأتمتم: مسكين أبي ستظلُّ تدور، وتدور، وتدور، وتدور، وتدور حتى تنقطع متوالية شخيركَ هذا يوماً وإلى الأبد؛ إلى القلم الذي كتبتُ به لأول مرة، والدفتر الذي نثرتُ خربشاتي على صفحاته البيض وأنا استعذب لحظات إنتاج أحسّها في غاية الجذل؛ إلى قراءتي: دار.. دور.. داران ؛ إلى الحنين الدائم

لكينونتي، وتصوري البعيد لمستقبلي. أعود لأقتل أعوامَ الغربة وأدفنها تحت أديم النسيان. لكنّها أعوامٌ تطول؛ والاغتراب يأخذ مأخذه التراغي؛ والتطبّع على عيش يسحبُ من تحت بساط الثقة والتصميم رغبةَ العودة. فأجد نفسي غب الأعوام الهاربة أنَّ العودة غير مجدية؛ والرجوع يغدو من نافلة اللاواقع. وشيئاً فأشياءً يتراخى الحبل المشدود إلى الوطن والأهل والأماكن وتغدو الغربةُ طابعاً وهوية؛ ويغدو الوطنُ في حزنٍ لفقد أبناءٍ أرادهم كأبٍ رؤوم أن يتجمعوا حوله ليحكي لهم حكايات الانشداد إلى الأرض، ويقص عليهم قصص الآخرين الذين اغتربوا فتشتتّوا، فضاعوا، فانزووا، فنُسوا، فاندثروا ؛ ثم ماتوا هناك! في شتى الأصقاع بلا عينٍ تبكيهم أو روح يطلقُ لأجلهم حسرةَ الفقد.

أخرج صباحاً لأندس بين حركة المارة التي تزداد مع حركة الساعات نحو الظهيرة. استقلُّ حافلةً دافعاً جسدي بين أناس تثقل وجوههَم علامات الحياد في متابعتهم لشؤون حياتهم، وتفاوت ترجمات ملامحهم، لكنَّها جميعاً تشي بموقف واحدٍ هو الانصياع لمنطق حتمية العيش والرحيل في دنيا ضاعت فيها مراسيمُ الخلود.

من خلل الزجاج أتفحص القوامات البشرية وأثبت نظري في كل هيكل نسائي. وعندما يثير شكّي ملمح من ملامح نجاة أنهض هارعاً بالنزول في أقرب موقع تقف فيه الحافلة فأروح أتابع ضالتي حتى أقف بمواجهتها فتُعلِمُني لهفتي بخيبةِ حدسي، وبطلان نجواي. وحين أجدني أقف في منطقة لم تمر على أديمها قدماي أرى من المقبول التحري وابحث فأصرف ذلك النهار باحثاً. تأخذني الدروب وتتلقفني المحلات؛ ثم بعد انهيار خيبوي تلفظني كما لو كنتُ زائراً مزعجاً أو متطفلاً ليس

من فائدة تُبتغى منه.

في تنقلاتي بين حواري عمّان تعرفت على شتى الوجوه؛ وأطلعتني هذه المدينة التي تنمو بشكلٍ خرافي سريع على طبيعة مجتمع تتلوّن فيه الاهتمامات، وتتفاوت بين نسيجه علائق التواصلات. مجتمع كلٌّ همّه أن يعيش وقد شدّته إلى الجانبين قوتان تحاول كلٌّ منهما سحبه لجبهتها كي ما يكون تحت هيمنتها، اعتماداً على نظريات كل جانب يؤمن بصدقها وأحقيتها في الاستقطاب. قوةٌ ترى أن الحضارةَ مسارٌ لا بدَّ من أن يُقتفى للّحاق بركب الإنسانية الصاعد في قطار هائلُ في جريهِ منطلقاً نحو ذرى الشمس؛ وقوةً تفضل التصمّغ والنظر إلى الوراء، اعتماداً على قيم تراها المثلى وأنَّ اللهاث خلفَ الحضارة يعني التخلّي عن الإرث؛ وبالتالي ضياع عالمٍ ما ورائي سيحرزون عذوبته وجماله في حياةٍ ثانية تأتي بعد الفناء إن هم تمسكوا بأعمدته، وتشبثوا عند دكّة بابه.

الساعات الساقطة في البحث المضني؛ والخيبة المتفاقمة في يبابِ الروح تعود بي عندَ مشارف المساء إلى الفندق، فتضعني أمامَ أناسٍ جُدد، مثلما تريني أسرَّةً برحها نزلاؤها تاركينَ أنفاساً تمتزج فيها آهاتُ القلق والخوف من الضياع، وأنفاساً على النقيض ابتهجت لساعاتِ لقاءٍ منتظَر بعد فراقٍ تطلَّب استغراقُه أعواماً. والرجل الأربعيني الذي أبصرته يسترخي على سريرٍ احتله شاب عراقي قضى أربع ليالٍ دون أن أسمع منه كلمةً سرعان ما نهض وهو يراني أدخل الغرفةَ ليطالعني باهتمام وتحديقة حملت أو فجّرت كما يبدو أسئلة عديدة لديه. ثم شيئاً فشيئاً عاد إلى استرخائه، طامراً ما خدعته عيناه، ونافياً صورةً ربّما

هاجمته بكل ملامحها وذكرياتها. لكنّه ظلَّ وبشيء من الفضول البسيط يراقبني وأنا أخلع ملابسي وأرتدي البيجاما، ويتفحص ما تحت سريري. فهو الإشارة التي تدلك إن كان النزيل قادمٌ من العراق أم آتٍ من مواطنَ أخرى بعيدة. وحين أبصر أن حقيبةً واحدة فقط وإن كانت كبيرة تحتل الفراغ تراجع نظره ، وانتقل إلى مدخل الغرفة يطالع مَن يخطف داخل الممر.

عندما تداهمك جيوش الحيرة، وتطوّقك جحافل الضياع ، وترى أنكَ وحيدٌ حتى وإن كنتَ بين جموعٍ لا تحصى من أبناء جنسك ستسعى بالتأكيد لمن يساندك أو يعرض عليك بضاعةَ المشورة لتبتاعها مجاناً. هذا ما تنامى في داخلك وترسخ غب مرور الأيام.

عليكَ تبديل التكتيك يا مبدر، فلا تكتفي بالأسئلة والاستنتاجات، الهواجس والخيبات. عليك بالآخرين لتجعلهم بوصلةً يُدلّونك على المفارق واللقاءات؛ الدروب والمنعطفات. الغرف الخفية؛ والمفارق العصية في هذه العاصمة المنتفخة . لقد رحل عبد الرحمن ، ونأى كمال، ونجاة هي المبتغى. وأمامك مَن قد يمتلك أمانَ خطوةٍ أو يدلي لك بقولِ نصيحةٍ. وقد يكون هو الدليل نحو الوصول إلى نجاة، فيعرف عنها ما ترمي، وقد يأخذ بيدك ويضعك في مكانٍ من عداد المستحيل إدراكه، ليقول لك: " هذه نجاة، يا ضائعاً سرق الزمان نضارته.. خذ مَن بحثتَ عنها طيلة أيامٍ دنت من الشهر وما تني تتمطّى وربّما استطالت لأشهر. وربّما لا تجدها أبداً. ". وهذا الرجل الأربعيني لا يبدو غريباً. إنَّ سحنته عراقية ونظراته تمنحك شعور أنّه يفرش أشرعة الرغبة في الكلام.

في ذلك الغروب الذي شكَّل آخر ترجمةٍ للقاء؛ وهي تقف عند نافذة الغرفة تتأمل انسحاب ذيول الضوء وقد هجمت العتمة تُسربل شيئيات الغرفة وموجوداتها همست نجاة:

– آ؛ مبدر. غيابك الذي أريده إنقاذاً لحياتك يخيفني؛ وبعدُك سيتسبب باستدعاءِ كل مفردات القلق التي تجرحني. سأعيش أياماً مكبلة باللاجدوى، وأسير على لظى سيحرق منابت استقراري. عندما أختلي بنفسي أقول كيف جاء هذا الذي كنتُ أظنه غيمةً تحتويها السماء لبرهة ثم تنأى بعد حين؟ وكيف حتّمه القدر فأوصله إلى عتبة بيتنا. دخل وتحاور، وتحدث، وبصم بأصابع وجودِه على صفحة حياتي؟

استدارت:

– هل خطر في بالِكَ أن نجاة يمكن أن ترتقي السلم صعوداً لتلج هذا المكان وتقف عند هذه النافذة تدلق كلمات تأملها وحيرتها وتريك حجمَ إشكاليةٍ ستتولَّد جرّاء حبِّكَ وغيابك؟

– قطار الحياة يقل ما لا يحصى من ركاب المواقف؛ فلا تتطيَّري، ولا تعجبي. الأقدار تصنعُ المستحيل وتُحقِّق ما لا يدخل في مضمار التوقّع.

– مبدر! أنتَ قدري. لهذا سأروّض قلبي على هذه الأحجية القدرية، وأبقى أنتظرك؛ فلا تهرب.

المعادلةُ انقلبت، وريحُ الانتظار ها هي تهب من جغرافيتي. موجةُ الهرب تجيء الآن من ضِفاف نجاة. كيف حدثت هذه المفارقة؟ ولماذا انقلبت تراتبية السماء فأنتجت ما لا يصدّق؛ فتمخضت عن ما لا

يخطر في الدواخل؛ فأوقعتني في دوامة تفكُّر لا ينتهي؛ فانتصبت شاخصَ فناءٍ لسعادةٍ مرتجاة؛ فوجدْتني أصرُّ على أن لا أتركها تضيع.

ضغطتُ زرَّ استدعاء عامل الفندق طالباً قدحين من الشاي.. وكان الرجل لا يتوقع منّي هذه المبادرة، لا يظن أنني سأتحدث معه، ذلك أنني كنت أدخل الغرفةَ وأخرج شارداً وهو يراقبني بعين فضوله الداخلية وتساؤلاته الجوانية. هذا ما أخبرني عنه لاحقاً عندما صرنا نبرح الفندق عصراً آخذين امتداد شارع الملك طلال باتجاه حديقة " راس العين " هناك حيث كنّا نجلس ليسألني وأجيب، أسأله ولا يرد.. عندها أدركت أن هذا المخلوق معبأٌ بأسرارٍ خطيرة، ولديه من الأشياء العصية ما لا يقدر على الإفضاء بها أو لمّا يزل غير واثقٍ من صحبتي له. في هذا أسلّمه صك الحق فقد اختلط الصحيح بالخطأ وصار العراقيُّ لا يعرف مَن هو جليسه الأصيل من محدِّثهِ الخسيس لأنَّ السلطة الدموية اشترت بفعل قسوة الحصار ومقته أعداداً لا تحصى من النفوس؛ جنَّدتها لتكون عيوناً تندسُّ بين أحزان الشرفاء لتلتقط آخر أخبار مأساتهم وتتابع خُطى مَن يبغي الهرب في دروب الله إلى الفناءات البعيدة الخالية من الأنفاس الذئبية رغم علمهم أن هذه الأنفاس تتواجد في كل مكان حيث عريّان فتح أبواب خزائن البلد المسروق لتكون مموّلة لتقليل رعبه من أعدائه العراقيين وتضئيل خشيته من أفعالٍ قد يصنعونها فتطيح بهيبةٍ يعرفها زائفة لكنّها منطلية على المغفّلين والجهلة من العرب ممّن يظنونه "السوبرمان" الذي بمقدوره جلب حزمةَ نجومٍ من السماء برفعةِ يد أو إيماءة رمش.

ويوم عرضتُ عليه شريط حياتي وأفضيت بما لدي مختتماً حديثي

عن مهمة وجودي في عمّان أدرك صدقي وحسن نواياي في التقرب إليه. عرف أننا نتقاسم الهمَّ ونتماهى في الأحزان فصارت لنا في حديقة "راس العين" جولات من الأحاديث والإفضاء المعلن؛ وصرنا نتخذ من الطريق المجاور للحديقة صعوداً باتجاه مخيم (الوحدات) درباً يُمكِّننا من اجترار الأحاديث ولو على نغمة الأحزان الثقيلة.

حدثني عن وجوده في عمّان، وأفضى بسر انتظاره في الفندق. قال أنَّ له معي أياماً معدودةً فهو في انتظار ترتيب مهمة تهريبه إلى بودابست عن طريق مافيا ناشطة في عمّان ستوصله إلى هناك وستنقله لتضعه داخل الأراضي الألمانية ليعرض نفسه عند أقرب رجل بوليس كلاجئ اضطرته ظروفه القاسية للهرب من البلد المعتقل إلى بلاد الحرية الغنّاء. وقال أيضاً أن مَن موَّل عمليةَ هربه ابنُ عمٍّ له. قال: "سأحدثك عنه لاحقاً فلهذا المسكين قصةٌ جرّت علينا الوبال نحن أهله وأقرباؤه بلا ذنبٍ فعله هو ولا خطيئة ارتكبناها".

ذلك الوقت الذي يقرب من مغيب الشمس، ونحن ندرك حديقة راس العين فضّل هو أن نواصل السير لعلَّ مكاناً آخر يزيح بمعالمه صدأ الهمّ المتراكم على شغاف القلب. عبرنا الشارع إلى الجانب الآخر ورحنا نتهادى. كلٌّ منا يحمل أثقالاً من خبايا يريد كشفها للآخر سعياً لحصول مشورة قد تشعل بصيصاً في عتمة النفق الأدهم الذي يعيش داخلنا. الطريق يمتاز بنظافته؛ الهواء رائق. حركة الناس عائلات وفرادى تتجه نحو مكان لا ندريه.. سرنا على آثار خطوهم تاركين لنظراتنا ترتفع مع ارتفاعات البيوت التي تعلو مع علو سلسلة الجبال الممتدة لمسافات بعيدة تأخذ شكل الانعطاف فلا نعرف أين تنتهي، ثم

تنخفض لتتابع هفوَ الناس الذي أوصلنا معهم إلى حديقة ليست وسيعة انّما بدت منسقة وذات بعد جمالي مريح. حديقة يلتجئ إليها بعض من سكان عمّان ليصرفوا وقتاً يقيهم عوادم العربات التي تفتك بوسط البلد حيث وبيسرٍ ظاهر مشاهدة واجهات البنات وقد غدت سوداء. وقد حدث لي ما لم أتوقع. فقد أثرت ضحكة عامل الفندق عندما شكوتُ له أن ماء حمام الفندق غير نظيف، وأنه يترك طبقة سوداء على بشرتي بعد كل شوط استحمام. "أنتَ في عمّان، يا أستاذ. وفي وسط البلد. وكل من زاد سكنه هنا لأكثر من ثلاثة أيام يكتشف هذه الظاهرة. عوادم السيارات تنفث دخانها لتستحيل ضباب غير مرئي من سخام لعين يفتك برئاتنا ويفرض وجوده على ملابسنا وأعضائنا المكشوفة.".

بين حركة القادمين لذنا؛ وعلى مصطبة نهض منها رجل عجوز وزوجته جلسنا.

- في زمن الضياع يغدو الموت مجاناً.

- زماننا كله ضياع.

- الصابرون نفذ لديهم صبرُهم فاستعانوا باليأس أمنيةً للموت.

في حالة انهيار أعمدة الإحساس البشري واستحالة الصوان مادةً لهيكلةِ الأعصاب يصبح السلوكُ الهمجي من صفات القلوب الخرساء. وعند انهيار جبال الوجدان واكتساح الأرض بغيومِ جرادِ الحقد يغدو قتل الإنسان حالة لا تستوجب التساؤل... في منتصف ليلٍ كتيم طُرقت الباب . نهض ابن عمي صادق على إيقاع ضجر شرع يرتاده باستمرار؛ فقد اندلعت الحرب مع إيران. والحرب كما هو عُرفها تشبه التنّور. تريد حطباً؛ وحطبها مهج الشباب وتطلعاتهم البهية الطرية.

لأولِّ مرّة يساوره هاجسُ أنَّ الطرقات غير عادية؛ كأنها خربشات ذئب يضمر شرّاً. " فتحتُ الباب! ". قال ابن عمي. وجهان لشخصين توشحهما صرامة أعلماني بضابطي أمن كثيراً ما اقتحما محلنا التي تعلن لافتته المرفوعة فوق مدخله أنه محل مُرخَّص لدفن الموتى يسألان عمَّن قمنا بدفنهم في مقبرة السلام ذلك اليوم أو الذي قبله فنظهر لهم سجل الأسماء. يغرزان فيها عيونهم أو يطلبان نسخها، فيأخذانها ويبرحان المكان، مودَّعين بأنفاس الارتياح التي تملأ الصدور.

تلك الليلة كان حضورهما يعرض أمراً صارماً بدفنِ شاب يحمل اسم صباح. وصباح لا يتعدى الثانية والعشرين لكنه يعرض جسداً تهشمت اعضاؤه وانتشرت الكدمات تفتك بطراوة البشرة ونضارة الوجه الذي اقتلعت منه العينان. جاء الأمر بدفنه وتسجيله في سجلاتنا تحت اسم صباح.

غب مرور ثلاثة أيام جيء بشاب آخر يقارب عمرَ صباح يحمل نفس علامات التعذيب وقد خلا محجرا العينين من كرتيهما والأصابع من أظفارها. الغريب أن الاسم الذي طلب منّي تسجيله كان " صباح " أيضاً. والأكثر غرابة، وما جعلني أقرب إلى الصدمة ودفعني إلى حافة الجنون هو ما حدث بعد يومين عندما جيء بجسد شاب ثالث لدفنه واسمه صباح؛ ورابع بعد ثلاثة أيام وبنفس الاسم. ما هذا اللغز يا إلهي! ما هذه الحيرة؟ .. ذلك دفعني إلى الدنو من السائق الذي صار يألفني وآلفه وإلقاء السؤال الحائر.. وفي لحظةٍ كلحظة نزع النفس فاه لي بأنهم طلبة في إحدى الكليات في العاصمة وأنّ نميمة وشت بأن

قائدَ أحد التنظيمات المحظورة في الكلية طالبٌ اسمه صباح فلم يعرفوا مَن يكون تحديداً. فاعتقلوا احد الذين اسمه صباح. وتوالت الاعتقالات والإعدامات حين لم يحصلوا على ما يبغون إدراكه. كان عدد الطلبة الذين بهذا الاسم خمسة؛ مورست معهم أفانين التعذيب، وطبقت عليهم وحدة القصاص.

وكان الأمر سيغدو عادياً ويُنسى لولا أن جاء السائق الذي انشطرت في داخل ضميره ذرةٌ من النقاء فدفعته إلى أن يأتي إلى ابن عمي يهمس في أذنه ويطالبه بالهرب لأن الأمر سيصدر بسجنه واغتياله لطمر الخبر الذي سيغدو فضيحة إن انكشف... الهرب كان المنقذ الوحيد له؛ فهرب. ولكن السلامة التي ضمنها لنفسه لم يتركها لغيره فقد سجن إخوانه الثلاث وأعلن سجانهم أنهم لن يخرجوا ما لم يُسلِّم أخوهم نفسه. ولم تُجدِ التوسلات في انهم لا يجب أن يُساقوا بجريرة أخيهم فأعدم الإخوة الثلاثة. وكان على صادق أن يتوارى ليظهر في عمّان لاجئاً لدى مفوضية الأمم المتحدة لعذر إعدام إخوانه.

- وطن الفتك البشري. بلاد القذارة الحيوانية.

لم يكتفِ الجناة بقتل الإخوة إنما تجاوزوهم إلى أبناء العمومة. وكنتُ واحداً منهم.. القدر أخفى لي ابتسامةً ولو مقتضبة فهرَّبني عن عيون القتلة إلى هنا.. وها أنتَ تراني. ابن عمّي صادق رتَّب لي من ألمانيا مستلزمات هربي."

دفع أنامله إلى عمق جيبه مستخرجاً تذكرةَ سفرٍ بالطيران. "سأتوجه هذه الليلة إلى بودابست.. ومن هناك أدخل إلى ألمانيا عبر الحدود النمساوية. وبعدها سأكون معه.. سأبعث لك بشرى وصولي."

بسفرهِ خسرتُ مَن فكّرتُ أن يكون رفيقي في بحثي.. فقدت أملاً ولو بقدر بصيص. والأيام القادمة كشفت لي أنني وحيد؛ استقبل مسافرين في غرفتي يقضون يوماً أو يومين ثم تنبئُني اسرّتهم الخالية برحيلهم.

(٣)

في إحدى ساعات الحنين وأخواتها من الضجر أفضِّل استعادة بعض أجواء قَضَيتها مع عبد الرحمن؛ لذلك أول شيءٍ توجهتُ إليه هو البار الذي ولجناه يوماً. كان الوقتُ عصراً؛ وكان الحشد الزحامي الكثيف، والفوضى العارمة لحركة السيارات هما أيضاً من دواعي التوجه. رميتُ بنفسي في فم الزقاق الفرعي متفادياً حركة النساء المشدودة عيونهن للاكسسوارات المعلقة على الجدران التي تمثل دكاكين حائطية.

دخولي كان من باب التفحّص أولاً؛ فلربما أبصر عبد الرحمن جالساً وقد أرادها مفاجأة ولو أن ذلك من عِداد المستحيل؛ ثم اتخاذه مكانَ منضدةٍ يوماً ما جلسنا عندها تشاركنا الخلاسية حوارات الشوق؛ وتبثُّ علينا نظراتها المختلسة في محاولة إغواء نظراتنا لنسقط تحت أقدام جسدها المثير.

هي.. هي المنضدة التي جلسنا عندها.. وهي هي تلك الفتاة ما زالت نصف عارية ترسل نظرات غوايتها على الجُلاس وقد بدوا كأنهم لم يأبهوا. مؤكداً اعتادوا عليها، فهم زبائن مخلصون للقناني التي تنتصب أمامهم وليس لنظرات الإغواء؛ مفعمين بشوق الأحاديث التي

تخلقها ألفةُ اللقاء.

حين تلتقي أناس يأتونك من فيوض البساطة، وتراهم بكل براءة يعيشون قانعين بما لديهم. حين هامش الحياة يلفهم بدوامته فلا يفقهون للأيام من مرور. حين تقلب مشاهد سيرهم في طرقات العيش وتجد أن لا طموح مثير يدفعهم إلى اللهاث خلف المغريات الكبيرة.. حين كل ذاك يتمثل أمامك تتكفئ عائداً عن طموحات ارتأيتها أن تُطبِّق نجازتها ووجودها في حياتهم المتحركة على رمال لا تثبت.. حين أنتَ؛ وأنتَ ترخي ساعديك على متكَأَي الكرسي وقد تركتَ لساقيك أن يتهدّلا إلى الأرض برجاء أن تبدد حالةَ تعبٍ كديس في أنسجتها وجدت في وجوه الجالسين صحائف للحميمية، وقلت أنهم أخواني في الإنسانية؛ لا بدَّ أن لكلَّ واحدِ منهم قضية؛ لا بدَّ لأيٍّ منهم نجاة ضائعة، وإلاّ ما الذي جاءَ بهم إلى هذا القبو الدفين، والفضاء المعتم؟ وما الذي يدفعهم إلى أن يسكبوا مالاً ليس بالمتيسر جَنيه في بلدٍ كالأردن؟

نهض أحدهم، وكان رجل خمسيني وبصوتٍ هامسٍ كأنه يخشى أن يسمعه النادل أو ينتبه إلى أنه قد يؤدي حركةً تزعج الجُلاس فتتسبب في طرده أو اتهامه بارتكاب فعل اخرق.. قال:

– التاريخ يعيد نفسه مرتين.. مرَّةً على شكل مأساة، ومرةً على شكل مهزلة.

وجلس.. جلس بلا تعليق من احد. يبدو أنَ صحبه الثلاثة مَن كانوا يشاركونه المنضدة ألِفوا نهوضَه في مثل هكذا جلسات واستمعوا لأقوال تأتي بها زفراتُ همومِ الخمرة مستلَّة من ذاكرةٍ تائهة.

تذكرت أني قرأتُ مثل هذا الكلام؛ ولم اتعب الذاكرة في استخراج

قائله إذ سرعان ما نهض كارل ماركس من بين صورٍ تنام على احد أسرِّة الذاكرة التي لا أقر بتقهقرها.

بدا أن الكلام أثار شاباً يجلس وحيداً عند منضدة تتخذ من زاوية البار والعتمة موقعاً لمن يؤثر العزلة فنهض؛ وبلسان يريل:

- تبّاً له من تاريخ! بداوة.. ونيك! وأكل خراء لقرون.. متى ينتهي هذا القيء العربي؟. مسرنمون بأخطاء غيرِنا، ومتسربلون بأفراحِ لقطاء نُصبّوا أولياءَ لأمورنا.

تململ النادلُ المتكئ على حافةِ مقدمة البار؛ وأظهرَ صاحبُ المحل الذي يقف خلف البار نظراتِ عدم رضا. لا يريد للمكان أن يُنتهك بما يزعج الجُلاس؛ ويخشى في الوقت نفسه ردّة فعل القانون تجاه مَن ينتهك حُرمات فقرات لا يُسمح بانتهاكها. فأعطى إشارة بطرف عينه فهِمَ منها النادل أن يتحرك ليهمس في أذن الشاب أن ينهض ويبرح المكان قبل اتخاذ إجراء ليس في صالحه.

خشي الشاب من حفنة الكلمات التي سُكبت في مسمعه فدلق بقايا القدح من البيرة الراكدة في القعر .. دفع الحساب وخرج وسط نظرات مرارة الرجل الخمسيني وحَزم صاحب البار. فخذا الفتاة الخلاسية العاريان ونهداها النافران بمجونٍ آيروتيكي يشيعونه وقد غدا كتلة من غضب واحتدام.

تلك الليلة انصرفت بين خدر الجسد المشبَّع بمؤثرات ثلاث قناني بيرة من نوع الهنجر واسترجاع صور الذين فرقتهم الأيام نجاة وبشرى وعبد الرحمن ومبارك وكمال. ولم يكن لروّاد الفندق وحفيف خطاهم وحواراتهم السريعة في الممر الطويل من تأثير. تأتي صورُ متناثرة

لشريط أحلام أو كوابيس لا تعطي بارقةً لتحليل؛ والنزلاء لم أشاهدهم عندما دخلوا الغرفة التي يشاركونني فيها أسرّة الرقاد وتحدثوا لأنَّ النومَ سرقني قبل مجيئهم؛ والصباح الذي قدِمَ عرضَ عليّ خطّة بحث وجدتها لا منطقية ومجنونة وربّما معيبة تقضي بأن أدفع بجسدي بين الدروب والمنعطفات التي تؤمها النسوة لشراء ما يغريهن من ملابس واكسسوارات وأُجيل النظر للتملّي في الوجوه عن قرب فلربّما كانت نجاة بينهن وقد تغيّرت سحنتها بفعل مساحيقِ تجميلِ الوجوه والألوان التي تجاهد الباحثات عن الجمال والجمال المُضاف حيازتها، أو قد تنكرت بتغيير زيّها فارتدت ملابس للتمويه بحيث لا تلفت الانتباه.

وكان إن تلقَّفتني هذه الدروب ووجدتني ألجّ المحلات المزدحمة بالقوامات النسوية وسط غرابة البائعين الذين لم يألفوا مشاهدة الرجال منفردين لأنَّ مثل هكذا أماكنَ لا يقربها الرجال إلاّ مع زوجاتٍ لهم، وأولاد. هذه الغرابة ولّدت شعور التمني والرحيل بالخيال إلى استحصال طاقية الإخفاء، تلك التي تقيني استهجان الآخرين وامتعاضهم وهم يبصرونني اقتحم أماكن لا يجدر بأمثالي اقتحامها. عادت صورة بطل هنري باربوس في جحيمه الروائي وهو يعيش منفرداً نزيلاً في فندق يراقب من ثقبٍ أحدثه في الجدار متلصصاً على ما يفعله نزلاء الغرفة المجاورة وما يجري من حوار. تذكرته! لقد قرأته يوماً ونحن في حومة هياجنا العبثي قبل عقدين. كان لنا أحد رموز أبطال العبث والحياة التي يخلقها بتكريسٍ بعيدٍ عن تأثيرات البشريين. ففي صومعته / غرفته التي يتقاسم وشيئياتها التبادل الحواري الصامت عاش أهدأ اللحظات، ومتلصِّصاً يبصر تفاصيل السلوكيات والتعابير التي ترتسم على وجوه

نـزلاء الغرفـة المجـاورة وحـواراتهم وانفعـالاتهم وهـم يعومـون فـي أعمـارٍ متفاوتة.

لمـاذا عـادت تلـك الصـور وتكـرر تجسّـدها مـع تـوالي الأيـام حتـى غدت تعيش معي وأنا أرتكب سلوكاً تدريجياً يقلل من هيمنـة العقل على التصرفات؟! ولماذا أخذت غيوم الإحباط في العثور على نجاة تلوح من بعيد؟ وما الذي يجعل كلُّ عراقيٍّ أسألُه عنها يواجهني إمّا بحسرة طويلة تشبه لسانَ ريحٍ نـاري أو بـتهكم مريـر وسـخرية تريـد أن تنعتنـي بالبلـه لأنـي أبحث عن سراب من الجِنون العثور عليه والإمساكِ بـه؟!.. أين منّي هنري باربوس لأطرح عليه محنتي علّه يجد لـي منفذاً للخروج من عالمي العبثي الذي ولجته بيقين الوصول إلى مرفأ اللقاء ويضـع بيدي نجاة بلحمها وشحمها وأعصابها وأسرارها وعتبها الطويل؟

الأيام تأخذ درب اللهاث، والسماء تخلّت عن إغداق رحمـة تمسَّني ولـو بنسمةٍ اطمئنان هاربـة.. نجاة لا أظنها ستعيش بأمل حفرته على صـوان وعدها الأصيل يوماً؛ بينما شرعت ابتداءات ريحِ التغيير تؤكِّد لـي أننـي إنّمـا أبحثُ عن وجهٍ كان تـلألأ لحظـةً ثم انغمس فـي هجير الضياع ؛ وما نجاة إلا حلماً كانَ وقد انتهى. وما لـي من درب اختطّه سـوى درب الإقرار بالانتهـاء. فـلا شـيء يمكـن أن يصـنع المعجزة فقد تحنّط زمن المعجزات وغدا حكايـات تتـدثَّر بالأسطرة والقـول الخرافـي المثير للضحك ومنبت من منابت النسيان.

تلك الأيام تدفَّق أعدادُ العراقيين على عمّان وصار العيش في بلد الجحيم لا يطـاق. الوجوه الممصوصـة والملامـح الخاسرة رونقها وألقها وهدوءها تشي بـلا نُطق عن حجم الهول.. لقد صار النظام يُكثر من

ممارساته الردعية والتخويفية للناس وصارت ميلشياته التي اخترع لها عديد الأسماء والنعوت تمارس وسائل الرعب بوسائل التدمير: أمٌّ تُواجَه بزخٍّ من الرصاص فتُردى قتيلةً في الحال لأنها مَنعت زمرةً ترتدي اللباس الأسود والأقنعة التي لا تبان منها غير العيون من اقتحام بيتها للامساك بولدها الرافض لأداء الخدمة العسكرية لنظامٍ لا يجده يمثله / عائلات تُفاجأ بمن يدخل عليها من منافذ السطوح وهي آمنة للقبض عن زوج يخشى الحرب أو هو لا يقدر على أداء واجبات عسكرية لا يعرفها كان همّه أن ينهل من العلم ليكون منتجاً صالحاً لوطنه بعيداً عن مطحنة القتال وشعارات الفروسية الكاذبة يُساق بكل الأفعال الخرقاء مع الجموع المسحوقة بمطحنة التجنّي / رجل عجوز قوَّض الزمن قواه وأنهكها لكنه اضطر تحت وطء جلمود الجوع أن ينزل إلى الشارع يعمل حمّالاً يؤخذ ويرمى في حوض سيارة تجمع "المقاتلين" ليكونوا جيشَ القدس المنهزم أصلاً قبل الحرب وهو لا يدري قطعاً أين سيأخذونه ولا أهله سيعلمون أين أصبح رجلهم العاجز. ما الذي تقوله وأنت إزاء بانوراما الهول الذي يجري أمامك؟ ما الذي سيكون لو أنك بقيت من علٍّ تتفرج على الذبح اليومي المنظم والمُخطط له بآلية عقابية ناتجة عن نفوس شرسة لا تحمل غير ضمائر ميتة كانت تخطط للبقاء إلى ابد الآبدين غير أنها الآن ترى وعلى مرمى البصر هديرَ اجتياحٍ مدمِّر قادمٍ ليطيح بكل قسوتها الوحشية ووسائلها التدميرية ويعيدها إلى الاوجار النتنة التي جاءت منها؟ ما الذي ستفعله أيها الموبوء بالتطيّر والخشية من ضياع نجاة؟ ما الذي ستصنعه حيال ترجرج حال وارض تميد بك فلا تهبك فسحة من الاطمئنان؟.. البحث

اليومي صار لزاماً عليك أن تؤديه، لكنه بحث عقيم لن يودي بك سوى إلـى درب الآلام الطويـل وخسـارة العقـل المتعَـب الجهيـد. بحـثٌ دخـلَ متواليةَ الروتين فغدا أشبه ما يكون ببحث الفلاسفة عن ماهية الوجود، ينطلقون من نقطةٍ فيروحون يلفّون ويدورون ومن ثم يعودون إلى النقطةِ التي انطلقوا منها.

البحث، والقلق، والأمل، والألم، والمشاهدة اليومية للنزيف البشري الجريح القادم من الوطن الطعين.. الحزن والبكاء وتمزق الروح للمرأى المتدفق. الساعات المنصرمة على إيقاع الشعر الذي هرب مني بعدما وجّهتُ وجهي صوب البحث المضني. ذكريات اللقاءات والأيام الخوالي من قراءات، ونقاشات، وكتابات، وسفر، وعبّ خمرة، وإعلان تمرد، وكتابة بيانات لدحض شعارات تقهقر الفكر وتسيد السياسة وفوز السياسيين على المثقفين. السهر لساعات لا تعرف التوقف خارج البيت، واتخاذ الشوارع والأرصفة والمقاهي مسارح لحواراتنا، وصرف الوقت في العبث الثقافي الأقرب إلى الجنون كلَّ هذه غدت من عداد النسيان؛ متوقفة جماداً أو متحنطة زمناً لأنَّ موضوعة البحث عن نجاة صارت من عِداد الهوس الذي شرع يستحوذ على سلوكي اليومي وأفكاري التي شرعت تتجه نحو اللاتركيز. صرت لا أهتم بمظهري؛ وصار هاجس النظر في الوجوه وتخيّل أن كل مَن أقف إزاءها من النسوة تتمثل بشخص نجاة. بتُّ لا أستسيغ حديثاً مع الآخرين إن لم يأتِ على ذكر نجاة حتى ملّني مَن جلس معي في صالة الفندق فاصبح يتحاشاني، وهرب مَن التقيته مرة فأثقلتُ عليه بحكاية نجاة وضياعها والبحث عنها.

أخرج إلى الشوارع فاصرف الساعات؛ ولا أحصد من يقين الإدراك سوى شوك الخيبة. اهرع عند الغروب صوب الساحة الهاشمية لأندس في غابة الوجوه العراقية المحتشدة. هناك بمقدورك أن تشاهد العراق فتكتب ما تريد أيها الروائي؛ وترسم ما ترغب أيها الرسام، وتخلق ما تبغي أيها الفنان المسرحي، وتخلق ما تتمنى أيها الشاعر.. وأنت يا مبدر حدّق بوجوه من تشاء التحدّث معهم، فرغمّ أنهم مختلفون في الملامح والتقاسيم إلا أنهم متشابهون في اللوعةِ والألم.

أتنقلُ من مكانٍ لمكان؛ ومن تجمعٍ لآخر، أبصر باعة " الآيس كريم " يتَّخذون صفَ محلات الساحة التي هي مقاهٍ وكازينوهات وهم يلبّون حاجة طفل ألح على أمّه وأبيه أن يبتاعا له مخروطاً مثلجاً أو ألمح آخرين ينتصبون لالتقاط صورةٍ أغراهم مصور يحمل كاميرته ويدور بها بين الناس في توثيق ما يؤرخ الملامح بفرشاة ذكرى. أجوس مكامن الحكايات والهمس تبثّها الأفواه فتأسرها لحظات الليل القادم لالتهام بقايا حلوى النهار؛ واسمع من تطاير حديث مجموعة جُلاس اتخذوا من درجات سلّم يهبط إلى ممرٍّ يقود إلى فناء الساحة الهاشمية بساعتها المتعالية على برجٍ يتوسط الساحة عن افتتاح مقاهٍ للانترنيت في الشارع المجاور. رأيت احدهم يصف المكان ويومئ إلى موقعٍ قريب لا يتعدى عبور شارع.

أتذكر أن عبد الرحمن أعطاني قبل سفره عنوان بريده الالكتروني، قائلاً انه الوسيلة الأسرع للاتصال.

افتح بريدي؛ فاكتب:

"آ.. عبد الرحمن لا يمكن تدارُك الأمر. فانا اصرف الوقت هائجاً

مائجاً كبحرٍ مجنون.. أرى نجاة فأوشك أن المسها لكنها تخادعني كالسراب فأجد نفسي أمد يدي في هواء. تكاد اللحظة تطبق بكفّي هزئها على رقبتي لتنتزع أنفاسي. إنني اختنق.".

وفي اليوم التالي أهرع مندفعاً لأكتب: "صديقي عبد الرحمن هل كنت محقاً عندما قلت أن نجاة انشطرت فتماهت مع كل سحنة عراقية ولن تجد نجاة الفتاة التي أحببت؟ هل أنا مخطئ إذ اصرف الوقت الكافي لاهثاً في مضمار الخديعة والقبض على السراب الخديع؟! هل سُرقت نجاة حقّاً ووزِّعت هبةً للمتجنين والمنتفعين والطفيليين الذين لا يهمّهم سوى التلذذ بمتعٍ يريدونها لهم وليذهب الجميع إلى صقرَ؟"

تلك الرسالة كانت فاتحة بوح صريح وتعبير عن آهات حرّى ستستطيل بمرور الوقت لتعكّر بقايا أيام أعيشها في عمّان. آهات صارت تضيق وتتناسل في صدري فتجعلني اشعر باختناق لا يزيله سوى الخروج من غرفة الفندق وصالته وممراته نحو فضاء الشوارع. هائماً أجري يكاد يكون هدف الوصول إلى نجاة حالة من هوسٍ تتراغى فايروساته في عقلي المشوش التائه وقلبي العليل المكبل بأحزمة القتل الضاغط. جبل الحسين لففت شوارعه وفروعه ودروبه التي ليس من المبرر التسكع فيها، ولم يبق شارع من شوارع وادي صقرة إلا ودخلته. صعدت الباص إلى تلاع العلي وهبطت هناك امسح الوجوه والبيوت. اذهب إلى سوبر ماركت "SAVE WAY" فألجّه بحثاً بين القامات الرشيقة والملامح التي تبدو أكثرها لأجانب وأقلها لعرب جاءت لتبتاع من هذا المحل ذي الطابقين حيث الرفوف والمعارض تمتلئ بما تحتاجه البيوت من مواد غذائية وأثاث منزلي وملابس بأنواعها ولعب

أطفال والكترونيات وكهربائيات وشؤون مكتبية وكل ما يسرق فضول النفس ويأسرها . اترك لعيني تلتقط كل وجه وتحلل أيّما سحنة قد تكون استحالت قناعاً من مساحيقٍ تخفي صفاءَ وجهِ نجاة ونقاءَه الطفولي البريء.

وأعود إلى ملاذي الكئيب موشحاً بوشاح الخيبة ومُلاحقَاً بهتاف الخذلان فأبصر نزلاءَ جدداً اتخذوا أسرةَ نزلاء آخرين غادروا إمّا إلى حضنِ الزنزانة المهولة / العراق، أو إلى فم التيه المشرع الأشداق / الضياع. ولكن ما أن أرمي الرأس المثقل على الوسادة حتى تتناهبني خفافيشُ الأحزان وتلومني المفردات التي لا ادري من أين تنبثق؛ مُعيبةً عليَّ هدوئي وإغفالي لأمرٍ جلل يجب أن انتهي منه.. نجاة والنهاية المحتّمة. فأنهض على دوامة الجري الحثيث أو الذهول الجارف.

الأيام ترمي بثقلها على كاهل الصبر الذي شرع ينضب؛ والطاقة النفسية التي كانت لها قدرة التحمّل تأخذ مدّاً تراجعياً. الاهتمام بالمظهر وارتداء ما يفتح الآفاق نحو اغتراف زهو الحياة صار من عِداد اللاقبول؛ حتى أنَّ مَن يدير إدارة الفندق والعامل الذي يشرف على ترتيب الغرف والزبائن شبه الدائمين اكتشفوا ذلك؛ وباتت نظرات الإشفاق التي سبقتها نظرات من التساؤل في العيون ثم الحيرة تتَّسع وتكبر؛ وحتى مَن صار يُبصرُني لأول مرّة يظنَّ أنَّ مسّاً أو ابتداءات مسٍّ تعلن هيمنتها على المشاعر وما هو الا مشوارٌ، ليس غير، لامتطاء حصان الجنون... هل حقاً أنا مقبلٌ على أيامٍ من فقدٍ، وزمنٍ من ضياع؟!! هل ستكون خاتمة الحياة حكاية تتداولها الأفواه عن حالمٍ خسر العمر من أجل القبض على ماءِ سراب ظلَّ يخدعه بفضاضةٍ

وينتقل بـه مـن محطـة هراء لمحطـة هـواء؛ ومـن هـواء إلـى انتهـاء؟!.. تقودني الوجوه الضاجة بالبِشر لنساء فرادى ومجاميع..

فـي دوامـةِ التجلّـي والتطلـع فـي الوجـوه / التماسـك والتشـبث بالثبـات حدثَ مرةً أن ابصـرتُ فتـاةً تـومئ لـي. كانـت مـن بـين فتيـات أخريـات بعمرهـا تأخـذ بهـن أنسـامُ الفتـوةِ ودفـق الشـباب، وسـيل التطلعـات نحـو اغتـراف أمـواج الجـذل، وحركـة المـارة صـوب محـلات مزججـة تعـرض مصـوغات ذهبيـة نُسّـقت وصـففّت بطريقـة الغوايـة الباعثـة علـى إبهـار العيـون واستسـلام النفـوس، يُزيـد مـن حفاوتهـا والإثـارة المتفجـرة ضـوءٌ اصـفر مـن المعـارض وزواياهـا العليـا: قلائـد وأسـاور، خـواتم ودبـابيس جَهِـدَ الـذوقُ الرفيـع والصـناعة المتقنـة علـى إنتاجهـا لدغدغـة الذائقـة الحسية وثـورة الخيـال الجـائش المُحلّق تقـف عنـدها النسـاء الولوعـات بالإثارة، الساعيات انشراحاً لاصطياد العيون وكسبِ رِضاً مُرتجى.

تستدير الفتـاةُ صـحبةَ قريناتٍ لهـا يرتـدين بنطلونـات وقمصـان ضـيقة تلتصـق علـى أجسـادهن مطلقـةً للفتنـة ضـحكتها البهيـة ورافعـة للشـباب راياتـه البـاهرة .. قميصُـها قطنـي أبـيض اسـتطالت عليـه متوازيـة، كمـا الأغصـان، خطـوطٌ زرق وحمـر وخضـر تنتهـي هبوطـاً علـى بنطلـون جينز أزرق دكين يرفعه حذاءٌ رياضي، لدونتُه تمنح الجسدَ طاقةً للحركةِ الرشيقة.. تنعطـف والجـةً سوقاً فرعياً جميع محلاتـه تعرض مصـوغات بارقة.

ألحقُ بها وأتوقّف خلفها. أهمُّ بمخاطبتها. تلتفت بطريقة مقصودة؛ فـإذا هـي نجـاة بملامحِهـا الـودود وضـحكة عينيهـا المميـزتين، رائقـة منفتحة... أين أنتَ، يا مبدر.. ما هذا الغياب الطويل. ماتت شموس،

وأفلت أقمار، وثارت زوابع، وهمدت أعاصير وأنا أنتظرك.. وأنتَ الغائب، البعيد.".. "لا.. لا أصدق.. نجاة.. آآآآ.. أحقاً ألتقيك؟!.. ماذا تفعلين هنا، وكيف تركتِ أناسك هناك؟.. أبوك العاجز وأمك وأخوك يتأملان في قبرهما زيارتك.. لماذا أطحتِ بالأحلام الكبيرة التي بنيتها في غربتي، وشيدتها لتستحيل واقعاً تستحوذين عليه وتسيّرينه مثل أميرة.. نجاة تعالي، سأشتري لك أغلى الأساور تحلّي معصميك وأغلى قلادة مطعمة بالشذر الناصع يتراقص ضوؤه على صدرك.. تعالي! اختاري أجمل الأقراط وأحلى الخواتم.. أشيري لأيةِ مصوغةٍ تثير رغبتك في الاقتناء.. تعالي، يا نجاة.. هيّا..

فتاةٌ امتلكت رباطةَ الجأش وسيطرت على البهَت الذي غمر وجهَها، مثلما صبرت على اندهاش الصديقات المصاحبات. وبهدوء يساوره الاتزان قالت: ما بك يا رجل.. أنت تهذي.. أمحموم، أم شيء ما يفقدك توازنك؟!"..

طارت فقاعة الحلم.. جاء الواقع.

أقدمُ اعتذاري، وأرجو السماحة.

لم تطل الفتاة وقوفها إزائي. سحبتها صديقاتها تاركةً صدى ذهولها وحاصدةً سهوب خجلي.

تعود بشرى بعتاباتها ورجاءاتها وامتعاضاتها من تصرفي البدوي الذي لا ينزع إلى التغيير.. تعود على موجة ذكرى سافحةً دمعتين نزلتا كدرتين على استباحة خديها السمراوين المدورين:

- الرحيل شمالاً منقذنا، يا مبدر. والبقاء تصمغاً اندحارنا.. هيّا دعنا نطير. لنخلّف البراري والصحارى العربية والهجير البدوي الذي

احـرق أسـلافنا.. بلـدك ينهـار وبلـدي صـار مرتـع للضـياع. انـتم فـي حصار وجور وانتقام، ونحن في فقر ودعارة وانتهاء.. لنطير إلى العالم المخلِّص؛ أجواء الإنسانية الحقَّة.. لا تكن بدوياً حد السخرية.. العرب انتهوا من حيث انتهت الدولة العباسية، والإسلام مات من ساعة صار مطيـة للعثمـانيين.. الكل ينفخون فـي جسدٍ ميت ويتبـارون زيفا علـى يفاعتـه وشـبابه لا يريـدون أن نكتشـف خدعـة عمرهـا قـرون. لا تغـرك الأقـوال الكاذبـة بكبرنـا وعظمتنـا وفحولتنـا ومقـدرتنا علـى تغييـر اتجـاه البوصلة.. هيّا!!

وأنتفض كالمصعوق فأصرخ بما يشبه النوبات المداهمة: نجاة!!.. نجـاة!!

تعود نجـاة ببراءتها وشوقها ونظراتها المسافرة، وأنا أمرر أصابعي علـى عنقها وأدفن رأسـي بين نـهديها المنتفضين لحظـة كانـت مستلقيةً علـى ظهرهـا يضـمها سـريري الـدافئ وقـد قـررت أن تهبنـي كـل شـيء عندها من اجل كل شيء عندي. صدرها يعلو وينخفض:

– كُل؛ لعلَّ المذاق يعلق فـي ثنايـا روحـك وأنـت بعيد فـأكون إلـى جانبك حاضرة كأريج يلتصق بك.

ها أنتَ في عمّان؛ وقد خسِرتَ بشرى وضاعت منك نجاة.

ها أنت في هذه المدينة التي غدت ترسل قهقهاتها ساخرةً منك مرة، ومرات باعثةً حسراتها تأسياً عليك.

اذهب إلـى أقصـى متاهـات حـرق الـذات، وتلظّـى علـى أتـون جـرحٍ لاهب علَّك تحقق فرصة انتشاء مازوشية تغدق عليك جذوة الاحتضار المُرتجى.. دعْ زوارق الـروح ترحل علـى هدي خليج صـامت يلقـي بـك

في متاهة بحرٍ فقد بوصلة الحدود؛ أنتَ الذي كنتَ تردد بوح أبي العتاهية: "لدوا للموت وابنوا للخرابِ // فكلكمُ يصيرُ إلى ترابِ" معتمداً أيقونة الوجود كاعتراف أنَّ كلَّ شيءٍ جاء من زوالٍ سينتهي إلى زوال، فيتولَّد شِعرُكَ سابحاً في خضّمِ الإبهام، ونثرُكَ يواجه ملامحَ حيرة المتلقين.

*   *   *

لم تطل دوّامة البحث؛ ولا المحاولات استمرت.. فقد حدث الذي قلب الموازين؛ وكشف الهول الذي كنت أعيشه ويعيش به السائرون في درب البراءة وسط غابةٍ من الرياءِ والدهاءِ والسفه، وسحق المشاعر، وتفضيل الذات، والتغاضي عن ردود فعل الضمير، ونسيان حساب الوجدان، واستبدال الفضاءات النقية برائحة المستنقعات؛ وزرع المنعطفات الحيية بما يقض مضاجع الهناء، فيما الغبنُ غيمةٌ داكنة فوق رؤوس المتطلعين لعين الشمس، والحيفُ سيفٌ يحوم متوعداً الرقاب المشرئبة لآفاق الخلاص.

حدث ذلك غب الأسابيع التي مرّت ثقيلةً والأيام التي كانت ساعاتها تتحرني بسكين نضوب الأمل. حدث في ساعةٍ قال فيها الزمن كفى لعباً على أعصاب مخلوق تائه، وحالمٍ متعثر، وشاعرٍ مسكين. فدفعني في هنيهة شَدَهٍ إلى الدخول لإحدى مقاهي الانترنيت التي فُتحت حديثاً اطَّلع على بريدي علّني أجد رسالةً من أحد تذكّرني في ضياعي أو واحدة قدِمت خطأً، أو حتى مَن أراد مشاكستي بدعابة صغيرة..

وأجدني أقف متسمراً!!

المفاجأة تُعلن دهشتي وفرحي في آنٍ. فقد كشف " الإيميل " رسالةً أعلمتني بها الشاشة الضوئية؛ وأنبأتني أنها من عبد الرحمن..

أضغط زرَّ فتحها؛ وأقرأ:

"" صديقي مبدر.. وصلتُ إلى لندن؛ لكن وصولي ظل موشوماً بالجزعِ لأنني تركتك وحيداً تبحث عن نجاة. ولم أبحْ لك بسرِّ الحسرة والألم.. لم أشأ اطلاعك لئلا أفسد فرصة لقائي بك؛ ولكي لا أصدمك من أولِ حوار.

لقد بحثت قبلك عن نجاة.. سألت عنها واستفسرت.. مشيت باحثاً وجبتُ متوتراً حتى اهتديت إلى بؤرة الألم القاتل وأضفتُ جرحاً دامياً إلى جيوش جراحي التي خلَّفتها وراء سواتر مجابهة الزمن والحسرة القاتلة.. ولكي أختزل الجّهد عليك وأضِّئل مساحةَ البحثِ الذي ستصرفه وصولاً إلى اليقين لمشاهدة نجاة أقول الآن بمقدورك مشاهدتها؛ مع أني لم أكن راغباً بأن أجرحك بالنتيجة التي ستصل إليها، لكنني اكتشفتُ إصرارَك على ملاقاتها... أرجو أن تجنِّد كل طاقتك وثباتك إزاء ما أفشيه إليك الآن... حين يحل المساء وتمر بضع ساعات منه تهندم جيداً حتى لتبدو شخصيةً سياسة أو رجل أعمال ثم استقل سيارة أجرة؛ اطلب من سائقها أن يقلك إلى تقاطع "الكاردن" وعندما تضع "السيفوَي" خلفك. ادخل شارعاً ستراه عريضاً تصب فيه يميناً عدة فروع.. اترك الفرع الأول والثاني والثالث ثم ادخل الرابع. وهناك سترى سوراً طويلاً ممتداً تنير أفريزه مصابيحٌ صارخةٌ وسياراتِ صالونٍ فارهة عديدة.،، وعند الباب العريض الذي يتوسط السور ستجد المفاجأة. تظاهر بأنك عربي أو أجنبي لا عراقي؛ نعم لا عراقي،

وادخل..

هذا كل ما أريد الإفصاح به إليك.

لا أقدر على مواصلة الكتابة أكثر. تولّى التالي أنت؛ وثقتي كبيرة بقيامك بباقي المهمة ...

هناك ستجد نجاة.

عبد الرحمن..

لندن"

ماذا يقول هذا الرجل المجنون؟!! وكيف له أن يدبّر هذا المقلب ليتلاعب بأعصابي من اجل حفنة من الضحكات يطلقها من فم عملت جدّية الغرب وصرامته على أن لا يبتسم أو يقهقه؟!! ما هذا الكلام الخارج عن المألوف والباعث على السخرية؟!!.. كيف لعبد الرحمن أن يعرف عن نجاة ولم يخبرني حين كان في عمّان؟ ولماذا يحسبها صدمةً لي لو كان يعرف مكان وجودها؟ ألم يكن على الأقل كيّساً بحيث يستدرجني إلى مكانها شيئاً فأشياءً؟!! ثم لماذا لم يتصرف هو لانتشالها وإعادتها إلى أهلها المنتظرين؟!... هذا رجل كتب هذه الكلمات من بارٍ في واحدة من مواخير لندن الضاجَّة بصخب الجلاس وثمل ثقيل دفعه إلى اختلاق سيناريو تائهٍ بين لحظات فقد التوازن ومرارة الشعور بالعجز، بعيداً عن الوطن. وأنا رجلٌ أجد في هذه الرسالة ما يستفزني ويرميني في هوّة الدمار والانسحاق لكني أميل إلى عدم ايلائها الأهمية. فلو كان عبد الرحمن واثقاً من مكان وجود نجاة لِما تركني حائراً في دوّامة عمّان وأعاصير الغثيان الذي تلفَّني، ولِما جعلني أتيه في ليل الانتظار بلا قمرٍ يضيء ولا نجمةٍ أستدل منها

وبها.

اكتب ردّاً وأمطره بسيل عتاب على حفنة معلومات قد تكون جاءت من وحي الخيال.. فيردُّ واثقاً، والكلمات تقطر جديّةً يصاحبها التوجيه المستحم بالنصيحة الصادقة، لكأنها قادمة من مُعلمٍ حكيم لتلميذ نقي؛ يدعوني للذهاب للمكان الذي وصفه في رسالته السابقة وفي حلّة وهندمة عاليتين:

"لكي تكون في هالةِ التقدير وفي مَحاق الاحترام عليك ببهرجة المظهر وتصنّع الفخامة الشخصية فنحن في واقع قميء مصاب بعصاب الشعور بالخذلان والضعف الذاتي والرداءة البالية؛ فهو يولي للمظهر اهتماماً على حساب الجوهر، ويعطي ثقته للسراب بينما يتطير من قدوم الماء.. عليك وأنت تترجم هذا القول بغية الوصول إلى نجاة أن تتهندم لأنَّ مَن ستواجههم أو تمر بقربهم من شرائحَ تقيس الشيء بظاهره لا بعمقه".

ولأنَّ الرد جاء مؤكداً وأكثر جديّة وثقتُ بعبد الرحمن.

هذه الثقة دفعتني لمبارحة الفندق بعدما دخلت في حوار استفسار مع مدير الإدارة عن أفضل محلٍ لبيع البدلات الرجالية، وأفضل معرضٍ يبيع الأحذية، وأمهر حلاّقٍ يؤمه الفنانون كزبائن دائمين من أجل وسامة وجه يبعث حالة تقبُّل وانبهار.. يجب أن اتقمَّص شخصية لا تمت لشخصيتي رغم مقتي لأولئك الذين أشاهدهم يُطلّون من الشاشات أو يتصدرون واجهات الصحف. فمن عيونهم تتشظى شواظ الدهاءِ والكذب والخديعة والزيف، وشراذم الشر، وشظايا المقت، وبثور الحقد والأنانية البغيضة.. أولئك القادمون من مواخير الفقر والجوع

والضياع والعيش على فتات أرباب عمل ودهاءات سياسة، والتواءات جاسوسية؛ فقدموا بكل اندفاعاتهم من أجل التسلق على قهر البسطاء الانقياء، والارتقاء على آهات وأحزان المقموعين وجماجم المضحين الذين انطلقوا بجديّة لخدمة أهداف نورانية وضّاءة تشع على الأوطان العزيزة، والجغرافيات الأثيرة، والشعوب التي أحبوا.

* * *

الوقت مساء..

عربة الأجرة التي أقلّتني؛ والسائق الصامت الذي قضى يقتنص النظرة الخاطفة يلقيها على مظهري المتأنق؛ والطريق الذي بدا يُلتهم عبر المنعطفات والمحلات الهاربة بفعل الانطلاقة الخاطفة لمهارة السائق هي التي جعلتني عند المكان الذي طلبت:

– هذا التقاطع الذي تقصد يا سِيدي..

على هدي التوصيف الذي كتبه، وبحاسة التنبّه التي أججَّتُ منحتُ لخطواتي الثبات ولداخلي الثقة.. الشارع الذي دخلت يرتفع تدريجياً؛ فارغ إلا من امرأة أربعينية مهندمة تصاحبها صبية لها جديلة هادلة خلفها؛ وثمّةً نورٌ يدلقه مصباح يكشف عن وجودٍ أدركت حين وصلته أنه "سوبر ماركت" مصغَّر. وبتجاوزه وجدت نفسي عند مفترق طريق ارستني نظراتي الباحثة يميناً على صف سيارات مبهرجة وبنايةٍ كالتي وصفها عبد الرحمن.

ها أنذا أخطو إذاً كما لو كنت أمثّل دوراً سينمائياً..

طريق تعمّه النظافة ويتراقص فيه الصمت. حدائق تطل أشجارها

من بيوت تتسم بالفخامة والحياة الأرستقراطية.. الرصيف تتعرج عليه أوراق متساقطة بفعل هبوب نسيمي جاءت به لحظات الغروب.. المُخرج غير موجود.. الممثل يتحرك.. السيارات تشكّل صفاً؛ إذ يجتازها يجد نفسه أمام بابٌ حديدي وسيع، وحديقة يانعة خضراء ممر مرمري تتوزع على جانبيه أعمدة متوسطة الطول تنتهي بانحناءةٍ يتدلى منها مصباح شمسي يهمي ضوءً مدراراً. الممر يختم نهايته بثلاث درجات، وما بعدها بابٌ ساجي عريض انتصب على جانبيه شابان رشيقان. الداخل يشير إلى بهرجة من الديكور المميز والأثاث الرصين فيبدو كما لو كان صالة فندق أُعدَّ خصيصاً لنزلاء لهم طريقتهم الباذخة في الحياة.

المخرج غير موجود لكنَّ ثلاثة أنفار كالسحالي مروا من أمامك ولم يتكفّلوا بإلقاء التحية إنّما نظرة فاحصة سكبوها على قوامك واجتازوك داخلين وسط تحية فيها ابتسامة وانحناء من قبل بوّابَين ظهرا بسحنات عراقية وغموض دفين. ذلك ما جعلك في حالة من اتزانٍ أكثر وخبرةٍ أكبر.. فدخلتَ والجاً، ملقياً تحية بلهجةٍ تونسية كنتَ تعلَّمتها من زياراتك العديدة لتونس، حاصداً ابتسامة وتحية الاثنين اللذين اطمأنّا لك بعد ما سمعا كلاماً لا يمت للهجة العراقية كاشفةَ الأسرار وفاضحةَ الهوية؛ مُطلاً بنظرات على المكان، ومُشاهِداً جُلاّس كالقنافذ يتّخذون أرائكَ جلدية سوداء فخمة، يتطلعون في المكان كما لو كانوا يدخلونه لأول مرّةٍ؛ تماماً كما تفعل أنت.. ما يلبثون أن يدخلوا في أحاديث متقاذفة. فيحصد سمعُكَ مَن يتحدث اللهجة المصرية، والسورية، والتونسية، والمغربية، والفلسطينية، واللبنانية، واليمنية، والإماراتية،

والأردنية.. وآخرون يرطنون بلغات أجنبية..

فيهم السُّمر والشّقر ومحمرّو البشرة..

فيهم الأفريقيون والآسيويون والأوربيون..

الدهشة، والعجب، والذهول، والحيرة، والتساؤل، والتردد، والتداعي .. كل هذه امتزجت في بوتقة عقلك فأثارت فيك القلق.. تُقدَّم لهم كؤوساً ملأى بسوائل خمّنتها عصائر فواكه ومتنوعات نبيذ؛ يحملها نُدلٌ عراقيون يتحلّون بصفات الندل المتدربين في أرقى الفنادق العالمية.. يرتشفونها بلذَّةٍ مَن كانوا في حفاوةٍ تشبه حفاوة الأفلام؛ يدخلون حوارات مبتسمة وضاحكة..

مشهدُ جذلٍ غريب؛ وصورةٌ باعثةٌ على الحيرة.

الذي فجَّر لديك مكامن الحيرة والغرابة وكاد أن يجعلك تقترب من احدهم لتسأله عمّا يحدث هو نهوضهم واحداً بعد الآخر كالعجول، وبشكل أقرب إلى الطابور الجالس المُنتظر. فما أن ينهض احدهم ويذهب داخلاً عبر بابٍ، وخارجاً بعد وقت حتى ينهض عِجلٌ ليدخل عبر نفس الباب.

الذي أدهشَ دواخلك وفاقم حيرتَك هو ملاحظتك لهم يخرجون كما لو كانوا قد دخلوا حمّاماً ليتبولوا. يخرج احدهم تشغله حركة شد بنطاله وتعديل هندامه!..

ولكي تزيح جبالَ الشكوك التي تراكمت على بطاح ذهولك تنهض بمجرد مشاهدتك لأحدٍ يخرج فتدخل بذات الأسلوب الذي فعله مَن كان قبله؛ غير مكترث للذي نهض ليتخذ الدرب.

دخلتُ الممرَّ بخطى واثقة وبفخامة تثير الاهتمام فوجدت نفسي أمام دنيا هول، وموقف لا يمكن أن أنساه بعد انجلائه ..

وجدت ثلاثة رجال منتصبين يقفون بذات السحنة العراقية والغموض الدفين عند بابٍ بلون الدم الجامد.. هم الذين يواربونه أو يغلقوه.

لم يكن الدافع لعدم النسيان ما يفعله الرجال إنّما ملامحهم التي ولّدت لديَّ قلقاً شرع يكبر ويتفاقم عبر الخطوات القليلة التي لا تزيد على أصابع اليد.. ملامح غليظة لرجالات كنّا نراهم في وطننا يلفُّون الطرقات في عربات مريبة، ويتخذون مكاتب محامين ومهندسين وبائعي عقارات ومنجمين في مواقع مهمة لبنايات تطل على أسواق وشارع مدن البلاد.. ملامح لأناس جلفين؛ ريفيٍّ البشرة. القتلُ لديهم فعلٌ يومي والجريمة مبعث فِخار.. ملامح تزرع في نفوس الناس الرعب القاتل المختلس.

هاجموني بنظرات غريبة تقطر شكّاً بملامحي، انتصابي أثار فيهم التوفز فراحوا يحللون مسببات وجودي هنا وكيفية وصولي بهكذا يسر.. سريعاً أدركت احتمال شكّهم بي كوني عراقي. ذلك يعني أنني سأنتهي بلحظةٍ؛؛ فعاجلتهم بتحيةٍ ترتدي لباس اللهجةِ التونسية التي أتقنتها بفعل سفراتي العديدة إلى هناك؛ ما جعل أساريرهم تتفتح، وتعابير وجوهِهم تسترخي فيتفوهون بعبارة:

- "تفضل، مرحباً بك"..

الفضول ما زال يركبني حتى وأنا أزجُّ بوجودي في أتون درب سيكون المَحقُ قراراً قاطعاً بمجرد اكتشافي. وكان الفضول يومض

بتساؤل يأتي كالنبض: ما علاقة هذا المشهد الفيلمي الذي يبدو كأنه مقتطع من مغامرةٍ جاسوسية أو فخ بوليسي بنجاة؟.. ولماذا دفعني عبد الرحمن لهكذا تهلكةٍ، الخروج منها سالماً أقرب إلى المحال؟

- تفضَّل.. تفضَّل.

فتحوا الباب!!!

هل كانت بوابة الجحيم أم الدرب إلى الفردوس؟

هل هي الباب التي تنده بالمسحوقين المقموعين: هلمّوا إلى فضاء الانعتاق السرمدي أم هي البرزخ الذي يؤدي إلى تخوم الجحيم؟

هل أنا في حلم لذيذ أم كابوس أرعن؟

وأنا أضع أولَ خطوةٍ بعد أن أغلقوا الباب ورائي وغدوا خارجاً أقف متسمراً أتملّى مشهد الغرفة الوسيعة ببهرجةٍ أقرب إلى مصافي اللامعقول... جدران لميعة تمتص الأنوار الساقطة من ثريات تتصارع بأنوارها الضاجة وترميها في الفضاء المعطّر بروائح سحرية شبقية نافرة.. ستائر رهيفة لنوافذ عريضة حجبت العتمة في الخارج وتجلّت تعرض انسيابيتها الحريرية الهابطة إلى الأرض المغطاة بفراشٍ مَخملي يُعيدك إلى أمنياتِ الدفء ساعةَ الزمهرير القارص.. سريرٌ فارهٌ ترتكز على قوائمه الأربعة أعمدةٌ ترفع قماشاً حريرياً شفيفاً كناموسية تتباهى بفراهةٍ تفجر الرومانس في أقسى القلوب وترخي أصلب العقول تحجراً..

أكان أولئك الذين سبقوني قد دخلوا هذا المكان بعينه فتمتعوا بهذا الفضاء اليانع وهذه الجغرافية البهية؛ لاعقين بألسنِ ضفادعٍ شهد هذه الأشياء الشهية؟!

أكانت جماليات اللحظة التي ينهلون منها هي التي تركتهم يبرحون

المكـان فـي حالـةٍ أفقـدتهم حسـن هنـدامهم فخرجـوا يعيـدون ترتيـب مظهرهم؟!

أكنت أنا في خِضمِ تشوّشٍ واضطراب بحيث خُيّلَ لي أنهم كانوا متجردين من حسن المظهر؟!

لم يكن الذي جاء خطفاً مرّ على بالي.

لم أتساءل وماذا بعد.. ومن يكن على السرير؟.. لم انتبه إلى أنَّ عليَّ أن أكمل استطلاع المكان. فأشهد إن كان السرير فارغاً أم ثمّة من يتواجد عليه؛ لأنَّ الأسئلةَ السابقةَ هي التي استحوذَت بمحتواها فرمتني في هوّةِ الشَّدَه.. لكنّي ما أن تقدّمت لأكمل مشهدَ النظر حتى تسمَّرت أنظاري على جسدٍ أنثوي، ممددٌ، عارٍ، منهكٍ.. كأنّهُ عليل.

صرخت ملتاعاً:

- مَن...؟!.. آآآآآآآآآآآ.. مَن أنتِ؟!"

الصوت ضاع في هوّة العدم، وامتصّه الهيولي الشسيع. لأن الحنجرة انمسخت والذهول صار سيّد المكان.

كانت نجاة!!!

نعم!! .. كانت نجاة .. هيّ.. هيّ!! خاوية، منهصرة، ذاوية، تعبى، عَجفاء، مرتبكة، منهارة، كسيرة، جزعة، ملولة، كئيبة، مضطربة، منعزلة، مستكينة، حزينة، ذليلة؛ شاحبة الوجه، ذابلة الجفنين، جفيفة الشفتين، رعيشة الأصابع، ممصوصة الجسد، خاوية الفخذين، ضامرة البطن؛ نهداها ليمونتان معتصرتان منكمشتان؛ عيناها بحيرتان متكدِّرتان. ليس لها طاقة للنهوض، لا قدرة لها على النطق... وحيدة، جريحة، مفككة.

لم تظهر اندهاشاً وهي تراني!! بل أظهرت جزعا!!

لم ترفع كفّاً للمصافحة!! بل فتحت أبواب الدمع الدفيق!!

لم تقل تعالَ لاحتضنك شوقاً وافتقادَ أنفاس!! بل قذفت رسائلَ من نظراتٍ تترى تُترجم عُظمَ الهول!!

لم تسألني محتارةً كيف دخلت!! بل تساءلت خوفاً كيف سأخرج!!

لم تطلُب قبلةَ اللقاء!! بل ترجّت ساعةَ الخلاص!!

ولم اسمع منها غير عبارة: أغثني.. أنقذني.. إنهم يبعثرونني قصداً في قتلي، وتخطيطاً لضياعِك "؛ ثم ملخَّصاً عن إجبارها ترك البيت وسط نظرات الأب الخنوع غير القادر على فعل شيء من باب الاحتجاج على الأقل ذلك أنّه أعرف بأفعال عريان عندما ينتقم!!!

عندما تجرحُك مخالبُ البغض، وتنشب في لحم كبريائك تاركةً رعاف الدم وردياً ينزُّ بألم يغور حتى الشغاف.. عندما الوردة تنهشها أصابع فضّة لقميء لم يعش إلا على روائح مياه المجاري العفنة.. عندما يداهمك إحساس بأن الذي تعيش قرب دهائه الذئبي ودواخله المزدحمة بالتآمرات.. عندما تكتشف هذا وذاك لابدَّ أن ينتفض ذلك العملاق النائم الذي في أعماقِكَ ليخط سِفر التضحية، وأسطورة الشجاعة، ومعالم الإقدام.

لا أدري مَن الذي صرخ انهضي لأحملك وأخرج بك.. ولم أفقه مَن الذي توجه بنظرات الرعب إلى أعلى الجدار الجانبي فأظهر صورة عريان مُقطبَ الجبين وابتسامةَ القوادين تقطر من فمِهِ المائل اعوجاجاً، كما لو كان يسخر من نجاةٍ ويهددها بسهام الفتك إن هي أثارت غضبه فيما يعرض بشاشةً للذي يدخل كل لحظةٍ لافتضاض عفّتها.

ترجتنـي الخـروج بالهـدوء الـذي دخلـت لمخـدعها المُنتَهَـك خشـية اكتشـافي والبطش بـي أيّما بطش؛ وطـالبتني بعهد السعي لإنقاذها رغم أنها كانت تخوض في بحر الشكّ من أن يداً قدرية ستنقذها. لقد هزِئت عندما قلت لها فوّضي أمركِ لخالقك فهو الوحيد القادر على إنقاذك وما نحـن سوى محـاولات. وكـادت أن تطلقها قهقهـةً يفجرهـا البكـاء عنـدما أعدتُ عليها قولي بطلبٍ منها. طلب دافعة رسم السخرية .. رأيتها تستهين قائلـةً: لقد فشلَ منذ زمـن عـن مقارعتـه! وأنّـه يخشـى عريـان ويخافه؛ بل يرتجف عندما يأتي اسم عريان على مسمعه. فلو لم يكن يخافه لقضى عليه منذ زمن بعيد وجعله عبرة مثلما جعل غيره في أساطيره الأولى.

أدركتُ عمقَ الخيبـة التـي تتراغـى فـي دواخـل نجـاة فتـدفعها إلـى السخرية وبهذا القدر من التهكم المرير! وتساءلت: كم هو حجم الألم الذي مرت به فجعلَ منها مخلوقةً يائسة بائسة تبيع إيمانَها بسهولةٍ لا يمكـن تصـورها ! ومـا مقـدار التمـزّق الـذي فتـكَ بروحِهـا النقـي حتـى أوصلَها إلى هذا الدرك من الكفرِ القاهر؟!

آآآآآآآآآآآآ......

لقد كـان عبد الرحمن مُحقّاً عندما أخفى عني تجسيم هذا المشهد الذي ربما؛ بل مؤكدّاً أبصر تجسيده بنفسه. أدركت الآن لماذا أصرَّ على أنْ أنسى نجاة متعللاً بأني غير قادر على البحث عنها والوصول إليهـا وإنقاذهـا.. هـو يـدري أن "عريـان" لا ينـي يسـتخدم أقـذر الوسـائل تـدميراً لتحطـيم مَـن يسـعى لانتشـالها مـن محنتهـا. فتركهـا حرثـاً لـه ولأتباعـه؛ وصـار يـوزع عفّتهـا بـين المنتفعـين الـذين يمجـدون كرمـه

فينهالون نهشاً بنقائها وبراءتها. نصَّبَ من نفسه داعيةً لأولئك القادمين من أوجار المسوخ عبر قرون من السحق البشري وقتل الآدميين لتحقَّ عليهم اللعنة البشرية والمقت الإنساني وليغدو منابتَ تقزز ومنابعَ روائح كريهة تهرب منها النفوس الرخية الرهيفة التي تستحم بعسل ورود البراءة وتعوم وسط نسائم بحر النقاء.

تتلقفني "مقهى العاصمة".. تضمني طاولة.

أمامي التلفاز، والشاشة تعرض فضائية Ann وبرنامجاً سياسياً يديره سامي فرج.. مذيعٌ خمسيني العمر يقدّم برنامجه المكرس للشأن العراقي. والشأن العراقي صار حديث الإعلام بصفحاته الفضائية والصحفية والمجلاتية.

أحداث أيلول ٢٠٠١ قلبت الخارطةَ السياسيةَ الدوليةَ.. أمريكا التي كانت حريصة على ثبات الأنظمة العربية وإبقاء حكّامها القُساة كأدواتٍ لفرض النظام على الشعوب الرازحة تحت منظومة تعود لقرنين إلى الوراء تسعى الآن وبستراتيجية انفعالية بعد أنْ صحت من هول كارثة تدميرية صنعها أناسٌ لا يعرفون غير القتل الجمعي مساراً للغايات وامتطاءِ أيّما وسيلة تحققُّ النوايا، متكئين على آياتٍ يفسرونها إباحةً للقتل بدمٍ بارد؛ بلا تردد!.. بل بارتواء.

في البرنامج كان احد المتصلين يخاطب المشاهدين عبر مقدم البرنامج فيقول: "إنني اسكن جوار القاعدة الأمريكية في ألمانيا، وإننا نبقى ساهرين طوال الليل على هدير طائرات عملاقة تنقل أسلحة واعتدة بكميات هائلة باتجاه منطقة الشرق الأوسط." ثم يعلو انفعاله ويصبح كالصراخ: "إنها استعدادات لحرب عالمية ثالثة ستبدأها أمريكا،

وليست لإسقاط نظام متهرئ، خائف وخنوع."

الوقائع تتجمع!

السياسات يلتقي بعضها؛ وبعض يتصادم .. عيون الجُلاس تتصالب على المذيع والمحاور. تنصت إلى الأصوات المتصلة من دول ومدن بعيدة. يلتفت احدهم إلى صاحب المقهى يطالبه بتغيير القناة فيما عراقيون يبدون امتعاضهم لهذا الطلب. إنهم في رغبة المشاهدة والتحليل ؛ يتابعون كل ما يمت إلى الوطن بصلة.

أنهض! وعلى خضم القضايا الوفيرة الصاخبة في رأسي اخرج، متخذاً السلم نزولاً. الناس في حركة دائبة كعادتهم. كأن شيئاً لا يعنيهم؛ وأنا العراقي أتحرك على وجيب قلبٍ متعب، متهالك، وصدغٍ تنقره معاولُ القلق والكدر.

شرعت الأخبار المنقولة عبر الإذاعات والفضائيات والصحف والمجلات تطرح بواكير نقاشات تجتمع وتفترق، ثم تتجمع من جديد تحلل وتقّيم . تضع اعتبارات واحتمالات في ما إذا كانت ثمة حرب واقعة فعلاً أو هي سيناريو وضِعت لعرض الخوف والرهبة بوجه نظام كان يتبجح ويراهن على جيش بسبعة ملايين من الأسود الأشاوس والمقاتلين الذين سيمزقون فضّة الفجر بصراخاتهم الليثية. صرخات سترعب القاصي والداني، مُغيظةً الأعداء الموتورين وساكبة الماء القراح على المهج الحرّى تشفيها من داء العطش الجُبني والخذلان الأبدي والمهانة التي لا تحتمل لأمّة قال عنها باريها أنها خير امة أخرجت للناس.

يحدثُ مراتٍ أن يجد المرء نفسه في مفترق قرارات ووسط تساؤلات:

كيف يتدبر أمراً يقينياً ناجحاً وهو يعيش على لظى قلقٍ؟ كيفَ، وهو يتفرَّس في طريقةٍ من طرق الاحتمالات التي يضعها لاقتناء واحدةً يسلك طريقَها الذي يرسيه على لملمة الحال؟ وإذا كان من النفع التريث للوصول إلى مصافي اليقين فلماذا التأني عن إنقاذ سفينةٍ حطَّمتها أمواج الحقد وصخور التجني؟!

ثمة احتمال البقاء في عمّان لديك لحين انجلاء الموقف (ومتى ينجلي هذا الموقف الذي يعوم في هلام؟).. وثمة احتمال سلوك الدخول إلى عمق القفص وتحمّل تبعات النتائج التي ستتحرك لتهرس عظام غبائكَ الذي أدخلكَ (وهل ستحوز على لحظات تحمُّل هذه التبعات قبل أن يتم فعل الهرس؟) فيما احتمال آخر أن تدخل في نقاش مع عبد الرحمن عبر الانترنيت للتداول في موضوعة السلوك الأمثل ومن ثمَ التصرّف.. وأيضاً، أيضاً انبجس احتمال أن تعود إلى ليبيا أو تسلك درباً آخر يوصلك لبلد تكون فيه بعيداً عن الجحيم فتنسى العراق وتتخلى عن نجاة. وكان هذا احتمال الجبن الذي لم تحتمل تخيله فطردته من رأسكَ بطريقة الرفس.

ثلاثة أيام بقيت أخوض في لجج القلق بغية اصطياد قرار يحمل صفة الشجاعة ويطرد التردد.

ثلاثة أيام أعيش في جسدي الذي لم يكن جسدي؛ أو لم أكن أنا الذي في الجسد.

ثلاثة أيام والوجوه التي التقيها في الشوارع والمنعطفات تمر كما أقنعة لا ملامح لها. والشواهد المتحركة أشباح وامضة لا استقرار لها في الذهن ولا وجود لها في الذاكرة.. فقط تجمعت بضعة وجوه وصارت

تحيط بي إمّا لتمنحني الألفة أو لتدعوني إلى تحقيق مرادها..

كان منها وجهُ أمي.. وجهُ نجاة.. وجهُ كمال.. وجهُ عمتي.. عمّي عباس.. وأتذكَّر كلماتِ عمّتي المتأسية على أخيها والخائفة عليَّ " أخشى أنْ تسري دماءُ عباس في عروقه! "...

شبّه لي أن هذه الوجوه تدعوني للعودة كما لو أنها في رغبة نقاش أو تحاور معي.. كما لو أنها تريد استعادة حميمية فقدتها منذ زمن ناءٍ بعيد ولا تجدها إلا معي؛ ولا تتحقق إلا بوجودي.. كما لو أني لن أستطيع العيش بغير محيطها، ولن يشفيني من علل الغربة وآلام الهجر وكمد نجاة وحزن أمي إلا التحاور معها والتنسّم بأنسامها.

صار هاجسي الوحيد أن أعود. وليس غير العودة تطهّر قلبي من أدران الحقد على بائعي الوطن ومستبيحيه. وليس غير أن أشهد بأمَّ نظراتي أيام التراجع والانحسار ومن ثم انمحاق الزمر القاتلة العابثة طيلة عقود بنزاهة الأرض وعفتها.

الفصل السابع

(١)

ها أنا عائدٌ...

أحشرُ نفسي مع العائدين ليدخلوا من فمِ النفق إلى جوفه العتيم.

الحافلة التي تقلُّنا لا تقلُّ أناساً عادوا لهفةً للأرض الغالية والتراب الثمين؛ إنّما تحركوا قَسراً بإجبارٍ داخلي يتبعثر ألماً، ويتناثر خشيةً، ويتعثر انكفاءً.

أعود كالمنكسر الذي ينوء بجراحه لكنّه يضمر إصراراً دفيناً على المواجهة بغير تراجع أو تردد.. إصرارٌ من نافلة تقرير المصير المحتَّم لا مداراة المواقف الوليدة.

انكساراتٌ تولِّد انكساراتٍ!

وجرحٌ يخلِّف جروحاً.. والزمن السريالي يوارب بوابته الجهنمية على اتساع يُقدَّر بكبر حجم الطوفان الإنساني ألذي ابتدأ من أول فقاعة حلم بشري في فك رموز الكون المبهم، وحاجة الرسو عند مرفأ لا مرئي يقي الإنسانية مدَّ الكدر الذي صنعه الله ليقيس سعة التحمل لدى مخلوقهِ المسكين.

ودخولنا عبر بوابة طريبيل هذه المرة لا تعني شيئاً سوى الحاجة إلى الدخول..

ليأتي الطوفان بما يحمل. وليحصل للجسد الذي يحتضن سكاكين الألم ما يحصل.

سأردد مع رامبو في مركبه السكران " وهكذا؛ فأنا مركب ضائع تحت شعر الخلجان الصغيرة، مقذوفٌ بالإعصار في أثير لا طير فيه"..

في قاعة تفتيش الحقائب كان الرجال باللباس الزيتوني يتفرسون عن بعد بعيون متابعة تتقد على أشدها. تتطلع في وجوهنا مرةً وفي فحوى الحقائب التي شرعنا ننثر فحواها أمام المفتشين الذين يبحثون عن لحظة صيد ثمين يوقعونك في شباكه الأمنية المرّة. يتحسسّون بأنظارهم قبل اكفّهم طبيعة الأشياء التي جلبناها معنا؛ وفي قلوبهم يتراغى الدهاء.

وحين لم يجدوا شيئاً من الذي يعتبرونه من المحظورات يتركونك لمن يقف بانتظار المهمّة المختلسة ليبتزك بطريقة المجاملة فيسرق منك ما قد تكون قد حملته حاجةً لك أو هديةً لعزيز وضعته في دائرة اهتمامك. ولم يكن معي غير ثلاث قواريرَ عطورٍ ابتعتها واحدةً لأمي وأخرى لكمال وثالثة جعلتها بين احتمالين، إما أن اهديها لوالد نجاة أو تبقى لي.

وفي النتيجة لا هي وصلت للرجل المحتمل ولا صارت من مقتنياتي؛ إنما صارت من ملكية الطفيلي الذي شاهدت نظراته الخبيثة تنتظر انتهاء التفتيش فراح يتفوه بأسلوب مَن له خطيبة يريد أن يهديها لها؛ والحصار المفروض من قبل الأعداء على حد ما صرحت به عيناه لا يسمح له بالشراء. ما كنتُ راغباً بإعطائه لولا تشبثه الداني من حالة الاستجداء. تلك الحالة التي وجدتها في زيارتي الأولى والتي سأجدها متفاقمة في زيارتي هذه. فقد أبصرتُ جنوداً يستجدون في

المقاهي وملابسهم العسكرية متهرئة مثلما هجم علينا لحظة توقف الحافلة في "الصالحية" مجاميع من الأطفال المنتظرين وصول الحافلات ليطالبوك بخبزٍ متأكدين أن الكثير من الركاب يحملونه من عمّان.

أيُّ سفينة ضائعة اسمها العراق دفعها ربّابنتها القراصنة إلى عباب برمودا ودوامتها الأبدية؟!.. وأي ركّاب حُكم عليهم أن يعيشوا في خضَّم العواصف وبواطن الأعاصير لا لشيء إلا لأنهم عراقيون حملوا النقاء سحاباتٍ بيضاء في قلوبهم.

في الطريق الطويل والمنهك من طريبيل إلى بغداد ثمة حشدٌ من مسارب القلق تتغلغل في سهوب الرأس فتضج بالصور الرمادية والمعتمة، ناقلةً جملةَ أفكارٍ ستستحيل مواضيعَ للنقاش والتداول، وثمة أسئلة تختزن تريد لها الردود والحلول لأنها غدت مشاكل ليس من اليسر حلها. الموضوع الأول سيكون نجاة. بها ومنها ينبثق الهمُّ الذي أسعى لأزاحته واتّقد ناراً كلّما داهمني ذلك الشريط المشهدي الغريب الذي لا يحصل إلا في الأفلام أو الكوابيس.. صورةُ نجاة أسيرةٍ وبذلك الخواء والجزع واليأس ثم التضرع لا يبرح ذاكرتي وليس لقلبي مقدرةُ التخلّي عن انقباضه واعتصاره حدّ النزف المميت. كيف سأوصل الخبرَ لأبيها؟ وكيف سأقصُّ ما شاهدتُ لكمال؟ وماذا أردُّ على أمي إذ تنهال عليَّ بأسئلتها، هي التي ظنت أنني لن أعود إلا وكتفي يحتك بكتفها.

كان لديَّ خبر اللقاء بعبد الرحمن الذي سيسر له كمال أيَّما سرور. سأحكي له عن مفاجأةِ التقائنا، وعظم الفرحة، وصرف الليالي، وحديث

الجلسات مثلما أدلقُ في مسمعه تراتيلَ ألمي وأنا أحضر وأشاهد معارض الفنون في عمّان والتمنّي بمعرضٍ واحدٍ يُقام لنتاجاته التشكيلية البارعة. مؤكداً ستنال الدهشة وتحوز الإعجاب وتحصل على قدر مستحق من القراءات وتسليط الأضواء.

كان استقبال أمي بغير لهفتها يوم عُدتُ للمرّة الأولى.. أخفت هديرَ لومِها واستعاضت عنه بنبراتِ الأم الحنون:

- تعود في الوقت الذي يهبُّ الآخرون هروباً.. أي قرار نفذته، يا ولدي!

أمٌّ تخشى على ولدها من العواقب القاسية والمفاجآت المتعاقبة في علم الغيب؛ وولد ينتظر اليوم الذي يرى عيون القراصنة تُفقأ، وأحزمتهم التي تحمل سواطير الذبح والقتل المجاني تُقطع، فتُمزّق ملابسَهم ويظهرون عُراة بعوراتِهم، ودماملَ الزهري والسفلس تتفجَّر فيسيل قيحُها فاضحاً صفحاتِ الشرف الزائف الذي كانوا يتبجحون به.

- إذا كنتِ تخشين عليَّ من ضررٍ ما سأحجِّم تحركي.. هذا ما قررت منذ نويتُ العودة.

- وهل تبقى حبيسَ البيت؟

- سأبقى رهينَ الأدب.. سأكتب بما يعوّض ما أحرقت.

كدتُ أقول سأتفرغ لكتابة رواية تجمع كل الهول المريع الذي مررنا به لولا هزّاتُ رأسِّها التي أفشت بعدم قناعة، ونظراتُها التي أباحت بتأسٍّ دفين.

كانت مُحقّةً في لومِها وخائفةً من المجهول.

كانت ترى الناسَ يخوضون في لُجج التمزّق والضياع، والبلد

كالمكتوب عليه ألاّ يذوق طعمُ الهناء.

كانت تريد أن تحدثني عن قائمةٍ طويلة من الذين قضوا موتاً بسبب الاحتباس الداخلي أو الذين انتهوا معدومينَ بصمتٍ مفروض؛ لكنَّها آثرت أنْ لا تنمّي بذرةَ رعبٍ في داخلي. لهذا اكتفت بأنْ أخبرتني عن صعقةِ الجلطة القلبية التي ضربت جاراً لنا وهو لمّا يزل شابّاً في الثلاثين من عمره فأردته صريع الحزن من لدُن الجميع لما كان يحظى به من دماثة سلوك وحسنِ خُلق؛ مثلما اختزلت الألم كلّه بالقول: " أننا زائلون لا محال، وتبّاً للحياة التي جملتُها ألمٌ وفقدانُ أمان "، تاركةً الأسى يوشّح وجهها، هو نفس الأسى المُصاحَب بالحيرة والدهشة ذلك الذي وجدتَهُ يفيضُ من عينيها وهي تراني أعود مخلوقاً آخر: كَبُرَ عمراً، وتجعَّد وجهاً، وتغضَّن رقبةً، وضمُر جَسَداً، وازداد صُفرةً، وتفاقم شحوباً ، وتبعثر سلوكاً، وتهشَّم أعصاباً، حتى بدا كأنّه من جيوش المعتوهين السائبين في الطرقات أو المجانين الذين يستحقون نيلَ الشفقة. كادت تقول: " لولا حدسي الامومي ولهفتي التي تستبدلها لهفة لقلتُ أنتَ لستَ مبدراً !.. ما الذي حدث لك لتكون هكذا؟!.. هل كنتَ سجيناً.. مخطوفاً .. ماذا فعلوا لك في الأردن حتى تعود إليَّ بهذا الوجه الممصوص والملامح المستلبة.. آه، يا ولدي! ".

لم أشأ الحديث بما حصل في عمّان خوفاً على أعوامها المتبقية لئلا تتهشم سريعاً فأخسر الكون بأكمله.

(٢)

لا أدري إن كنت صرفتُ أسبوعاً أو أكثر دون أن أخرج من البيت مكتفياً باستقبال أختي التي هرعت لزيارتي عندما أخبرتها أمي عبر الهاتف. كانت أكثر قلقاً عند مشاهدتها لي. حسَبَتها نوعاً من المفاجأة المثيرة للحزن. انهالت بسيل من الأسئلة الشبيهة بأسئلة أمي في حين كتَمَت عنّي ونحن في غمار الحديث عدد من الأخبار المُحزنة بناءً على رجاء الوالدة. عرفتُ ذلك بعدما سألتهما عن أحوال عمّتي وما إذا كانت تصلهم أخبارها فاكتشفت أنهما يتهربان من الإجابة ويدخلان أحاديثَ يحاولان من خلالها التنصل. وبسبب إلحاحي وطرح فكرةِ ضرورة سفري لزيارتها أباحتا بوفاتها بعد شهرين من مغادرتي، وبأنها كانت تردد ورأسها على وسادة الموت بأنها سعيدة لرحيلها لأنها متلهفة للقاءِ أخيها عباس! ستراه شاباً هناك في جنان الخلد رغم أنها حاولت مراراً القدوم لزيارتنا بقصد الصعود إلى غرفته والتحاور مع شيئياته المتروكة في أماكنها بعد إعدامه؛ كما أباحتا أنهم كانوا يمنّون النفس باستقبالها لكنها كانت عاجزةً عن المجيء بعدما استفحل عليها مرض السرطان ونهش أحشاءها دون عِلمها بتسلله المخاتل إلى جسدها. قالت وأنفاسها تتقطّع أنها ستحدّثه عن المرارة التي لم تزل في فمِها والغصّة التي تعيق عليها تنسُّم أريجٍ شافٍ منذ رحيله شهيداً، وستقول له أنها الآن تنعم بالجنة الحقّة لأنها تسعَد بلقائه.

– أراحت واستراحت. قالتها أختي.. لقد قضت أسابيعها الأخيرة تئن وتتوجع؛ وذاك القوام الجميل نحلَ فغدت شبحاً.. حتى هي لم تكن تصدّق صورتها وهي تتطلع في المرآة.

- الحصار يا ولدّي أنهك الناس وكشف الجوع عن مخالبه البشعة فراح يسرق من الوجوه رونقَها ومن الأجساد امتلاءَها... همست أمّي كأنها ترى فيه شبحاً يتوارى وسيظهر لها في أية لحظة ليرديها بمرضٍ من أمراضٍ يضمها في جعبته.

- والرعب اليومي من السلطة، والهم الذي يتراكم وسط شعور أن لا أمل بالخلاص. الناس لم تعد تصدّق بأقوال أمريكا في تغيير النظام.. لقد خذلت أمريكا الناس الذين وثقوا بها في حرب الكويت فتركتهم فريسة بيد الهاربين العائدين. لقد ضاع للناس أبناءٌ لا يعرفون لحد هذا اليوم مصائرهم؛ هل هم أحياءٌ سجناء أم أمواتٌ تحتويهم قبور. لقد تركوا القتلة يستعيدون قواهم بعدما هربوا فتشرذموا وبان خواء حزبهم الخالي من الإيمان. إنهم الآن يجنّدون الصغير والكبير ويلاحقون الرافض والمحتج في مسرحية مثيرة للسخرية عنوانها "جيش القدس" الذي يعدّونه لمواجهة الأعداء وتحرير القدس السليبة كما يشيعون.

كلاّم أختي لخّص عموم الحال وأعادني مصطلح هذا الجيش "إلى لقاءاتي بأعداد غفيرة من الناس في عمّان وهم يقصّون هروبهم عبر الحدود بطرق غير شرعية لأنهم ممنوعون من السفر والسلطات في العراق لا تمنحهم الجوازات، فقد سعت لضم الشعب كلّه ليحمل السلاح ومن هنا كانت تعد جيش القدس اكبر جيش في العالم وتتباهى بأن تعداده غدا سبعة ملايين.

- أخطأتَ كثيراً يا أخي بعودتك!

- وأخطأ بتقديرات الحال فتصوّر أننا نعيش كأحياء.. وافقتها أمي.

في تدانيات القسوة المريعة وتهالكات الذات القهقري تغدو الأيام الثقيلة من نافلة حكم القدر وهو يأتي بالفأل السيء متبوعاً بالأسوأ فالأسوأ ليقصَّ تفاصيلَ كوابيس تنتج الهلع وتزرع الريبة. ومن تخوم الرعب وملكوت التطيُّر تتحرك الذات المحاطة بالرهاب فلا تدري كيف تسلكَ طريقَ النجاة ولا تتفقّه الأسلوب الضامن للخلاص. كانت احتمالاتُ الخطأ ونتائجه واردة في حكمهما. وما قالتاه حسبته الحق. لكنّ وجودي خارج الوطن غدا لا مبرر له؛ وليس من اليقين المقبول أن أظلَّ بعيداً عن بؤرةِ النار بعد الذي شاهدته يحصل لنجاة. لذا ما فعلته يقف لصالحِ قرارٍ اتَّخذته. وما أسعى إليه يبرر تصميمي. ومن خشيتها عليَّ ترجّتني أختي أن لا أخرج ولا أظهر نفسي كثيراً في الشوارع والأسواق؛ لأنَّ ذلك يعني سقوطي في فخاخ سَوقِي مع جموع الناس المُساقين قَسراً.

انتهزَتْ دخول أمي إلى المطبخ فنهضت من كرسيّها لتجلسَ بجواري هامسةً همسَ التضرُّع:

– عندما يكتشفون وجودَك لن يتركوك. سيلاحقونك لا محال. ستُطرق الباب ألف مرةٍ في اليوم وهذا يعني دماراً لأمّنا. أنها عجوز لا تتحمّل الضغوطات. لازِمْ البيت واعتمِدْ على التلفاز والمذياع لصرف الوقت أو تتبّع الأخبار؛ أما ما يدور في المدينة فسأتولى بنفسي حملها إليك. وإذا استجدَّ شيءُ هاتفني فآتيك.

كلامُ الأخت يفضي بالخشية عليَّ وعلى أمّي.. بل علينا جميعاً. فما زالت مرارة الأذى الذي حصلت بسببي عالقةً في أفواههم، والذكريات القاسية التي هجرتها الأعوام تعود إليهما فتقضُّ بقايا

استقرارهم.

اكتشفتُهم راغبين ببعدي عنهم ليس لأنهم تخلّوا عن صلةِ الرحم بل لأن وجودي بينهم يعيدُ إليهم سلسلة المنغّصات التي لم تعد لهم أعصاب تتحمّلها. كان كلامُها موضوعياً وكانت أمّي على حقٍّ في بوحِها الأقرب إلى التشاؤم. لذلك نزلَ وعدي لها بأخذِ نصيحتِها مأخذَ التطبيق كرذاذٍ مطري على مهجّةٍ حرّى.

الغريب أنَّ التلفازُ استمر يبثُّ برامجَ اعتيادية لا تشير إلى أن ثمّة انقلاب دولي هائل سيحدث غب زمنٍ قصير. برامج تبعد المشاهد عن تخمين قلق النظام على وجوده؛ لكنَّ الإذاعات المحيطة والبعيدة تنقلُ أخباراً سوداوية تحتل مقدِّمات النشرات. تزيدها تحليلاتٌ يتقاربُ فيها متداخلون تستضيفهم البرامج السياسية لهذه الإذاعات فتَؤل منتهياتُ توقعاتِهم إلى أنَّ الحربَ واقعةٌ، وأنَّ الأساطيلَ الحربية وحاملاتِ الطائرات المتوجّهةَ إلى الخلجان والبحار القريبة من العراق لم تأتِ للعبةٍ سياسيةٍ ساذجة.

يظهر عريان ليستحوذ كعادته على نشرات الأخبار ليس كما كان يفعل في أعوام بهرجته الانتصارية المفتعلة سنوات حربه الأولى مع إيران أو حربه الثانية في وبعد احتلاله للكويت (تلك الأعوام كان يطوف في سماء الساعات بصوته وحركات أصابعه؛ يطلُّ على الشاشة من بعد الثامنة مساءً بخمسٍ دقائق حيث النشرة المفصلة كما يُفتَرَض ولا ينتهي إلا قبل العاشرة بخمسِ دقائق، ليُعاد بعدها مرّةً أخرى من بعد العاشرة بخمس دقائق حتى الثانية عشرة إلا خمس دقائق كإعادةِ إطلالة لمَن لم يشاهدُه في نشرة إخبار الثامنة. وهكذا كان يُجرُّ

العراقيُّ إلى المشاهدةِ الإجبارية جرّاً بلا اعتراض ولا إبداء رأي مخالف. وظهوره الذي بثُّ اتابعه كان يُبرمَج على أساس اللقاء بشرائح المجتمع كعرضٍ يعكس تمسُّك الشعبِ بقائده، وهي صرعةٌ درجَ على استخدامها المتفردون بالسلطة، المهيمنون على المقدِّرات.) صار الآن يلتقي بقادة عسكريين وقد جلبوا منتسبيهم من الضباط ليعلنوا ولاءهم وأهليهم لقيادته كجرعة تخديرية من جرعات شعوره بأنّه ما زال رئيساً، وأن الكرسي ذا المساند الملوكية الذي يضمّه لا يوجد أحد من هؤلاء يفكرّ بالقفز وإزاحته والجلوس عليه. أحدهم ينقل له تحيات أمّه العجوز ودعاءها بأن يبقى زعيماً أبدياً للوطن (وهو كاذبٌ في ذلك فقد كان يرتعش هلعاً وهو يتكلم ويتهدج صوته رعباً كما حَمَلٍ وجدَ نفسَه أمام ضبع جائع)، وآخر يعلن أنَّ وحدته العسكرية في أتم استعداداتها القتالية وأن جنودها متشوقون لهتافات المدافع وزغاريد الرصاص (وما يقوله ينأى عن الحقيقة، فعناصر وحدته شرعوا يتبخرون؛ وأنّه هو نفسه قد اعد خطّةَ هربه يما يكفل سلامته)، وثالث ينقل تحيات أبيه الضابط المتقاعد الذي شارك في حرب العام ١٩٤٨ وحرب العام ١٩٦٧ ويتفاءل بالنصر على الأعداءِ الآن (وما نقل إلا فريّةً، لأنَّ الأب كثيراً ما صارح ابنه أنها حرب خاسرة من أول طلقةٍ، قائلاً بلهجة عراقية ساخرة: هذي حرب صواريخ ليزرية مو حرب ضراط فاشوشي)

غب قيلولة باردة من شهر كانون أول وأسابيع قليلة متبقية من العام ٢٠٠٢، وحيث اعتراني شعور التقصير في ملاقاةِ كمال وتوقّع تلقّي لومَه وتعنيفه بعدما يكتشف أنَّ وصولي مرَّ عليه ما يربو على الشهرُ ولم اتصل به هبطتُ من غرفتي ساعةَ فرغ البيت بخروج أمّي لجارةً لها

تدخل معها كالعادة حديث الآلام. رفعتُ سماعة الهاتف المركون على رفٍّ خشبي صنعته بيدي قبل ربع قرن ورحت اضرب على الأرقام فجاءني من بعيد صوت لصبيّة تسألني:

- من أنت؟ من تطلب؟

- أطلب كمال.

- إنّه أبي.

- هاته.

لم أسمع ردّاً. بل كان الصمت يملأ سماعة الهاتف، وأنفاس لصبيّة مرتبكة. واسمع صوتاً من بعيد يكلمها فتقول: لا ادري انه يطلب أبي.

- تفضّل! مَن المتكلِّم؟

- أنا مبدر، صديق كمال. أريد أن اكلّمه.

كان صمتاً طويلاً أطول كثيراً من صوت الطفلة سرق زمن الكلام:

- كمال مات!

خلتُها مزحةً أو أن أذني لم تلتقط الكلام الصحيح. وكان وجوباً إظهار الإبهام وإطلاق كلمة "ماذا!!!" تتبعها عشرات علامات التعجب النحوية؛ فعاد الصوت يعيد بانخذال هذه المرّة وتحشرج:

- مات كمال.

كادت سماعة الهاتف تسقطُ من يدي عندما جاهدت لوضعها في محلِّها.. حالاً صعدت إلى غرفتي. ارتديت ملابس الحزن وخرجت باتجاه بيته.

استقبلتني أخته الصغرى لتدخل قليلاً وتعود راجية مني الدخول إلى غرفة الاستقبال حيث استحال الموقف مبعث بكاء وإعادة مراسم عزاء..

انهالت الأم بنوبة بكاء كأمٍّ ثكلى وتبعتها الأخت، ثم صوت النحيب القاهر طفق يأتيني من خارج جلستنا. عرفت غب لحظات أنها زوجته التي كانت في أقصى حالات الألم. فلم تكن تريد تصديق خبر رحيله.

تركتنا الأم والابنة وجاءتني الزوجة لتجيب على أسئلة حيرتي التي ابتدأتها عن أسباب موته:

- مات منتحراً!

- كيف؟!

- الفرات الذي على مقربةٍ منّا هو الذي استقبله فابتلعه. إخفاقات لا عدَّ لها وقفت أمام طموحاته، وعجز هائل وجد نفسه مقيداً بقيوده في كل خطوة يخطوها. الظروف التي أحاطت بنا بسبب الحصار كان يفسرُّها من باب السحق اليومي ما دفعته إلى الشعور بالتهالك. راح يتذبذب في أفكاره. مرةً يُظهر نفسه وجودياً لا يُقر بما نؤمن به، ولا يرتضي طقوساً دينية نمارسها. يحسبها من باب السفه والجهالة والتخلّف. ثم ما لبث يوماً أنْ اتَّجه اتجاهاً دينياً فراح يكثر الصلاة ويؤم الجوامع وينكفئ على القرآن يطالعه بشغف ويحفظ آياته عن ظهر قلب حتى أنّني دُهشت لذاكرته القوية وحفظه السريع.. لكن ذلك لم يدم طويلاً. أشهر معدودات فقط! أنقلبَ بعدها إلى شرب الخمر وتعاطيه طوال اليوم. سلوك لم يعجبنا جميعاً؛ وكثيراً ما تلقى التقريع من أخيه الأكبر فاقلع عنه وعاد إنساناً مثالياً.. كنتُ أتأسى عليه وأرجوه من أجل عيون الأولاد أن يكون طبيعياً، فهم ينظرون إليه الأب الحبيب الرحيم.

توقفت قليلاً تجاهد في حبس الدمع الذي ترقرق في عينيها وأوشك على الانسياب:

- كان كمال فنّاناً بارعاً وشابّاً مؤمناً عندما تزوجته ثم بعد ذلك أباً أصيلاً ومواطنا مخلصاً لكنَّ القدر بأيامه الطاحنة لم تكن معه. كان يهجر الصلاة لزمن ثم يعود إلى أدائها. كنت ألمس تذبذبه وأعزو ذلك لحياة الفنانين والمبدعين الكبار فأبرر له تقلباته . غير أنه صار بعدما ودّعك في بغداد مشوش البال. يكثر من الشرود ويتوه في هذيانات لا تترك في نفسي غير شعور أنه لن يبقى الزوج الذي عشت معه أعواماً ولا الأب الذي كان يضمُّ الصغار بين ذراعيه الحنونين. كان يأتي على ذكركِ كثيراً أمامي، ويقصُّ عليَّ علاقتُكما الحميمة، معكما عبد الرحمن الذي لم أتعرّف عليه وأيام نشأتكم النقية؛ ومع ما كان يحكي أترجم أسىً عميقاً في عينيه وبوح يقول أنكم ضعتم في مهب التيه فلم تحققوا ما ابتغيتموه. ترك الفرشاة والرسم وأهمل نفسه. كاد في لحظة ضعف أن يحرق لوحاته لولا أنني نصبت العوائق والعقبات فأثنيته.. وفي ظهيرة خريفية قبَّل جبهتي وطبعَ قُبلات أبويّة على خدود الصغار طالباً منّي أن أوليهم عنايتي فهم وروده اليانعة كما كان يصفهم دوماً، وقد أينعوا في هذه الحياة خطأً؛ وخرج.

أجهشَتْ بالبكاء الحاد وراحت ترمي وجهها بين كفّيها؛ ما جعلني أقدّم رجائي أن تتمالك وجودها:

- لم يمر غير وقت قصير على خروجه عندما فاجأتنا طرقات متتالية على الباب تنذر بشيء غير اعتيادي. اخبرنا القادم أن كمالاً رمى بنفسه في النهر ولم يظهر أبداً.. باءت محاولات من أبصره يغرق بالفشل في إنقاذه.. لقد قضى انتحاراً.. لم يصدق كلُّ مَن سمع الخبر. كان شيءٌ من الذهول يعتري الأهل والأصدقاء.

عادت لي ذكرى فحوى رسالة بعثها إليَّ. ولّدت عندي هاجس الشك بسلوكيات كمال وتصرفاته بعد افتراقنا أعواماً فقد فاجأني يوماً برسالةٍ قال في نهايتها:

"وأخيراً رضخ الماموث مُحنياً هامةَ اللا انتماء، ومُقرراً أنَّ الرفضَ شرع يتخلّى عن دفاعاته بعدما هجرت النوارسُ موانئها وتبعثرت في أقاصي الدُنى... الحاح الأب وتوسّلات الأم ورجاءات الأخوة فتتّت صوان الإصرار على الرفض ومزّقت الخارطة التي كنت استعين بتضاريسها على التحدّي، فدفعتني صوبَ قرارٍ كنت أحسبه من باب التّفاهة والسفَه والنزعات الوضيعة... تزوجت! نعم تزوجت، يا مبدر. وبرسالتي هذه التي أخمنها ستصلك بعد شهرٍ أكون قد قطعت أربعة أشهر من مضمار الحياة الزوجيّة."

الرسالة طويلة. رأيتُ ظاهرها يبشّر بالبهجة ولكنَّ باطنَها ليس كذلك قطعاً. فقد تصاحبنا منذ الطفولة والصحبة جعلتني أدرك متى ينشرح هذا الصديق الحميمي ومتى يحزن. وما هذه الرسالة التي جاءت لتنقل خبراً يُفترض به حاملاً لأبجديات الفرح إلاّ خطاب حزنٍ دفين، وشيفرة تحتاج الكثير من التتبع لفكِّ دلالتها وصولاً للمدلولات. لا يمكن لكمال استبدال أفكارِه العبثية الرافضة / المتأصلة / المعشّشة في ثنايا الروح بأفكارٍ يقول عنها إيمانية، بحيث يعلن أنّه الآن يصلّي ويمسك مسبحةً يُعدد بحبّاتها استغفارَه.. لا؛ لا غير معقول!. إنّ دخوله إلى حلبة الدين وبهذا الإعلان الصريح والمبهرج الكلمات إلاّ لتذبذب عقلي وتأجج توجسي يساورانه بسبب أزمات لا يريد البوح بها. الرسالة تلك وضعتني في مضمون خيار واحد لا غير. هو أن كمالاً بدأ مسيرة

التدهور النفسي ولن يكون لزواجه منحاً ناجحاً حتى لو أحاطت به دزينة من الأبناء. هذا الاعتقاد ظلَّ راسخاً في ذاكرتي لأنني عندما التقيته، التقيته يحمل في داخله جبالاً من الهموم لم تنفع خيارات لقائي به سوى لأيام. فقد كنت المح الأسى يمور في عينيه وهو يحادثني ويتكلّف الثبات في موقفه من الحياة الزوجية و الاجتماعية. كنت أرى كمالاً ليس ذلك الذي كان متحمساً للحياة ومندفعاً يعدد عليَّ طموحاته التي يريد تأسيسها على أرض الواقع ليكون عَلَماً فنياً إلى جانبنا كأعلامٍ أدبية.

تلك الليلة اكتشفت أمّي كمدي، وتحمَّلت تعنيفي لها لأنها لم تبلغني بخبر انتحاره. بررَّت ذلك لئلا أجزع فأزدادُ همّا؛ هي التي تعلم أن هموماً كثيرة تنتظرني فإذا جاء حضورها انهيالاً عليَّ قد يتسبب ذلك بذبحةٍ صدرية تداهمني أو علّة السكّري تواجهني فأضحي من عِداد الأحياء الموتى. كانت تريد أن تهاجمني الهموم بشكلِ جرعات. كانت تقول: "ما زال أمامك الكثير، يا ولدي!.. يكفيك الآن ما تشاهده في التلفاز!"

كان لكلام أمّي وقعُهُ الصحيح. فالذي تنقله الأخبار وتدفعه إلى واجهات الحياة التفصيلية تُضعِف دفاعات الذات وتضئِّل مقدارِ الشجاعة التي لها باعٌ محدود ستتهشّم في لحظةِ ضعفٍ قاهر.

هنا! قدرةُ التمسكِ بالوطن تهاوت، والحالُ استحالَ إلى كيفية أنْ تعيشَ ليومِك لأنَّ الغد في غيمةِ ضبابٍ عاتم والأمس لا يجب النظر إليه كماضٍّ يستحق الحنين إليه. وما عليك في العيش ليومك هو أن لا تلتفت حواليك وتنظر لما يعانيه غيرُك. ذلك أن معاناتِكَ هي بحجم

قدرتِك على العيش لأجلك فقط لا لحساب الغير. فالتفاني كلمةٌ ساحتْ فماعت، فتبخَّرت، فانتهى وجودُها، فدخلت في متحف النسيان.

(٣)

في ساعةِ ضيقٍ، وحين أجدُ نفسي مُحاصراً، تنتفضُ في داخلي لافتاتُ الاحتجاج فتقودُني إلى عدم ايلاء النصائح المستحمة بالخشية عليَّ من قبل الأحبة. أقول في نفسي أنا جئت وليس بأفضل من الآخرين. والحياة كما أرى لا قيمة لها وسط شواخص الخنوع والإذلال اليومي المقصود..

فتخرج!

تأخذني الشوارع والآلام، وترميني الأزقة والأحزان وأنا أشاهد المدينة برمَّتِها سجناً عسكرياً. منتهيات الدروب ومداخلها تحتلها مفارزَ ذوي الملابس العسكرية الزيتونية، وفي مداخل الأسواق تقف عربة لاندكروز وعلى مقربة منها رجالٌ بملابس مدنية ملامحهم تحمل صفة الصرامة وتشي بالتوجّس من الآخرين، في حين تنتشر بين الناس عيونٌ متابعة تتصفّح وجوه الناس.

الناس الذين أراهم في محلاتهم وأماكن عملهم معظمهم كبار السن الهرمين الذين وجودوا أن لا مناص في تواجدهم كي يواصلوا مشوار كسب العيش اليومي. والمفارقة التي أثارت شدهي وتسببت بضحكات كانت تقطر مرارة هو النسبة الكبرى من النساء اللائي يخطين في الأسواق والشوارع وعرفت في ما بعد أنهن لا يخضعن للتدريب العسكري الإجباري وأداء الخفارات العسكرية.. الشباب من أهل المدينة

لا وجود لهم، ولم ألمح إلا القليل. علمتُ أنهّم أمّا مُجنَّدون في الجيش أو هاربون يقبعون في البيوت؛ وفي الريف جعل الشباب والرجال من طبيعتهم سجناً أو ميداناً للتواري من عيون السلطة التي تداهم أماكنهم لاصطياد مَن يظهر للوجود لتسوقَهُ للحرب القادمة فلم يعودوا يدخلون المدينة. يتوارون في أماكن مخفية في ريف الصمت بحيث لا تصلهم المفارز، أو يلوون هاربين خارج البلد بطرق غير شرعية. لقد هرب الكثيرون وصاروا يجدون الأمان هناك ولو على حساب سوء الحال.. شاهدت أعداداً هائلة منهم في عمّان.

* * *

وأنّا متوجّه إليه وقاطع الشوارع والطرقات وعابر الجسر والسيطرات تخيلتُ صورة استقباله لي بعد ضربة جرس أو طرقة باب. رجل عجوز تسربت من بين أصابعه أعوام العدو باتجاهِ تحقيق مجدٍ شخصي يكلله المركز الاجتماعي الباهر والاسم المعطّر بنضال الأبطال المناضلين يكتشف أن كل ما سعى له وخطط وفكر محض هراء، وأنّه الآن مرمي في برية الوحدة معزول مهان ذليل. توالى عليه الفقد: الزوجة، والابن، والبنت، والعمر. سيرتمي على صدري يبكي اليوم الذي لا طعم له، ويشكو الخذلان الذي يقتحمه ويهاجمه في كل لحظة مثلما يتحسس العار الذي سببّه لنفسه وأسرته.

هل كان يعلم بما يحدث لنجاة؟.. هل خمّن يوم ضياعها أنَّ الرفاق سيعيثون بها متاجرةً وبعثرةً، ويهبونها فاكهةً يانعة لأفواه كريهة، عفنة؟!

دخلتُ الدربَ الفرعي الذي يُظهر البيوت المتشابهة ووقفت أمام

البيت الذي خرجتُ منه آخر مرة وأنا مليء بالأسى عندما اخبرني (هو) أن نجاة ضاعت ولن أجدها، وما عليَّ (أنا) سوى نسيانها وأنها (هي) سحابة بيضاء دخلت ريح عاصف.

ضربتُ جرسَ الباب وانتظرت!

تخيلتُ الرجلَ مصفرّاً تعِباً وهو يتقدم إلى الباب ليفتحها؛ وتخيلته سيتهلل بُشراً، وتتسع تقاسيم وجهه بترانيم المفاجأة. صورّتُه يفتح الذراعين دونَ إرادةٍ كفعلٍ أوجبته ردّة الأعماق ليحتضنناني ولهفة السؤال عن نجاة تسبق تقديمَ قدحِ ماء أو قطعةِ حلوى إحدى مراسيم الضيافة العربية.

عندما طال انتظاري كررّتُ ضغطَ الزر فنمَّ انتهاؤه عن وجه لامرأة ثلاثينية؛ تتفرّس بي وعلامات إبهام تطفح على الملامح:

- نعم؟!

- أنا مبدر داغر أريد لقاءَ العم شهاب سعدون.

الوجهُ المتفرس زاد تحديقُ عينيه، وكاد الفمُ أن يطلق لسان الاستفهام لولا اللحظةُ التي ركضت في سهوبِ الذاكرة فأنتجت ردّاً:

- تقصد الرجل الذي كان يسكن هذا البيت قبلنا؟!

مسحةٌ من الألم الظاهر المفتعَل سبق القول:

- الرجل أصيبَ بجلطةٍ بالدماغ وساءت حالته؛ لا أحد كان يرعاه؛ فجاء أهلُه من البصرةِ ونقلوه.. يقولون انه توفى، يرحمه الله.

ما الذي تقوله هذه المرأة؟ ما الذي يقوله هذا البيت؟!

مات شهاب سعدون من غير أن يدرك مصير نجاة ونهاية الجناة!.. مات تاركاً المصير فضفاضاً بلا نهاية.

كنتُ أريد أن أفوه أمامه ولو بكلمةٍ واحدة أقول فيها " كنتَ محقّاً يا رجل بضياع نجاة ". وكنتَ شجاعاً يوماً عندما تخطّيت الخطوط الحمر للتنظيم الحديدي التي تنتمي إليه وطلبت منّي مغادرة الوطن بأسرع وقت متحمِّلاً العواقب التي قد تحدث فتجرُّك إلى الموت الزؤام.

مات شهاب ولم يرَ بعينه دنوَّ انتهاءِ الأفكار التي حملها واقتراب موتها الأبدي بعد سيولٍ من الدماء الفوّارة والقتل الجماعي والاضطهاد الذي لم تشهد له البشرية في تاريخ وجودها على الأرض. مات ولم يبصر خذلان عريان ونهايته التي لن تكون أقل من نهاية سفاحي العصور.

استدرتُ وفي صدري حسرةٌ أطلقتُها جرّاء تذكّر ذلك المشهد المريع لنجاة وهي تتلوى ألماً وفجيعةً. تلقفني الشارع بفراغهِ المثير للتوجّس وحيرة الناس، ووجومِها، وخشيتِها من القادم رغم رغبتِها الدفينة بالخلاص.

وجّهتُ حيّزاً كبيراً من انهماكي لكتابةِ الرواية وجعلها مُعدّة للنشر في أيةِ فرصة، ذلك أنَّ الزمن في تسارع والمفاجآت قد تأتي فتقتل التصميم وتبدد المواقف وتطيح بالصور المتراكمة في جيوبِ الذاكرةِ وهياجِ المخيّلة. صار همّي أنْ أؤرّخ الهول واحفر على صوانِ الأيام روايةً تستحمُّ بالموضوعية فلا تنحاز إلا للحقيقة، ولا تدوّن غيرَ الواقع بتتابعِ أحداثه وتهافت أقداره. جعلتُ ساعات الليل غيمةً أعتليها فأسوح بقلمي على فضاءات الناس بحواراتهم ودواخلهم، وعلى طرقات المدينة وحواريها جاعلاً من المدينة هذه أنموذج ينطبق على مُدن الوطن جميعاً. وكثيراً ما كانت أمّي غب أسابيع وبحكم تهالك حركتها وعجزها

عن صعود السلم تتنحنح كشفرةٍ تريد مني فكّها لأقف على اهتمامها بي وخشيتها عليَّ؛ ذلك عندما تشاهد ضوء غرفتي يتسلل من الفتحة الدنيا للباب التي احكم إغلاقها مدركاً أنَّ الفضول الأمومي سيدفعها إلى تأجيج العاطفة وترسيخ الخشية الأزلية من أمٍّ على ولدها في عصر المُلمّات. كنت افتح البابَ فأطمئنها أنّي في سعيٍّ جاد للكتابة وكما وعدتها. وأعود لأكتب كل ما جعلَ من عملي السردي تدويناً مقبولاً ينقل حُقباً من الزمن تتداخل وتتفرط؛ تتسلسل وتدخل حومة التفكك طبقاً لمجريات العمل الروائي وهيكلياته المتنوعة. بدأتُ باستهلال قصصي يعطي أوليات حياة عائلة شهاب سعدون وما كتبته ابنته نجاة في ساعات رسم الزمن وهو يسير بغير ما رُغِبَ في رسمه، وما طُلبَ إليه أن يكون، وسيتواجد بعضٌ من هذا القص في نسيج الرواية وحسبما تقتضيه الحبكة. ثم الدخول إلى تفاصيل الرواية التي تبتدئ من ساعات خروجي أنا الراوي بعد زيارة للوطن جاءت إثر غياب دام عشرين عاماً. بقائي يستمر لأشهر معدودات. أخرج بعدها الخروج الثاني بحثاً عن نجاة التي لم أجدها تنتظرني. ويستغرق الزمن من خروجي الأول أواخر السبعينات حتى مجيئي أواخر التسعينات من القرن العشرين اغلب أحداث الرواية وتفصيلاتها. تخللتها أوليات خروجي والأماكن التي وصلتها وكيف عشت فيها؛ وسِفر الصداقة الأقرب إلى العشق مع فتاة مغربية أرادتني الحبيب الذي يلبّي توجهاتها في بناء حياة زوجية خالصة؛ وتمخضات حرب الخليج التي أطاحت بكل سعادة متبقية لدى أبناء شعبي وعزّة وطني. وأخيراً إدراج الحياة التفصيلية التي نعيشها بانتظار حرب شرسة بعد حصار تجاوز العقد

من السنين ستطيح بآخر صرح من هيبة النظام الذي أرسى دعائم كيانه على جماجم الضحايا الأبرياء الذين صفقوا له يوماً بأكفِّهم الطفولية البريئة فقطع الكفوف، حيث سيترك وطناً مهدّماً وشعباً جريحاً سيحتاج لعقود طويلة يلعق الجراح ويرممّ قوامه المُتعب الهليك.

السماء تُفتَضُّ يومياً بهدير طائرات تُعلمنا الإذاعات الناقلة للأخبار أنها طائرات الاستطلاع؛ ويأتينا التهديد والوعيد محمولاً على موجات الهواء بأنَّ الهولُ قادمٌ والتضحياتِ لن تقف بمجرّدِ اختفاء "خيَالات المآته ". فالرصاص لا يلعلع استعراضاً، ولن يتحرك ليضرب رؤوس الجناة، أنّما لتسقط جرّاء اللعبة الكبيرة غير المتكافئة جموعٌ جرّارةٌ من الضحايا التي لا جريرة عليهم.

دول الجوار في حالة من الصمت المريع تاركةً أراضيها ومياهها تستقبل فرق القتال وحاملات الطائرات ونحن هنا وسط عيون تبوح بقولِ شمشون وهو يصرخ من شدّةِ اليأس: "عليَّ وعلى أعدائي" بعدما استنفذ كل وسائل إقناع الأعداء في إبقائه على كرسي الخنوع. والناس هنا منذ عقود في انتظار فرجٍ لا يأتي إلا من السماء. فظلّوا ينتظرون وينتظرون! ينتظرون فيتأسون؛ حتى ملّوا الانتظار وغزاهم السراب. وأستعيد بوح زوجة كمال لي وهي تتلكأ في قولٍ كأنها لا تريد أن تقوله لكنَّ تعلقها بكل ما كان حبيبها يفوه هو الذي شجعها "لقد كان كمال ينتظر، وينتظر.. آآآآآ؛ ينتظر.. ينتظر! حتى سمعته يوماً وفي أقصى حالات انهياره يردد: السماء خالية! نعم خالية لا يوجد فيها أحد! فلا تنتظروا الفرج الكاذب! عندها شعرتُ أنه على شفا الانتهاء.".

ألـج دروب الروايـة فأسـتفيق مـن ربقـة اللاجـدوى. أتـأبَّط خلجـات الشـخوص فـأحس بتماهياتهـا مـع زمنـي المهشَّـم، أتـدثر بشـلالات التفاصيل وأتعطَّـر بـأرائج المفردات. مدهوشـاً أخطـو، ومشـدوهاً أنطلـق عارياً إلا مـن رغبـةٍ طافيـةٍ علـى توالـدات رغـاوي باثقـةً أسـئلةً حيـرى: "أهكذا يكونُ العوم؟.. ألهذا يبقى التطلّعُ سرمدياً سرابياً سادراً في البحث المنفلت والتشرنق العميم؟ هل ستكفي المفردات ويفي ترسيم الرسوخ من الآلام، وترسيخ الرسـوم مـن الأوجـاع؟.. أوجـاعٌ!.. أوجـاع متناسـلة لا مدى لانتهائها!

تتملكنا حالة الاندهاش، ويعترينا شعور أننا في حلمٍ كابوسي طويل سرق الأمـاني وأطبـق علـى التطلعـات.. هـل الـذي حـدث علـى امتـداد عقود ثلاث ينطوي تحت يافطـة العمر المفروض؟ أيعقَّل أن ينوء هذا الـوطن بأحمـال حـروب ثـلاث فـلا يخـرج عـن طـوره لينـتفض انتفاضـة القرار المتَّخَذ في وهدة الكون، صـارخاً بكل ما في الرئة من هواء: إمّا الحياة على سعتِها وإمّا الموت على جثومه.

تزورنا أختي فتنقل أخبار الاستنفار الذي وصلت إليه الحكومة بكل أجهزتهـا العسكرية والأمنيـة بمظاهرهـا التـي يُفصِـح عنهـا الشـارع. تقول أن وحـدات عسـكرية دخلـت المدينـة واحتلـت المـدارس وراحـت تحفـر المواضـع في ساحاتها وتنقل الاعتدة لتخزّنها في الصفوف، فليس هذا وقت العلم والمعرفة، وأنَّ أعداداً من المتطوعين العرب السوريين جلبوا ليشاركوا الجيش في معاركه منطلقين من اعتقاد أنهم يطبقون جهاداً دينياً مفروضـاً، مخدوعين بكذبـة عريـان مـن أنَّ الحـرب القادمـة ستكون "أم الحواسم" حيث ستُدمَّر أمريكا وتزيلها من الخارطـة الكونيـة. وتـأتيني

أمّـي بأنبـاء تنقلهـا مـن أفـواه نسـاءِ الحـي عـن أحـداثَ مهاجمـات ليليـة تتعرض لها مقرات فرق وشعب حزب السلطة؛ والسلطة لأولِّ مرّةٍ تبدو عاجزة. إنها تفقد تلك القوة الحديدة لتضرب بها المهاجمين.

كنـتُ موقنـاً أنَّ الحـال لـن يـدوم وأنَّ مـا يجـري لا يـأتي عـن هبـاء. وهؤلاء الذين يهاجمون معاقل الجبروت لا بدَّ واصلون إلى قطف ورود النصر وتقديمها باقات معطّرة للشعب الغارق في المعاناة. هذا شعبٌ صـبر كثيـراً علـى جبـال الجـور التـي يـدفع بهـا الجنـاة لتسـحق وجـوده وتمحــي تاريخــه، وأنّــه علــى وشــك أن يغلــق كتــاب المحنــة الملــيء بصفحات القتل الشامل ويكشف عدد المقابر الجماعية. كان شاوشسكو يهين شعبه بأنّه بنى لهم دولـة لهـا مؤسسـات الدولـة العصـرية ويتبجَّح أمام وسائل الإعلام الأجنبية أن الرومانيين يطفون على سحابة سعادة لا يعرفها الغير. لكن الحقائق عرَّت حال سقوطه في قبضـة العدالـة أنـه كان يعطيهم وقود التدفئة لأربـعِ ساعات في اليوم الروماني الزمهريري فقـط فـي الوقـت الـذي يتمتـع هـو وأجهزتـه السـلطوية بعـيش الرفاهيـة الباذخة والتدفئة المريحة طوال اليوم أمام ارتجافات الناس واقترابهم من حافة الانجماد.

ولفرطِ احتباسـي فـي البيـت وشـعور أن مـا اكتبـه لا بـدّ أن يولَّـد مـن ضجيج الماثل صرتُ أخرج يومياً. أطوف سائحاً في الطرقات، متطلعا فـي الوجـوه، متابِعـاً سـلوكيات رجـال المفـارز المـرابطين فـي منتهيـات الطرق ومبتدءآتها، وتلك التـي تجـوب ألامـاكن باحثـة عمّـا يثيـر شـكّها بغية الانقضاض عليه ومحقه، وأولئك المقنَّعين الذين يرتدون الملابس السـود مـرةً والبـيض مـرة أخـرى ويُطلـق علـيهم "الفـدائيون" وهـم يثيـرون

الرعب في دواخل الناس بمجرد ظهورهم أو مرورهم في الشوارع، وهؤلاء الذين يتسربلون ببدلات الزيتوني ويمثلون كوادر الحزب الحاكم. أقرأ اسطر التوتر تفضحه ملامحهم بينما الضجر مقرون القلق وكراهية الوضع باديةٌ على وجوه الناس كأنّها ملّت انتظار الخلاص وتبغيه يأتي كالبرق الخاطف، مقلصاً الزمن، وخاتماً لعقود الدمار والانسحاق.

كان قدرٌ من الخشية يفزُّ في قلبي، وشيءٌ من التوجِّس الذي يعود لأعوام طويلة ينهض ليذكّرني بضرورة التحوُّط مما يجري. فالماثل يبعث على أن تكون لديكَ نباهةً وعدم استهانة لأنّ الذي يرفع شعار شمشون ليس صعباً أن يوجّه إليك مدفع حقده فيتركك نثاراً، وما أسهل القتل لديه. وعلى الجانب الآخر من الأعماق ثمَّةَ دافعٌ جامحٌ يقتحم ترددي، ونزوعُ تحدٍّ جارف يقفز أمام خشيتي والتوجّس.

في ساعةٍ امتزجت في القلبِ شماتةُ الموتورين على عدوٍّ جاهل قاد الوطن الحبيب إلى الدمار مع حزنِ الذين قضوا وفي أعماقِهم أمنيةُ أن يشاهدوا عريان يتهاوى كعملاق كارتوني هش ومزيف جلستُ اكتب نصّاً أضع له عنوانَ ((هؤلاء)) كتوصيف لكلِّ مَن أساء لشعبي ودنَّس أرض الوطن، ولأولئك الذين لبسوا ثيابَ الشيطان وتمتعوا بخصالِه البذيئة:

اللابسون أردية غيرهم.

المتشدِّقون بزيفٍ مضى.

المبطَّنون الزاخرون بالرياء.

الأمّارون بالكذب.

المتخلّفون.. المتخلّفون.

النمّامون.. الباذلون جهداً لاقتناص الكلام.

صُحّاب الأفاعي الرقط.. مستعيرو أذناب العقارب.

الناهشون، المقذوفون،العابثون، المنبوذون.

سارقو طمأنينة الآخرين

الذائدون عن الرذيلة.. البارّون بأهل الفسق.

خائنو التاريخ غباءً.

لابسو قفّازات الثرثرة، وإنْ صمتوا.

الرافلون زهواً على جراح الأنقياء.

القائلون " نعم " أبداً، أبداً.

الناسونَ كلمة " لا " حتماً.

الساخرون من الوطن.. الهازئون بالأرض.

المتشدِّقون بانتصاراتٍ خاسرة، مهينة.

الراكعون في محراب مُذلِّيهم.

أرجلُ كراسي أسيادهم.. حوافر مطايا الغرباء.

مُذلو شعوبهم أمام الأعراب.

هؤلاءِ.. وكلُّ هؤلاءِ،

أُطلقُ عليهم رصاصَ كلماتي

وأُبشّرهم بالمزابل.

الأسابيع تمر! ودخولنا العام الثالث من الألفية الثانية ترسينا على شهرٍ بارد انعدمت فيه الأمطار، وبلغ انعدام الخير فيه أقصاه!

وعلى نقيض هذه البرودة كانت ثمة سخونة تعلو وترتفع مع توالي الأيام تُنتجها مراجل الطائرات التي تفتّض الأجواء، وأفواه تنانير

التصريحات والتعليقات المنهالة على صدر الوطن من كل صوب، مثيرةً رعب السلطة من أعلى قمّة هرمها حتى القاعدة، ومحققةً نجاح الحرب النفسية بأعلى درجات النجاح. فلقد صار الناس لا يشمّون في أجواء رجال عريان غير روائح الخوف ولا يقرأون في وجوههم سوى ألوان الرعب من هول الآتي الذي ينتظرون، ويخشون.

وأنا أرى ما يجري من انكفاءٍ للقهر أرى أيضاً ما يأتي من زوالٍ للعتمة.

هم يندحرون ونحنُ نبزُغ.

ينسلُّ منّا الألم فيما يندفع إليهم الخذلان.

ولفرط اقتراب العافية منّا

تتسلل مخالبُ العلل إليهم.

(٤)

ذلك الفجر المضبَّب من شهر آذار داهمتني رغبة أنْ أخرجَ إلى حيث البقعة التي رمى كمال نفسه في قلب الفرات – ليبدأ حياة الرحيل المائي الرائق انفضاضاً من هيولي المعاناة دون مبالاة بالنتائج – لعلّي أجده هناك ينتظر فيخرج من حضن الماء ليحكي لي بانوراما العذاب، وفراسخ الانسحاق، وهدر الزمن، وتهافتات الشدائد، وتوالي الهزائم. وأحكي له عن أشهرَ عمّان ولياليها؛ وذلك المشهد الذي تنغرز تبعاته ولمحاته كالخنجر في خاصرتي وكالدبابيس في قلب استقراري.

سلكتُ طريقَ ساحة الاحتفالات، مارّاً بهيكل مبنى محطة القطار الذي استحدثوه باراً واسعاً ومكمناً أمنياً؛ داخلاً الشارع الطويل الذي

يقودني إلى النهر.

ولقد فوجئت بما لم يمر في الحسبان؛ وبما لا يوضع في خانة التوقُّع، فرحتُ أهيل أسئلةَ الحيرة الممرَّغة بعلامات الاستفهام والتعجّب على صخرة الذهول؛ وأتطلَّع في دروب عقلي الذي جاء صافياً هذا الوقت المبكّر من اليوم، مكذِّباً صدقَ ما أرى.

ما فاجأني وفجّر التساؤلات في بواطن الروح هو ما لمحت!

لا وجود لمفارز الجيش والشرطة تلك التي كانت تحتل مداخل الطرق وتنتشر في الساحات إلا القليل منها!.. لا وجود للأعداد الوفيرة من العساكر وعناصر الجيش الشعبي سوى أفراداً بدوا كأنهم لم يَنَموا ساعةً واحدة من الليل.

تركتُ ما رأيت ورحتُ أزرع الخطى على أرضية شارع "الستّين" متطلّعاً إلى واجهات الأبنية المتهالكة قارئاً قصائد الحزن واللوعة على الجدران الشاحبة وحركة وئيدة لأناس ناهضين توّاً وقد بدوا كأنَّهم يغوصون في بحرٍ من إنهاك وعِللٍ ليس لها منتهى.

شرطي عجوز يقف بباب مصرف الرشيد ملولاً وقد علّقَ بندقيته على كتفه بلا اكتراث. وفي المقابل امرأةٌ تطلُّ بجسدها من إفريز شقتها في الطابق الثاني من البناية ذات الثلاث طوابق مطالعةً وجهَ الشارع كأنها تقيس وقت اقتراب ساعة الحرب من حركة الناس، ثم تعود لتدخل وتتوارى.

ذلك الفجر البطيء أيقظ سيول المفردات فأحدث شلالات شعرٍ كان يحتشد في براري الروح. نادى على شعراء العالم المسحوقين، الغارقين في هُلام العدم أنْ تعالوا فاسكبوا أحرفكم وأهيلوا مفرداتكم وانثروا آهاتكم

فهذا قادمٌ من نطفةِ الشعر المرير، ومقذوفٌ من رحم التهالكات العتيدة. هلمّوا أيّها المشتعلون بنار الخلقِ القويم وأنتم في جنان التيه الأزلي، في هيولي الدهشة المُقدَّرة.

كنتُ أسير وبي شعور أنَّ بودلير والمتنبي يمشيان معي، ومعهم كان رامبو وبوشكين. وبجانبهم السياب واوكتافيو باث. يمسُّ أكتافَهم سان جون بيرس والماغوط. يخطو لوركا متبختراً بنبوءته التي تقر باندحار القتلة:"كنتُ موقناً أنهم سينهزمون، وسيتوارون أولئك عُشاق الدم."

بعثنا بنظراتنا إلى الدروب والساحات فلم نبصر من ذوي الوجوه البشعة والعيون الذئبية الغادرة غير رائحة الهزيمة. لقد تواروا وتبخروا. ومع تبخرهم وتواريهم نهضت من رحم الأعوام وآهات الألم وصدى الجراح الصارخة في برية الإنسانية العمياء، الصماء، البكماء جموعُ الذين اغتيلت أحلامُهم ووئدت تطلعاتهم؛ قادمين حشوداً ولَّدتهم أرحام الأزقة المطعونة بالفقر والقهر والعذاب! حشوداً لا عدَّ لهم!. تحركوا باتجاهنا؛ وقد ظهر خلفهم قوسُ قزح باعث أمواج بشرى التغيير بألوانٍ طيفية شفيفة وبسحرٍ آسرٍ وئيد، مُحرِّكاً في الدواخل قوافل الأمل البهيج. تتقدَّمهم غدران الفرح الدافق. تكتسح من أمامها مطبّات الكدر الجثيم، وفخاخ اليأس الرسيخ. الشهداء يترجلون بقامات باسقة، ووجوهٍ نيرة، وألبسة تزهو بزهور ضحكاتهم الطفولية أيام كانوا صبيةً يجوبون طرقات الجذل وحواري مدينتهم الريفية البريئة، القانعة، الودودة؛ مُحاطين بزغاريد نسوة هنَّ أمهاتُهم الثكالى، وأخواتُهم الحزينات، وزوجاتهم الأرامل، وخطيباتهم الطعينات، وحبيباتهم اللائي انتظرن اليوم الموعود للاقتران. وفتية يرفعون الصواني ملأى بالشموع النيّرة وأغصان

الياس الخضراء.. تتقاطر دموع الفرح ماساً، من الحدقات تتلألأ.

افرد الجميع الأذرع، وواربوا الأرواح. ثم طفقوا يتعانقون.. امتزج الشِّعر بالآهات، وتشابك الأنات بالتحيات.

أضيعُ وسط العناق! هائماً في حمّى التلاقي فاذكرُهم أحبتي، وبذكراهم اترك القلب يترجَّل ليأخذ فسحتَه من البوح. يقول الذي جمع من الذكرى؛ ويفشي بما اختزن من الأمل؛ فينده:

نجاة! أرى فيك الهواءَ والماء والأرض التي تحتويني. بك أتلمس حصيلتي، وأرثي، وموجوداتي، وتواجدي على أيقونة التبجيل.. أنتِ جغرافيةُ القلبِ وفضاء الروح؛ تتسامى العين في النظر إليك، وتثلج الأعماق عند التعشق فيك. وحين أغيبُ عنكِ ليس لي إلا الحنين إليكِ.. بدونكِ ليس لي إلا إعلان نثاري في بريّة الضياع وسط أخاديد وطوايا وتعرجات وعظايا ووحوش وكواسر!.. بغيركِ تائِهٌ أنا؛ ألفُّ الدروب وأبحث عنكِ بين أناسٍ غرباء ينظرون إليَّ بعين الاستهانة مُعيبين افتقاد هويتي وتفرّط وحدتي.

مُتيَّمٌ أنا بكِ رُغمَ البعد عنكِ! ومهجورٌ أنا رُغم التعلّق بكِ!.. أفيقُ على أوجاعِ تضاريسك، فأكمد! وأنده بسكاكين الألم أن تغزو هنائي الراسب في قعر القلب وشجاعتي اللائذة خلف سدود الصبر.

نجاة أيتها العراق الذبيح، المُنتَهَك، المبتلى.. يا تاريخي البارق الباهر السرمدي: أنحني لأجلك فأصلّي خاشعاً في محراب انشدادي إليك والتصاقي بك. جهدتُ في جعل هذا الرحيل السردي مبتدأ لتأرخة جراحاتك ومعاناتك ويُتمِكَ..

أراكِ اليوم يتيمةً فعلاً! فقد ماتَ الذين سعوا لصون الشرف وحفظ

العِرض؛ وبقي الذين يتفرجون على ذبحِك وتقطيع أشلائك؛ كاتمين صرخات الاستغاثة التي تطلقينها بأكف الضغينةِ والغدر.

نجاة! أيتُها الوديعةُ البريئة. أكتبُكِ الآن وقد انتهيت!

وانتَ يا كمال! سأقيم معرضاً يسِعَ كلَّ نتاجاتك الإبداعية الثرّة وأجنّد جموع النقاد ليكتشفوا كنوزك المخبأة في ثنايا خَلقِك الجميل.

ويا عبد الرحمن أنتظركَ أنا هنا!

أدريك قادماً على جناحِ بهجةِ العودة لأعشاش طفولتكِ المائية الغامرة.

أما أنت أيها الهادي التونسي! مؤكَّداً ستقرأ فحوى هذا الخطاب السردي وتسعَد لوعدٍ قطعته إليك.

ها أنا اسمع هدير الطائرات تمزّق ثياب سمائنا الجميلة، وتستبيح سكونَنا الذي يُفتَرَض أن يكونَ نقياً.. ها أنا أُقتَحَمُ بنشرات الأخبار والتعليقات تنقلها إذاعات الـ BBC وصوت أمريكا، وإذاعة دولة الكويت، وإذاعة العراق الحر، وإذاعة صوت العرب من القاهرة ، وغيرها.. وغيرها!... جميعاً تضجُّ بالبرامج والمعلّقين الذين يُقرّون بكلّ تبجحٍ وحصافةٍ كلامَ أنَّ آراءهم في أنَّ الحربَ ستقع لا محالة؛ وأنَّ تحليلاتِهم كانت ولا زالت صائبة؛ وثاقبة، ودقيقة.

برامجُ التلفاز المحلّي تتوالى! لا تولي بالاً لحربٍ قادمةٍ، مهول! ولا تعير اهتماماً لما سيحصل لعراقٍ كسيرٍ، عليل بينما الناسُ في هلعٍ جديدٍ وغريب، وغامض. يخشون أنْ يكونَ أكثر هولاً من حرب الكويت، وأشد وطأةً من جثوم الحصار.. لكنهم في نفس الوقت بانتظار زوال العَتَمِ الطويل .. بانتظار الخلاص القادم.. الأكيد.

(٥)

اللیلةَ
وطني يذهبُ إلى السرير.
يرمي رأسَهُ المتعبَ على وسادةِ القلقِ؛
فلا ينام!
....
....
غداً تبدأ الحرب!!!

بين زلّة والسماوة
٢٠٠٢ - ٢٠٠٦

ينحو العراقي زيد الشهيد في روايته (فراسخ لآهات تنتظر) باتجاه عرض الحال الاجتماعي في زمن الحصار الذي فُرضَ على العراق من خلال الدخول إلى حياة ثلاثة من المنتجين المبدعين (شاعر، ورسام، وناقد) كانوا يوماً ما مُفعمين بطموح أن يغيروا خارطة الوطن، منتشلينه من الفقر والعتم والاستلاب فإذا هذا الاخطبوط ينتزع منهم كلَّ شيءٍ بجهلهِ، وعنفه، ودمويته،؛ وإذا بالرازحين تحت خيمةِ السَّحق والعسَفِ ينتظرون المُخلّص القادم من دنيا الاحلام.

رواية تجمع بين دروبِ سردها وطرقات وصفها كلَّ ما جرى للعراق، وما حدثَ للعراقيين.

روايةُ اليوم التي ينتظرها القارىء ليضع بصمةَ اكتشافه على كلِّ ما كان مجهولاً عبر ثلاثة عقود من الأعوام.